محمد صلاح السيد

ما بعد بحر الشمال

نون للنشر والتوزيع

ساحر الكتب

الكتاب: مَا بعد بَحر الشَّمال
المؤلف: محمد صلاح
تصميم الغلاف: يوسف السيد
تدقيق لغوي: محمد عبد العال
الخريطة والرسومات: محمد صلاح السيد
تنسيق: نَسق Nasaq
رقم الإيداع: 2025/35526
الترقيم الدولي: 9789777785136

30 عمارات العبور - طريق صلاح سالم - القاهرة
ت : 01096539633
info@noonpublishing.com

جميع حقوق الطبع و النشر و التوزيع محفوظة للناشر

أرض الماس

بحيرة البحاء
بحيرة ميرن
البحر البارد
بحر الشمال
الماسيا

جبال النار
وادي الملاص
نوبا
نارين
فيونا
الميرا
مررة

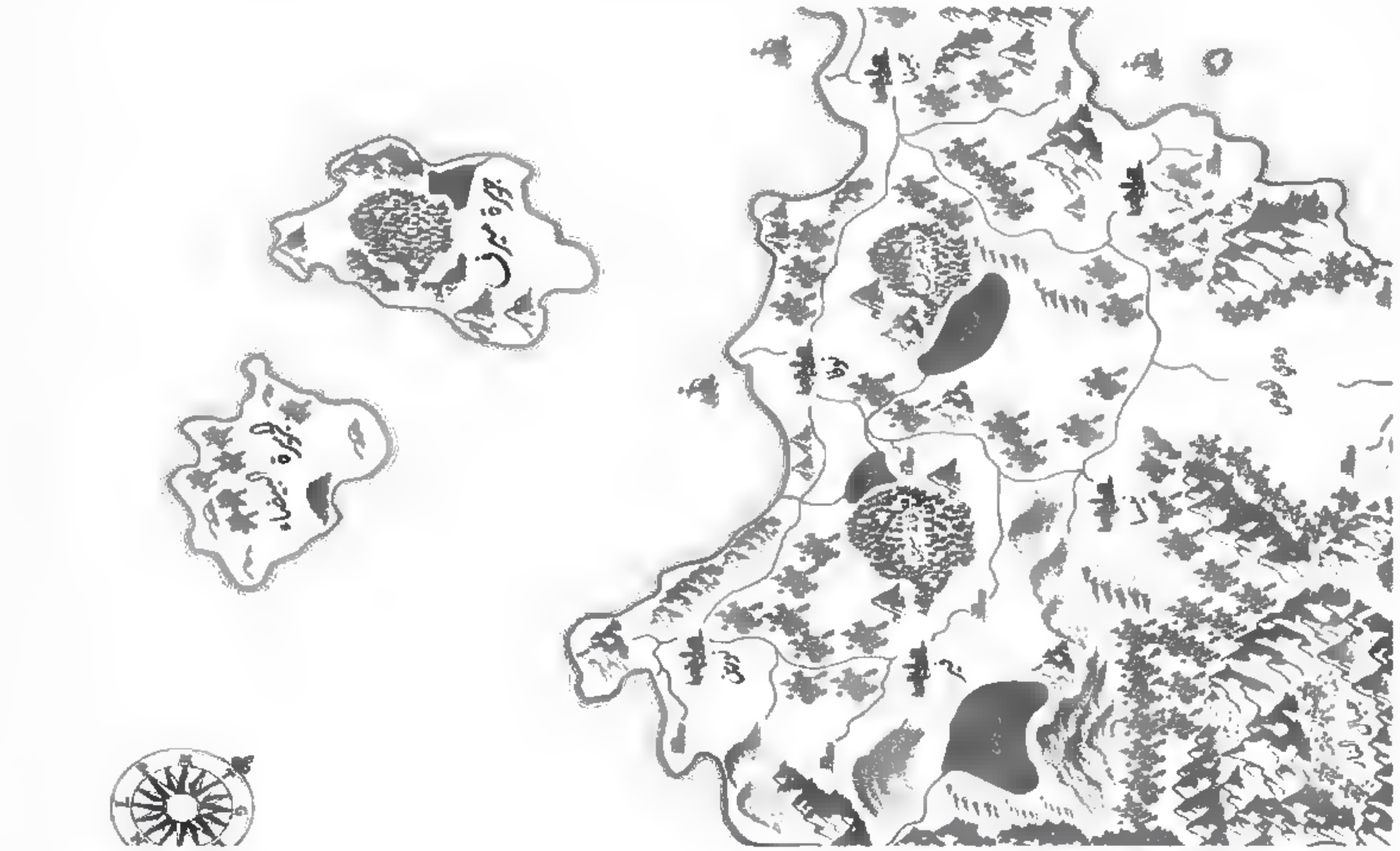
بحيرة ميرن
بحيرة خيشة

مقدمة

على أطراف أرض إيستوريا الشمالية، وضعت الحرب أوزارها ذات يوم. وقفت الممالك الثلاث فالييريا وتارا وبيناروس صفًا واحدًا في وجه جيش الفارجُل أتباع الظلام، وانتصروا بعد معركة عظيمة، قاتل فيها البشر والجان والأقزام جنبًا إلى جنب حتى هزموا أتباع سيد الظلام «سِردار»، والتي هربت روحُه السوداء بعدها نحو الغرب إلى أرض لم تطأها قدم من إيستوريا في ذلك العهد، إلى أرض تُدعى «ألْمَاسيَا».

لكن، بعد مرور ثلاث سنوات على هذا النصر الكبير، سنوات هدأت فيها أصوات السيوف، وطغى عليها النسيان مع استقرار الأوضاع، أتى ذلك اليوم الموعود لإتمام ما بقي ناقصًا.

هذه الرواية ليست تتمة لرواية إيستوريا، بل هي حكاية جديدة في عالم «أرض الماس».

رحلة عبر بحر مجهول، نحو أرض لم تُذكر إلا في الأساطير.

رحلة لا تشبه سابقَتها، رغم أن من يخوضها، هم نفس الأبطال.

فإن كنت جديدًا على عالم أرض الماس، ولم تطالع الرواية

الأولى، لا بأس، فكل ما تحتاج إليه يبدأ من هنا.

أما إن رغبت بخوض التجربة كاملة من جذورها الأولى في «إيستوريا»، فستجد هناك بداية الحكاية.

***

1

شاطئ الفيروز

أشرقت الشمس صباح ذلك اليوم لتضيء بنورها الذهبي مملكة فالييريا العظيمة، وتسَلّلت أضواء أشعتها الدافئة من بين سحب السماء المتفرقة إلى غرب تلك الأراضي، حتى كشفت مزفاً بلدة الفيروز على ساحل بحر الشمال، وظهرت عنده تلك السفينة الكبيرة ذات الصواري العظيمة «العنقاء»، بعدما ازداد الزحام على المرفأ قبالتها في تلك الأثناء، ودبت الحركة على سطحها بين جنود البشر والجان والأقزام لتخزين المؤن في العنبر، تزامنًا مع طي البحارة لأشرعتهم البيضاء ونصب المجاديف الجانبية استعدادًا للمغادرة.

سأل أحد البحارة واحدًا من جنود البشر بعدما نظر ناحية المحاربين الثلاثة عند مقدمة السفينة، بعدما خيم الصمت عليهم هناك في أثناء ما كانوا يستمعون إلى أصوات الأمواج الهادئة، ويشاهدون انعكاس ضوء الشمس على المياه الزرقاء، ويستنشقون رائحة يُود البحر المنعش:

- أي منهم هو المحارب مالك؟

أشار الجندي إلى أحدهم قائلًا:

- هذا هو المحارب مالك ابن سليمان السيّاف، محارب فالييريا وقائد جيوشها العظيمة، وصاحب النصر الكبير على الفارجُل وأتباع سردار.

نظر البحار إلى مالك بنظرات إعجاب طويلة، امتزجت مع ابتسامة بريئة ارتسمت بوضوح على وجهه في أثناء تأمله

في ذلك المحارب القوي، الذي كان يرتدي درعًا حديديًا على صدره فوق رداءه الأبيض، ويلبس فوقه معطفًا من الفرو الخفيف، ويستند بيده اليمنى على حافة السفينة الخشبية، واضعًا الأخرى على مقبض سيفه في أثناء وجوده داخل غمده.

حتى سأل مرة أخرى بعدما أشار بيده:

- ماذا عن المحاربين الآخرين؟

- المحارب فارس قائد فرق المغاوِير بفالييريا، والمحارب فهد قائد جيوش الأقزام بمملكة تارا. هل كنت نائمًا طوال السنوات الماضية أم ماذا!

قالها الجندي ضاحكًا، فأجابه البحار بعدما رفع حاجبيه قليلًا:

- نحن نقضي معظم الوقت على العنقاء داخل بحر الشمال، لذلك لا نهتم كثيرًا بما يحدث على اليابسة.

- حسنًا، هيّا لننهي تلك الاستعدادات سريعًا قبل قدوم الملوك.

قالها الجندي في أثناء مغادرته، فانضم البحار إلى بعض رفاقه عند المقدمة لسحب مرساة السفينة الحديدية، وجلس البقية عند المجاديف على الجانبين في انتظار تلقي الأمر للتجديف بها من المرفأ نحو المياه المفتوحة، تمهيدًا لفرد أشرعتها بعد ذلك، بينما صعد القبطان كينان على سطحها في تلك اللحظات، فتوجهت أعين بحارته له احترامًا وتحية لقدومه، ونظر مالك وصدَيقه لَه إعجابًا بهيئته المهيبة.

***

قبل ذلك بثلاثة أيام...

ارتفع صخب قلب مدينة ميريت عاليًا في تلك الليلة، وتعالت أصوات المقطوعات التي يُنشِدها العامة داخل استراحاتها المختلفة، خصوصًا «استراحة الزمان» التي يأتيها المحاربون الثلاثة عند اجتماعهم معًا، وقد تجمّع الثلاثة في هذا اليوم بعدما أتى فهد بصحبة الملك رشيد من مملكة تارا ليجتمع بالملك ظافر حاكم فالييريا لأمر هام، فجلس الثلاثة هناك في تلك الليلة ليُذيبوا الشوق بينهم، ويتبادلوا أطراف الحديث.

قال مالك بعدما أتى عامل الاستراحة لكل منهم بشرابه المفضّل، ووضع أمامهم بعض المياه، قبل أن يذهب سريعًا لتلبية طلبات باقي الحاضرين بعدما تعالت صيحاتهم في أثناء مناداتهم له:

- لا أصدق بأنّه قد مرت ثلاث سنوات على تلك الحرب!

رد فارس بعدما رشَف رشفة طويلة من شرابه قائلًا:

- نعم، مرت كأنها أيام وليست سنوات، لكن هكذا هي الحياة دومًا، الوقت يمضي سريعًا!

تناول فهد شرابه كاملًا على دفعة واحدة، وضع الكوب أمامه بقوة، ثم قال بتنهيدة:

- لا أصدق بأنّه قد مرت ثلاث سنوات على فقداننا لسيف!

تغيّرت ملامح صديقيه قليلًا، ثم رد مالك قائلًا:

- هذا أكثر ما يُحزنني دومًا عندما أتذكر تلك الأيام، لكنه

أدى واجبه على أكمل وجه، وسقط في سبيل الدفاع عن الجميع!

استمر الثلاثة في تذكر أحداث الحرب الأخيرة، وكيف نجحوا في القضاء على داركان، وإيقاف إحياء سيده سردار على إيستوريا قبل أن تهرب روحه السوداء نحو «أَلْمَاشيَا»، تلك الأرض البعيدة التي لا يعلموا عنها شيئًا سوى وجودها، والتي انتظروا كثيرًا أمرًا من ملوكهم لاستكشافها، والقضاء على ذلك الشر المظلم عليها قبل أن تتعاظم قوته ويهاجمهم مرة أخرى. لكن مرت تلك السنوات الثلاث وتجاهل ملوك إيستوريا خلالها ذلك الأمر تمامًا.

- كيف حال ليلان؟

قالها فهد بابتسامة، فأجابه مالك بتنهيدة حاول إخفاءها:

- زوجتي بأفضل حال. فقط نعيش حياة مملة بعض الشيء، ونتعايش مع كل تلك الأمور المعتادة بعد الزواج.

رد فهد:

- حياة مملة!

- لقد كان زواجكما استثنائيًا، ووافق ملك بيناروس بنفسه على زواج إحدى محارباته الجان بمحارب من البشر.

- لا يمكنك أن ترى هذا الأمر كل يوم!

قاطعه فارس قائلًا:

- أعتقد أن مالك هو من يشعر بذلك وحده، فقد عرف ليلان خلال طريق الحرب والقتال، وشعر بالاختلاف بعد انتشار السلام وعودة الحياة الهادئة.

رد مالك بعدما هز رأسه مبتسمًا:

- ربما، لكن مع ذلك ما زلت أكن لها كل تلك المشاعر، بل وأكثر من ذلك، وأرغب بأن تعود علاقتنا كالسابقة مجددًا.

قطع حديث الثلاثة صوت أحد الجنود بعدما نزل من فوق حصانه وتوجه نحوهم سريعًا، قاصدًا طاولتهم المفضلة إلى جانب الطريق، مدّ يده برسالة قائلًا:

- سيدي مالك، رسالة عاجلة من الملك ظافر.

تناول مالك الرسالة من الجندي، فتحها على الفور بعدما أمره بالذهاب، ثم بدأ في قراءتها بهدوء. نظر بعد ذلك لصديقيه ليخبرهما بأن ملوك إيستوريا الثلاثة ينتظرون قدومهم لقصر ميريت مع ليلان وليلى في الصباح لأمر طارئ، والاستعداد بعدها للذهاب بعيدًا.

- ماذا قصد الملك بالذهاب بعيدًا؟

قالها فهد بدهشة، فرد فارس:

- ربما يقصدا..

قاطعه مالك بثقة:

- ألْمَاسيَا بالطبع.

بدأ شعور الحماس بالسران في عروق الثلاثة، أحسّوا بتجدد الأمل الذي كاد أن ينطفئ داخل قلوبهم طوال تلك الفترة الماضية، خصوصًا مالك الذي كان ينتظر تلك اللحظة كثيرًا، ويعشق الذهاب إلى مثل تلك الأمور الخطيرة، وقد رأى على الدوام أن عمله قد بقي ناقصًا بهروب روح سردار السوداء،

وأراد كثيرًا الانتقام من أجل كل من سقطوا في تلك الحرب الشرسة، لكنه تذكر ماسة أريانا فقال:

- لقد أدركت مؤخرًا بعض أسرار ماسة أريانا التي كنا نجهلها سابقًا، وأردت إطلاعكم عليها.

ثم أردف بعدما نظر له صديقاَه باهتمام:

- كنت قد افترضت أنا وفارس أن ماسة أريانا بفضل قوّها السحرية تذهب بمالكها إلى الماضي الحقيقي ليرى منه ما يشاء في أثناء حدوثه، لكنّنا كنا مخطئين!

- لكنك رأيت الماضي بالفعل، وشاهدت عن طريقها الحرب الكبرى التي انتصر فيها أجدادنا على سردار وأتباعه، بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى.

قالها فارس، فبدأ مالك في إخبارهما بحقيقتها التي توصل إليها. لا تنقل الماسة مالكها إلى الماضي وقت حدوثه، بل تظهر له فقط الأحداث المخزنة بداخِلها لكل من امتلكها سابقًا، كما تُظهر له ماضِي المكان الموجود فيه فقط، لذلك هي لا تظهر أحداثًا سابقة لأماكن بعيدة.

- لكنك رأيت الحرب الكبرى من قبل ولم تكن في مكان حدوثها!

قالها فارس، فأخبره مالك بأنه قد رأى تلك الحرب القديمة في وقت سابق، لأنّ سردار كان هناك مع جيشه من الفارجُل، وكانت الماسة بحوزته في ذلك الوقت، حتى أنه شعر بوجوده هناك لقدراته السحرية المظلمة، لذلك كل تلك الأحداث الخاصة بسردار منذ امتلاكه للماسة وحتى فقدانه لها مخزنة

عليها بالفعل، ويمكن رؤيتها بمجرد التفكير بها.

- ماذا عن رؤيتك لسقوط والدك أمام داركان داخل الغابة السوداء؟ فهذا الحدث لم يتواجد به سردارا!

قالها فهد، فأوضح مالك لهما بأن ما حدث في ذلك اليوم هو أحد قدرات الماسة السحرية التي تُظهر أحداثًا من الماضي بالفعل لحاملها إذا تواجد في نفس مكان تلك الأحداث، وقد كان في ذلك الوقت داخل الغابة السوداء بالفعل، لذلك تجلّى أمامه هذا الحدث بوضوح، فقال فارس سريعًا:

- لذلك رأيت داركان في الماضي عند قدومه إلى البرج الأحمر قبل أن تصعد إليه بالواقع، قبيل حربنا الأخيرة!

أجابه بعدما هز رأسه بالإيجاب:

- نعم، لأنني كنت هناك.

سأله فارس:

- كيف عرفت كل هذا بعد تدمير الماسة في البرج الأحمر؟

- الحقيقة هناك سر أحتفظ به منذ فترة سأطلعكم عليه في الوقت المناسب.

قال فهد بعدما وضع يده على فمه وبدأ بالتثاؤب:

- هل يمكننا الذهاب الآن، فقد غلبني النعاس كثيرًا.

- نعم، هيّا بنا، فلدينا اجتماع مهم بالغد.

وضع فارس بضعة عملات نقدية على الطاولة، ثم امتطى حصانه وانطلق مع مالك إلى منزليهما بصحبة فهد، حتى وصل إلى هناك واصطحب فهد إلى منزله، بينما وضع مالك

بعض العشب أمام حصانه «أصيل»، ودخل بعد ذلك إلى منزله هو الآخر حيث كانت ليلان في انتظاره.

- تأخرت كثيرًا!

قالتها بصوت ضُحب بعض الضيق، فأجابها:

- كنت مع فارس وفهد عند استراحة الزمان، هل أنت بخير؟

- بخير، لكن سأكون بخير أكثر إذا لم تتركني كل ذلك الوقت بمفردي!

- أعتذر عن ذلك، فقد حدث أمر طارئ لذلك تأخرت قليلًا.

- ما الأمر؟

أخبرها مالك بأن الملوك الثلاثة قد دعوهم لقصر ميريت من أجل أمر هام، وأن عليهم الاستعداد للرحيل بعيدًا. أدركت أمر ألْمَاشيَا على الفور واقتربت منه سريعًا، عانقته بشدة ثم قالت:

- يبدو عذرك منطقيًا، لذلك أسامحك تلك المرة!

- لكن لا تبتعد كثيرًا مجددًا، خصوصًا أنك تعلم بعدم وجود أصدقاء لي من البشر، وأنني أبقى وحيدة طوال الوقت بعد العودة من قصر ميريت.

ابتسم قائلًا:

- لقد كنت محظوظة بموافقة الملك ظافر على عمل محاربة من الجان داخل قصر ميريت.

ردت ليلان بابتسامة مشابهة:

- صحيح!

- هيّا لنخلد إلى النوم، فقد تأخر الوقت ويجب أن نذهب باكرًا إلى القصر.

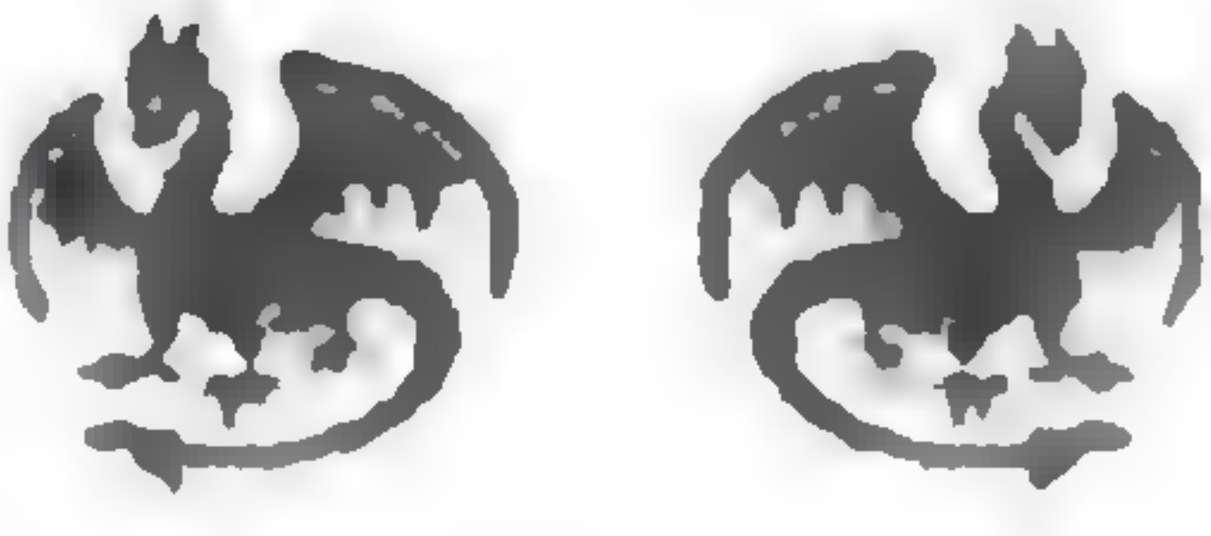

ذهب الاثنان سريعًا إلى فراشيهما، وغطّا في نوم عميق استيقظا منه معًا عند الشروق، تناولوا بعض الطعام الطازج أولًا، ارتديا ملابسهما والتمسا سيفيهما، ثم خرجا معًا بصحبة حصانَيهما في انتظار فارس وفهد وليلى.

سريعًا ما خرج أصدقاؤهم الثلاثة فتبادلوا التحية فيما بينهم، ثم توجهوا صوب القصر عبر شوارع ميريت، حتى وصلوا عند بابه الخارجي بعد فترة. ترجلوا من فوق خيولهم وسلموها إلى الحراس، عبروا ذلك الباب ودخلوا إلى القصر عبر أروقته الداخلية، إلى أن توقفوا أمام باب الملك ظافر في

النهاية، قال مالك لأحد الحراس:

- أخبر الملك ظافر بأن المحاربين بالخارج.

لم يرد الحارس، اكتفى بالدخول عند الملك للحظات، ثم خرج قائلًا:

- جلالة الملك ينتظركم بصحبة الملكَين غياث ورشيد.

***

2

في قصر ميريت

اندفع مالك أمامهم إلى الداخل حتى توقفوا أمام الملوك ووزير الملك ظافر «جابر»، ثم أحنوا رؤوسهم قائلين بصوت واحد:

- سيدِي.

رد الملوك التحية، ثم أجلسوهم إلى جوارهم على الطاولة الخشبية الكبيرة، وبدأ الملك ظافر بالحديث:

- لقد حانت اللحظة التي انتظرتموها كثيرًا.

- حان وقت الذهاب إلى ألْمَاشيَا ومطاردة سردار.

في تلك اللحظات، بالرغم من توقع المحاربين لذلك مسبقًا، ساد الصمت بينهم طويلًا، اكتفوا بالتحديق إلى بعضهم البعض خفية، بعدما شعروا بالرّهبة عند سماعهم كلمات الملوك، وكان الأمر مختلفًا تمامًا عن مناقشتهم له عند استراحة الزمان. قطع مالك ذلك الصمت الحاد أخيرًا قائلًا:

- نحن جاهزون يا سيدي.

نظر الوزير جابر لهم قائلًا:

- الحقيقة، لم يقلقنا وجود روح سردار السوداء طوال الوقت، فهي عديمة الفائدة بمفردها!

- لكن، ما أقلقنا دومًا خلال السنوات الثلاث الماضية هو فرار أحد قادته بعد الحرب بصحبة عشرين من الفارجُل عبر بحر الشمال.

- لذلك من المتوقع أن يقوم أتباعه باستخدام الماسة الأخرى التي علمتم بوجودها في ألْمَاسيَا لإعادته إلى الحياة، وتنفيذ ما فشل داركان في تحقيقه في إيستوريا.

- هذا بالطبع إن لم يكونوا قد نجحوا في ذلك منذ وقت طويل!

رد فارس بعدما هز رأسه:

- هذا أمر متوقع جدًا يا سيدي!

قال مالك بقلق:

- إن سيطر سردار على ألْمَاسيَا، سيستخدمها لتنفيذ هجمات لاحقة علينا، ولن نتمكن من الوقوف في طريق الظلام مجددًا.

قاطعه فهد سائلًا الملوك والوزير بفضول:

- هل يوجد على ألْمَاسيَا أحياء؟

- لا نعرف يا فهد، لا نعرف أي شيء عن ألْمَاسيَا، كل المعلومات لدينا تشير إلى وجود يابسة بالفعل، كما أن طريق الوصول إليها أيضًا به من الأهوال الكثير.

قالها الملك رشيد، فأكمل الملك غياث مبتسمًا:

- ومع ذلك، جمعنا لكم ثلاثة قباطنة، اثنان من فاليريا وواحد من تارا ليقدموا لكم المساعدة.

نادى الوزير على الحراس، ففتح الباب ودخل القباطنة مباشرة حتى توقفوا أمام الجميع وألقوا التحية على الملوك، ثم نظروا بعدها إلى الوزير جابر بعدما أخبرهم أن يطلعوا

المحاربين على كل ما يعرفونه عن اليابسة الموجودة بعد بحر الشمال، فنظروا إلى بعضهم بعضًا في البداية بدهشة من طلب الوزير، ثم بدأ أحدهم بالحديث بعدما نظر إلى المحاربين وعرف نفسه لهم بالقبطان «كنان».

أخبرهم كنان بأنه قد أبحر بالفعل عبر بحر الشمال قبل سنوات طويلة باتجاه الغرب، وشاهد خلال ذلك الطريق مخاطر كثيرة. وبرغم هدوء الأمواج في المناطق القريبة من سواحل إيستوريا، إلا أنه مع التوغّل داخل هذا البحر يتغير الأمر كثيرًا، حيث ترتفع الأمواج بشكل مخيف، وتزداد مع الاستمرار بالتقدم.

أخبرهم القبطان القزم «ياقوت» أيضًا بأنه لم يتوغل كثيرًا في بحر الشمال، لكنه أنقذ بعض البحارة الآخرين من إحدى السفن التي حاولت التقدم هناك قبل سنوات، بعدما عادوا أدراجهم بمجرد اقترابهم من عاصفة كبيرة كادت أن تسحبهم إلى الداخل، قبل أن يفروا منها بمعجزة بعد ذلك. لكن كانت سفينتهم قد تحطمت معظمها، فاستمروا بالإبحار بها حتى غرقت في النهاية بالقرب من سفينته، ليُنقذ بحّارتها آنذاك.

نظر الجميع إلى القبطان الأخير «ناجي»، فأخبرهم بأنه قد أبحر منذ سنوات عبر بحر الشمال لعشرة أيام متتالية، لكنه فضل العودة قبل الدخول في عاصفة كبيرة، بعدما رصد تحركات مريبة من بعيد لكيان ضخم داخلها، فقاطعه القبطان كنان قائلًا:

- لقد أبحرتُ لخمسة عشر يومًا متتالية.

نظر الجميع لهذا القبطان الذي كان يمتلك ملامح وجه

جادة، أعطت حديثه مصداقية وهيبة، فأردف قائلًا:

- لكن من خلال خبرتي الطويلة في الإبحار، أستطيع أن أخبركم بأن المسافة إلى تلك اليابسة أكبر من ذلك بكثير!

- وقد أخبرني جدي سابقًا بأنه قد شاهد تلك اليابسة بالفعل، إلا أنه لم يجرؤ على الاقتراب منها، وعاد أدراجه بعدما سمع أصواتًا مرعبة هناك، لكن عندما عاد وأخبر بذلك لم يصدقه أحد.

سأله مالك باستغراب:

- ولماذا أبحرت في هذا الاتجاه؟

- بحثًا عن الكنوز بالطبع، هل تعتقد أن كل البحارة هنا يجوبون تلك المياه من أجل صيد الأسماك فقط!

قالها القبطان كنان، فقاطعه الملك ظافر قائلًا بعدما أشار إلى الاثنين الآخرين بالمغادرة:

- يبدو أن كنان هو الأنسب لتلك المهمة.

سأل القبطان على الفور:

- أي مهمة؟

- سنرسل مهمة عاجلة لاستكشاف تلك اليابسة «ألْمَاشيَا». دورك فيها سيقتصر على اصطحاب المحاربين والجنود حتى هناك، ثم انتظارهم حتى عودتهم لتعود بهم بسلام.

قالها الملك رشيد بجدية ظهرت على وجهه، ثم أردف:

- تلك هي مهمتك تجاه إيستوريا، وواجبك نحو وطنك.

ابتسم كنان بشدة حتى ظهرت أسنانه، ثم قال:

- مع تقديري لجلالتكم واحترامي لوطني، لكن تلك الرحلة بعيدة للغاية وخطيرة جدًا، لذلك سيكون هناك مقابل بالتأكيد!

سأله الملك ظافر بصوت مرتفع:

- ماذا تريد؟

- خمسون ماسة زرقاء.

قالها كنان بثبات، فانتفض الملوك في الحال ليصيحوا بغضب في وجه ذلك القبطان الجشع، لكنهم تمالكوا أنفسهم بعدما تأكدوا من عدم وجود بديل غيره يستطيع إتمام الأمر، فقال الملك غياث تلك المرة بعدما ذهب نحوه وجذبه من ردائه:

- نستخرج ذلك الماس بصعوبة هنا!

- ثلاثون ماسة زرقاء فقط.

فرد كنان:

- وشيء آخر!

- أرغب عند عودتي في تكوين أسطول بحري من عشر سفن كبيرة، ليكون تحت قيادتي في بحر الشمال.

- وأعتقد أن ذلك سيُفيد الملك ظافر كثيرًا.

هدأ الجميع في تلك اللحظة، خصوصًا الملك ظافر الذي راودته تلك الفكرة كثيرًا بالسابق وأراد تنفيذها بشدة، فقال بهدوء وهو يشير له بالذهاب:

- اتفقنا، لتبحر بهم بعد ثلاثة أيام من مرفأ الفيروز.

- سيكون المحارب مالك هو قائد تلك المهمة وعليكم طاعته، حتى أنت يا كنان.

غادر القبطان في تلك الأثناء، وبدأ مالك بالحديث ليخبر الملوك بعدم رغبته في اصطحاب ليلان وليلى معه نظرًا لخطورة الرحلة، فأخبره الملك ظافر بأنه قد قرر مسبقًا بقاء ليلى في القصر لإدارته وقيادة فرق المغاوير أيضًا في غياب فارس.

نظرت ليلى إلى فارس في تلك اللحظة بحزن، بعدما أدركت أن القدر سيفرقهما مرة ثانية، لكن هذه المرة لمسافات أبعد كثيرًا، ولوقت غير معلوم. تساقطت دموعها بهدوء، لكنها أخفتها عن الجميع وردت بصعوبة:

- سمعًا وطاعة سيدي.

قال الملك غياث بعدما نظر إلى مالك:

- كنت قد رشحت ليلى للمهمة، لكن إذا لم تود اصطحابها فهذا الأمر يرجع إلى تقديرك، المهم أن تعود بالجميع سالمين.

كانت ليلى في تلك اللحظات صامتة من الخارج، تستشيط غضبًا من الداخل مما قاله زوجها، لكن بعد حديث الملك لم تتملك نفسها وقالت بصوتٍ عالٍ صاحبه بعض الدموع المتساقطة:

- أريد أن أذهب إلى تلك المهمة يا سيدي!

- هذا الأمر كما قلت يرجع إلى تقدير مالك.

صمتت ليلى بعدما سمعت كلام الملك، خصوصًا عندما بدأ الملك رشيد بإخبار المحاربين بضرورة اصطحابهم لمجموعة

من جنود مملكة تارا وفاليريا وبيناروس على السفينة، وأن يحذروا جيدًا خلال الطريق خصوصًا من ذلك القبطان، فوقف المحاربون أمامهم ليقدموا التحية، ثم غادروا الغرفة سريعًا ومنه إلى خارج القصر.

في الخارج أوقفَت ليلى مالك وبدأت بالصياح في وجهه بغضب شديد، لتخبره بضرورة ذهابها معه خصوصًا بعد حديثهما الأخير، لكنه كان مقتنعًا برأيه غير مكترِث بما تقول خوفًا على حياتها، وهو ما لم تفهمه قطُّ. كان بقاءها بمفردها أصعب عليها من مواجهتها الأخطار إلى جانبه، حتى لو أدى ذلك لفقدانها لحياتها، وبعد محاولات لم تُجدِ نفعًا لإقناعِه، صمتت قليلًا ثم قالت له بصوت هادئ:

- حسنًا، ليكن ما أردت.

قال بسرعة بعدما همّت بالذهاب:

- انتظري يا لين!

- أخبرتك سابقًا بأن تناديني بليلان فقط.

- لكنني أحب مناداتك بهذا الاسم دومًا.

نظرت إليه للحظات، ثم قالت بصوت مختنق:

- أنت لا تحب غير نفسك!

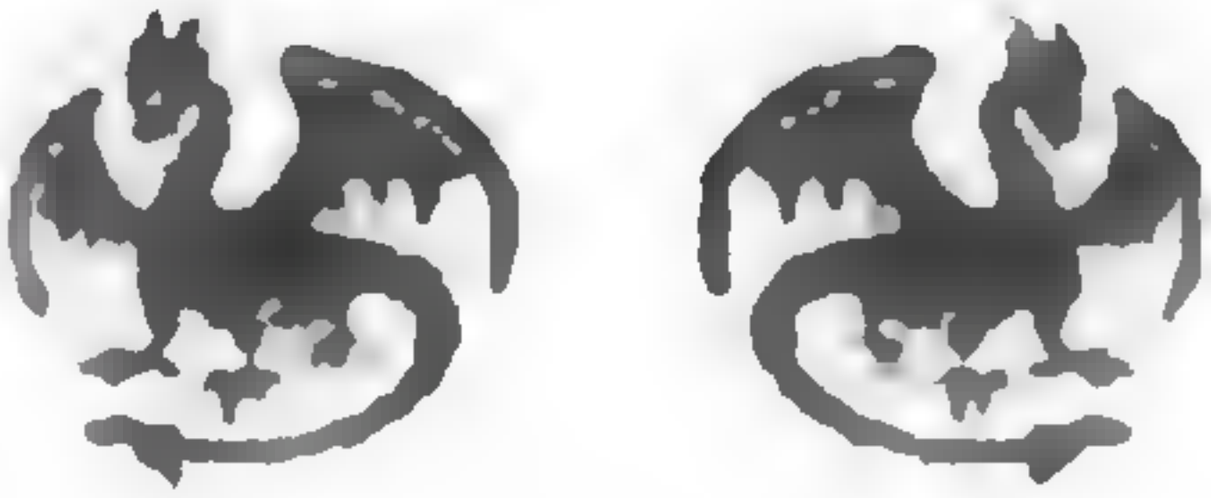

كانت تلك آخر كلمات لين أمام القصر، قبل أن تمتطي حصانها في عجالة، وتذهب مسرعة نحو منزلها، تاركة خلفها بقية المجموعة في صمت تام وزوجها في حزن شديد. لكن

بعد دقائق ذهب فارس إلى جواره وربت على كتفه بحرارة، ثم قال:

- لا تقلق عليها، ستهدأ مع مرور الوقت.

قالت له تيـا:

- سأذهب خلفها، لا تشغل بالك بالأمر.

قاطعهُم فهد بصوتٍ عالٍ:

- لنبدأ بالاستعداد لرحلتنا، فليس أمامنا سوى ثلاثة أيام.

- كما أنني أتضوّر جوعًا الآن، لنتناول شيئًا أيضًا.

ابتسم صديق له في تلك اللحظات، امتطوا خيولهم بعدها، وانطلقوا نحو قلب ميريت ليتناولوا الطعام هناك، حتى يُكملوا طريقهم منها نحو الغرب باتجاه بلدة الفيروز، ليبدؤوا بتفقد سفينة القبطان كنان، ويستقبلوا جنود الممالك الثلاث عليها.

***

3

نحو المجهول

اليوم الأول للانطلاق.

على سطح العنقاء، ذهب القبطان كينان برشاقة نحو المحاربين الثلاثة على الرغم من ضخامة جسده الكبير، كان يرتدي معطفًا أزرق اللون مع قبعة سوداء ميزته عن الآخرين، مدّ يده لمصافحة مالك أولًا، ثم صافح كلًا من فارس وفهد قائلًا:

- هل أنتم مستعدون؟

- نعم، كل شيء جاهز وجنودي على أتم الاستعداد، يمكنك الانطلاق.

قالها مالك فنظر كينان إلى بحارته ليتأكد من انتهائهم من تجهيز السفينة، وفحص مدافع الأسهم العملاقة على جانبيها، بالإضافة إلى تخزين المؤن اللازمة للرحلة الطويلة داخل العنبر، ثم قال لهم بصوت عالٍ:

- عند المجاديف.

تجمّع البحارة على جانبي السفينة الكبيرة، أمسكوا بتلك المقابض الضخمة وانتظروا الأمر التالي للانطلاق. لكن في تلك الأثناء وصل الملوك الثلاثة مع ليلى وبعض المحاربين الآخرين عند المرفأ، وتوقفوا وسط زحام العامة من أهل بلدة الفيروز الذين تجمعوا هناك لتوديع المحاربين والجنود، بعدما تيقنوا من ذهابهم لمهمة خطيرة استدعت قدوم الملوك.

رفع المحاربون الثلاثة مع القبطان كينان أيديهم للجميع، ولوّحوا بها كثيرًا بحماس شديد، اختلطت بمشاعر أخرى من ألم الفراق ورهبة الذهاب عبر ذلك الطريق المجهول، حتى وقعت عينَا فارس على شقيقته ليلى، فابتسم لها بشدة وبدأ في الإشارة بيديه ليخبرها أن تعتني بنفسها في غيابه، حتى سمعها بصعوبة وهي تصرخ قائلة:

- توخَّ الحذر وعد سالمًا.

تنقَّلت عينَا مالك سريعًا بين الحشود باحثة عن تلك الزوجة العنيدة، التي رفض ذهابها معه على الرغم من احتياجه الشديد إلى وجودها إلى جانبه، لكن بلا فائدة. لم تكن هناك ولم تأتِ لتوديعه، حاول مرارًا وتكرارًا في تلك اللحظات تمالك نفسه، لكن كان الحزن قد بدأ بالتسلل إلى قلبه شيئًا فشيئًا حتى تمكَّن منه، وتَساقطت دموعه بعدها تباعًا بهدوء في أثناء ما كان يحدث نفسه.

- حتى وإن لم تأتِ! فذلك أفضل بكثير من فقدانك إلى الأبد.

- كنت أظن أن ذلك الملل الذي أصابنا قد بدأ باستنزاف مشاعرنا البريئة!

- لكن تلك اللحظة العصيبة، وذلك الفراق المرير، جعلاني متيقنًا من صدق تلك المشاعر، ومن عظم حبك الكامن بداخلي.

- أعلم أنني ربما لن أعود من ذلك الطريق، لكنك ستكونين معي على الدوام.

- إلى اللقاء يا لين، إلى اللقاء يا ذات العيون الزرقاء!

أمر القبطان كينان بحارته في تلك الأثناء بالانطلاق، فبدأوا بالتجديف بالغنقاء سريعًا خلال بحر الشمال، وذهب مالك عند المقدمة حتى توقف هناك بمفرده محاولًا استعادة رباطة جأشه، في أثناء ما كان ينظر إلى اختراق السفينة من الخارج للمياه الصافية بقوة، وإلى ذلك البحر العظيم الذي امتد على مرمى بصره.

بدأ بالتنفس بعمق واستنشاق ثود البحر الذي أعاد له السكينة والهدوء مرة أخرى، وضع يده عند صدره أسفل درعه الحديدي حتى تحسس ماسة أريانا هناك، والتي لم تفارقه منذ أن طرد بها سردار من إيستوريا عند البرج الأحمر، لكنه أخرج يديه مرة أخرى سريعًا تاركًا الماسة بعدما أتاه فارس قائلًا:

- لم تأتِ، أليس كذلك؟

أجابه بعدما هز رأسه:

- لا، لكنني أتفهّم الأمر.

اكتفى بتلك الكلمات وتوجّه بعدها برفقة صديقه عند مؤخرة السفينة سريعًا، صعد سلّمًا صغيرًا للأعلى حتى توقف عند الدفة إلى جانب القبطان كينان وفارس وفهد، نظر لجنود الممالك الثلاث وبحارة البشر المتجمعين أمامه في المنتصف، بعدما بدأت سواحل إيستوريا بالابتعاد عنهم شيئًا فشيئًا، قائلًا:

- أيها الأبطال!

- يا جنود وبحارة إيستوريا العظيمة.

- لقد تمّ منحنا شرف الذهاب في تلك الرحلة المباركة، لننهي ما تركناه ناقصًا خلال حربنا مع أُتباع سردارا!

- مهمتنا الأولى حاليًا هي إيجاد الماسية والوصول بسلام حتى سواحلها، وبعد ذلك لكل حادث حديث.

- ننطلق في واحدة من تلك المهام التي يصعب العودة منها!

- لذلك اثبتوا من أجل إيستوريا.

- وبالتأكيد من أجل أحبائنا الذين ينتظرون عودتنا!

بمجرد أن انتهى مالك من حديثه، تفرّق الجميع، وانشغل البحارة في فرد أشرعة العنقاء البيضاء الكبيرة، حتى انتهوا من ذلك بعد دقائق وبدأت رياح ذلك اليوم بدفعها إلى الأمام عبر مياه البحر، بالتزامن مع غناء البحارة لأحد مقطوعاتهم التي لم يسمعها مالك ورفاقه من قبل:

يا بحارة العنقاء لنغنِ بصوتٍ عالِ
نحن من إيستوريا الوطن الغالي
فلتسمع الرياح لحننا الحماسي
وليبتلع البحر الهموم والمآسي
بأيدينا نصنع المجد والأمان
ونحو المجهول نبحر الآن
نسير نحو الفجر والمجد السعيد
ونترك الأثر في الموج البعيد
في قلب العواصف تظهر قوتنا

وتلك هي شجاعة وعزة أُمتنا
يا رفاقي نحو المجد نسير
بقلوب مؤمنة بالقدر والمصير
سنصل إلى الشاطئ الجديد بالأمل
ونبني عالمًا بالمجد والعمل
نكتب التاريخ بأمواج البحار
ونعود لأرضنا بكنوز وأسرار
يا بحر يا ملك الأسرار العميقة
سنغزو أمواجك بقوة عتية
بأيدينا نصنع المجد والأمان
ونحو المجهول نبحر الآن

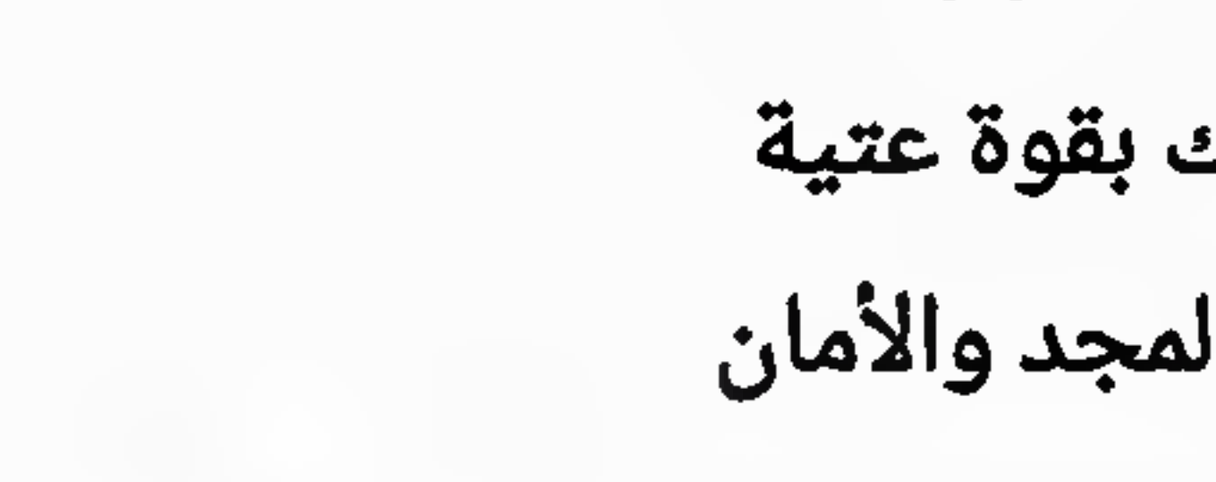

يا بحارة العنقاء لنغنِ بصوت عالٍ
نحن من إيستوريا الوطن الغالي

امتلكت العنقاء طابقين تحت سطحها الخشبي، كان العنبر هو طابقها السفلي الذي خصص لحفظ الطعام والمياه وبعض الأدوات الخاصة بالسفينة، واحتوى الطابق الثاني على مخزن كبير لحفظ السلاح، بالإضافة إلى ثلاث غرف صغيرة كان

من بينها غرفة القبطان كينان الذي خصص إحدى الغرفتين المتبقيتين لمالك والأخرى لفارس وفهد.

بمجرد أن انتهى البحارة من مقطوعتهم التي نشرت البهجة بين الجميع، تحرك مالك نحو السلم الواصل بين السطح والطابق الثاني، نزل فوقه بخفة، وتقدم لخطوات قليلة حتى أصبح أمام غرفته، فتح بابها برفق، دخل بهدوء، ثم أغلقه سريعًا وبدأ بتفقد ذلك المكان الضيق بناظريه.

لم يكن بالغرفة غير سرير صغير عليه وسادة قديمة وغطاء بالي، بالإضافة إلى مصباح معلق عند الباب أشعل البحارة النار بداخله مسبقًا حتى أضاء الغرفة تمامًا، إضافة إلى بعض الصناديق الكبيرة في الخلف والتي لم يشغل مالك باله بها. احتوت الغرفة أيضًا على نافذة دائرية صغيرة جدًا، تسرب من خلالها بعض ضوء الشمس لكنه لم يكن كافيًا ليضيء المكان بدون المصباح.

خلع معطفه وحذاءه، وضعهما جانبًا، تمدد على فراشه، ثم شد ذلك الغطاء فوقه لينال قسطًا من الراحة، بعدما استمر في التجهيز لتلك الرحلة طوال الأيام السابقة، من دون أن يحظى بأي قسط من الراحة، لكن كان النوم بداخل سفينة تتحرك على المياه مختلفًا قليلًا عن اليابسة، وبعد معركة سريعة انتصر فيها الإرهاق المتمكّن من جسده، بدأ النوم بالتسلل إليه حتى أغمد عينيه لدقائق، ثم فتحهما مرة أخرى بعدما سمع صوتًا غريبًا خلف تلك الصناديق بنهاية الغرفة.

سحب خنجره من غمده، نزل من فوق فراشه برفق، ثم تسلل بهدوء حتى توقف عندها، وتأكد من وجود أحدهم

خلفها. انتظر للحظات حتى سكنت حركته، ثم انقض بقوة على ذلك الشخص الملثم واضعًا الخنجر على عنقه، بعدما أسقطه أرضًا متفاجئًا من وجوده، حتى صرخ في وجهه قائلًا:

- من أنت؟

لم ينبس الملثم ببنت شفة، فنزع مالك غطاء وجهه بقوة حتى ظهرت أمامه تلك الملامح الجميلة التي يعرفها جيدًا، والتي استمر بالتحديق إليها للحظات طويلة باستغراب، حتى أبعد خنجره قائلًا:

- لين!

- ماذا تفعلين هنا؟

قالها بذهول، فعانقته بشدة قائلة:

- هل ظننت بأنني سأتركك تذهب وحيدًا؟

ابتسم مالك وسط دهشته وفضل الصمت، فقد أراد قلبه منذ البداية وجودها بشدة، على الرغم من رفض عقله ذهابها معه، لكنه أدرك في النهاية أن القلب هو المنتصر الوحيد دائمًا في مثل تلك المعارك، فاكتفى بوضع قبلة على جبينها قائلًا:

- حسنًا لننهي تلك المهمة معًا.

قالتها ثم خلدَا معًا إلى النوم سريعًا حتى استيقظا بعد بضع ساعات رملية قليلة، وذهب مالك ليخبر أصدقائه بانضمامها إلى تلك المهمة وسط فرحتهم بوجودها.

***

4

مرمرة

صباح اليوم الخامس عشر من الانطلاق.

على الجانب الآخر من بحر الشمال، عند أحد سواحل ألمايسيا الجنوبية، تدافعت الأمواج المتلاحقة نحو ذلك الشاطئ الهادئ لتضرب برفق رماله البيضاء الناعمة، قبل أن تنسحب تباعًا إلى الخلف استعدادًا للعودة من جديد، وتمايلت أشجار النخيل المنتشرة على طول الشاطئ حتى بدت كأنها كائنات طويلة القامة تتراقص بهدوء.

تزامن ذلك مع أصوات حفيف أوراق أشجار البرتقال المتناثرة في الخلف، والتي انتشرت رائحتها الذكية في كل مكان حتى وصلت عند شاب وفتاة من البشر، كانا يقفان في صمت شديد داخل مياه الشاطئ التي غطت ما يقارب القدمين من جسديهما، فقطعت الفتاة صاحبة العشرين عامًا ذلك الهدوء قائلة:

- يزيد، هل تشم تلك الرائحة الذكية؟

أجابها شقيقها مبتسمًا وهو ينظر إلى ملامح وجهها الجميل الذي زينته تلك العينان الواسعتان وذلك الأنف الصغير، بعدما وضع يده حول شعرها الأسود وجذب رأسها برفق نحو كتفه:

- تحبين رائحة البرتقال كثيرًا يا تيا!

- لكن هذا يعني أيضًا بأن شتاء هذا العام قد بدأ في ألمايسيا!

قالها ثم أشار لها بيده لتهدأ عندما لمح بعض الأسماك التي اقتربت منهما في تلك اللحظات، وبدأ بإحكام قبضته على رمحه موجّهًا حافته المدببة ناحية المياه، متتبعًا حركتها في هدوء شديد لم يستمر طويلًا بعدما دفع رمحه بقوة نحو إحداها، ثم أخرجه سريعًا مبتسمًا لشقيقته التي تصغره بخمسة أعوام، فتناولت تلك السمكة البرتقالية اللون من سن رمحه، ووضعتها في حقيبة كبيرة حملتها على ظهرها فوق ردائها الأحمر، امتلأت بالكثير من الأسماك التي أمسكا بها في ذلك اليوم معًا، ثم قالت:

- أحسنت! أعتقد أننا قد أمسكنا بما يكفينا لأيام.

خرج الاثنان بخفة نحو الشاطئ، عبرا بين أشجار النخيل تباعًا، تقدما من خلفها فوق الرمال البيضاء حتى وصلا عند أشجار البرتقال، ثم استلقيا على ظهريهما ليرتاحا لبعض الوقت، وأعينهما تراقب نهاية السماء التي امتزجت زرقاتها بزرقاء مياه البحر البعيدة على مرمى البصر.

- لم أعُد أرى الكثير من الصيادين على ذلك الشاطئ!

قالتها تيا باستغراب، فأجابها يزيد قائلًا:

- صحيح، فمعظم أهل إقليم مرمرة يأتون بالطعام الآن من إقليم ألميريا، والقليل منهم يصطادون الأسماك من شواطئ أخرى قريبة.

ثم ابتسم بشدة حتى ظهرت أسنانه البيضاء قائلًا:

- لكن هذا من حسن حظنا! فكل أسماك ذلك الشاطئ لنا الآن.

أغمض يزيد عينيه قليلًا وساد الصمت لدقائق لم يسمعا فيها غير صوت الرياح الباردة التي أنعشت رئتيهما في ذلك الصباح، وصوت برتقالة كبيرة سقطت بجوار تيا، فالتقطتها بهدوء وبدأت في تناولها، ثم قالت بعدما انتهت ونظرت إلى ملامح وجهه الجادة الظاهرة على الدوام:

- لقد أنجزنا عملًا رائعًا بزراعة القمح والخضروات حول منزلنا.

- أصبحنا الآن أول من يمتلك مزرعة في مرمرة، وربما يدفع ذلك أهلها إلى تكرار تلك التجربة.

فتح يزيد عينيه ثم اعتدل في جلسته قائلًا:

- ماذا عسانا أن نفعل غير ذلك!

- لقد كان هذا عمل والدينا في إقليم فيونا دومًا، وتكرار الأمر هنا يجعل ذكراهما حية، ويشعرنا بالسكينة والسلام.

سألت تيا بفضول:

- ما رأيك في أن نبيع جزءًا من ذلك القمح بأسواق إقليم ألميريا بعد حصاده؟

أجابها بعدما هز رأسه بالإيجاب:

- يبدو هذا جيدًا، فقد زرعنا الكثير.

- لكن علينا أن نؤمن وصوله إلى هناك أولًا، فجميع الطرق بين إقليم مرمرة وألميريا وفيونا خطرة للغاية في الوقت الحالي!

أجابته بسرعة:

- كل ذلك بسبب تلك الحرب التي لا تنتهي، كل ذلك بسبب أطماع أمير إقليم فيونا!

- حتى بعد سقوط الكثير من البشر، يستمر أمراء تلك الأقاليم في حربهم البغيضة التي لا تبقي ولا تذر.

كان يزيد دائمًا يحمل نظرة غامضة في عينيه، نظرة تحمل كل حزن العالم، كأنها مرآة تعكس الكثير من الآلام التي يخفيها داخل أعماق قلبه، لكنه رد سريعًا بعدما وقف مستعدًا للمغادرة:

- ولماذا تركنا فيونا إذن وقدمنا حتى هنا!

- على الأقل نستطيع هنا في مرمرة أن نبيع ما لدينا لألميريا.

- هل نسيت ما فعله أمير فيونا الظالم بوالدينا لنفس السبب!

كانت تيا تحاول جاهدة أن تظل قوية دومًا أمام أخيها، لكن في داخلها كانت تتصارع مع ذكريات ذلك اليوم الأسود. تذكرت رائحة الدخان التي علقت في أنفها، وصراخ أخيها الذي لا يزال يرِن في أذنيها كل يوم، كانت تشعر وكأنها تغرق في دوامة من الأسى والحنين الذي لا ينتهي، لكنها تحركت خلفه في النهاية بعدما حملت حقيبتها على ظهرها مرة أخرى، ثم قالت:

- أفتقدهما كثيرًا.

استمر الاثنان في طريقهما الذي زينت جانبيه ورود مختلفة الألوان، نمت تحت أشجار خضراء مرتفعة، نشرت الظلال

على طول المسار المتجه لتلك المزرعة القريبة التي تبعد عن الشاطئ مسيرة عشر دقائق، وبالرغم من قصر تلك المسافة إلا أنها كانت كافية ليتذكرا ذلك اليوم المشؤوم الذي قلب حياتهما رأسًا على عقب قبل عام واحد.

***

في ذلك اليوم كان يزيد ممتطيًا حصانه مستلًا سيفه برفقة تيا على رأس مجموعة من جنود إقليم فيونا، في أثناء مطاردتهم لبعض اللصوص في تلك المنطقة الحدودية بين فيونا وألميريا، تلك البقعة المشتعلة بنار الحرب والدمار جرّاء المعارك المستمرة بين جنود الإقليمين منذ أعوام طويلة.

وعلى مدار تلك الأعوام انعدم الأمان في تلك المناطق وكثر اللصوص بشكل مخيف وانتشرت حوادث السرقة، لذلك خصص أمير فيونا بعضًا من جنوده لحفظ الأمن هناك، تمهيدًا لانطلاق المزيد من هجمات جيشه نحو إقليم ألميريا الصامد بغرض إضعاف دفعاته، وكان يزيد وتيا بين قادة تلك المجموعات المختصة بتأمين تلك البقعة.

لكن بعدما وصل مع جنوده عند مخبأ هؤلاء اللصوص داخل إحدى الغابات الموجودة بالمنطقة الحدودية، وتمكن من الإجهاض عليهم بالكامل واستعادة كل ما نهبوه من إحدى المزارع القريبة، لمح من بين أشجار تلك الغابة ذات الأوراق الصفراء دخانًا كثيفًا وصلت قمته حتى السماء، فانطلق مسرعًا بصحبة تيا والجنود نحو مصدره لتفقد الأمر.

- أعتقد أن هذا الطريق يتجه إلى مزرعتنا من ناحية الشرق!

قالتها تيا بقلق، فأجابها يزيد بعدما خرجا من الغابة وشاهدا

حريقًا هائلًا من بعيد يلتهم مزرعة والديهما بالكامل، وفي منتصفها كان منزلهما الخشبي الذي ارتفعت حوله ألسنة النيران:

- أبي، أمي!

قالها يزيد، ثم انطلق بسرعة نحو تلك النيران المستعرة متجاهلًا آلاف الجنود من جيش فيونا الضخم، التي ظهرت بوضوح على مرمى بصره في أثناء تقدمها نحو إقليم ألميريا، مستغربًا بينه وبين نفسه عن سبب ما فعلوه في تلك المزرعة الكبيرة التي يقتات أهل فيونا على القمح الذي تنتجه مع المزارع الأخرى.

لكن كان والداه أكثر ما يشغل تفكيره في تلك اللحظات المرة، واستمر ذلك حتى وصل إلى هناك أخيرًا. ترجل من فوق حصانه بسرعة، تقدم نحو ذلك المنزل المحترق بصحبة تيا والجنود، ثم بدأ في تفقد المكان مناديًا معها بصوت عالٍ دون توقف:

- أمي! أبي!

لكن لم يكن هناك جواب، فركض إلى الفناء الخلفي للمنزل بحثًا عن أي أثر لهما، وبدأت عيناه في تفقده بمجرد وصوله حتى تجمدتا في مكانهما وتجمد كامل جسده تباعًا.

- هل وجدتهما؟

قالتها تيا بصوت مرتجف عند قدومها، لكن كان يزيد ثابتًا في مكانه لا يتحرك، فنظرت إلى حيث ينظر حتى شاهدت والديها هناك ملقيين أرضًا ومغطّيين بالكثير من الدماء.

لم تنبس ببنت شفة في تلك اللحظات، انهَمرت دموعها كالفَيضان، وتباعدت أنفاسها بسرعة بعدها حتى فقدت الوعي، وسقطت أرضًا بجوار الجنود الذين بدؤوا بمحاولة إيقاظها.

في تلك الأثناء ركض يزيد نحو والديه ليتفقدهما، لكن كانت والدته قد فارقت الحياة من أثر ضربة سيف قوية أصابت الصدر، نظر إلى جسد والده فوجد نفس الضربة قد أصابته، لكن كان قلبه ما زال ينبض ببطء شديد، فصرخ في أحد الجنود قائلًا:

- أعطني مياهًا بسرعة!

ركض الجندي نحوه بالمياه فتناولها سريعًا وقربها من والده، ثم بدأ في صب المياه داخل فمه، بعدما ضغط على جرحه بقوة ليوقف نزيف الدم المستمر، وخلال لحظات فتح والده عينيه ببطء بعدما قدمت تيا إلى جواره، وسألته بصوت مرتفع امتزج مع صوت بكائها قائلة:

- من فعل بكم هذا؟

كان الكلام صعبًا على والده خلال لحظات حياته الأخيرة مع كل تلك الجراح المميتة، لكنه استجمع قوته في النهاية ثم قال:

- أمير فيونا!

- أمير فيونا! لماذا؟

قالها يزيد فأجابه:

- كنت قد خصصت جزءًا من قمح مزرعتنا لبيعه سرًا

بأسواق ألميريا!

رد يزيد وسط دهشته من هجوم أمير فيونا على أهل إقليمه وأراضيه:

- وإن يكن!

- هل يكون جزاء هذا هو القتل والحرق والخراب!

لم يجب والده تلك المرة، اكتفى ببعض الكلمات الأخيرة التي أغمض عينيه بعدها إلى الأبد:

- اعتنِ بنفسك وبشقيقتك! غادرا ذلك الإقليم بسرعة!

ارتفع صوت بكاء الاثنان في تلك اللحظات وسط جنود فيونا، الذين استمروا بالتحديق إلى بعضهم البعض في حيرة وخوف بنظرات تتساءل عما يجب فعله بعد ذلك، لكن لم يمهلهم يزيد كثيرًا، ووقف أمامهم قائلًا:

- يمكنكم المغادرة إلى قلعة فيونا بمفردكم!

- سأغادر هذا الإقليم الظالم ولن أتبع الأمير نذير منذ اليوم.

- والآن نعتذر منكم، فيجب أن ندفن والدينا في مثواهما الأخير.

لم ينطق الجنود بكلمة، انسحبوا نحو خيولهم واحدًا تلو الآخر وغادروا المكان. قالت تيا بعدما أتى أخيها نحوها وعانقها بشدة:

- ماذا سنفعل الآن؟

رد على الفور:

- يجب أن نغادر في الحال قبل عودة الأمير نذير بصحبة

جيشه.

قاطعته وسط دموعها المستمرة:

- هل سنترك والدينا هنا! هل سنترك منزلنا؟

تمالك نفسه ومسح دموعه، ثم قال:

- نعم سنفعل، كانت تلك وصية أبي الأخيرة!

- إلى أين؟

قالتها في حيرة، فأجابها بعد تفكير:

- لن نذهب إلى ألميريا، لنتجه نحو مرمرة.

- إنه الإقليم الوحيد الذي يحظى ببعض الهدوء والسلام حتى الآن.

- وأميره آصِف يحاول عدم إقحام نفسه في تلك الصراعات على الدوام!

بدأ الاثنان في حفر قبرين لوالديهما، ثم قاما بدفنهما وتوديعهما مرة أخيرة، جمعا بعد ذلك بعض الأغراض التي لم يطالها الحريق ووضعاها على حصانيهما، ثم قال يزيد وهو ينظر إلى ركام المنزل ومحاصيل تلك المزرعة الكبيرة، التي اكتست باللون الأسود بعدما كانت مروجًا خضراء:

- ربما سنغادر والدينا ومنزلنا وإقليمنا حاليًا بالفعل.

- لكننا لن نغادر ثأرنا أبدًا!

- ستظل نار الانتقام مشتعلة بداخلي حتى يحين الوقت المناسب.

غادر الاثنان بعد ذلك صوب مرمرة سرًا حتى عبرا الحدود،

وتقدما خلال الإقليم حتى نهايته من جهة بحر الشمال، ثم اختارا مكانًا مناسبًا هناك بدآ في بناء منزل صغير عنده في وقت لاحق.

***

في ذلك الصباح الهادئ، قطع مشهد تلك المزرعة الجميلة التي ظهرت أمامهما من بعيد كل تلك الذكريات الأليمة، التي جالت في بالهما على طول ذلك الطريق الذي يصلهما بالشاطئ. قالت تيا بابتسامة علّت قسمات وجهها بوضوح:

- سأُعد بعضًا من تلك الأسماك الآن.

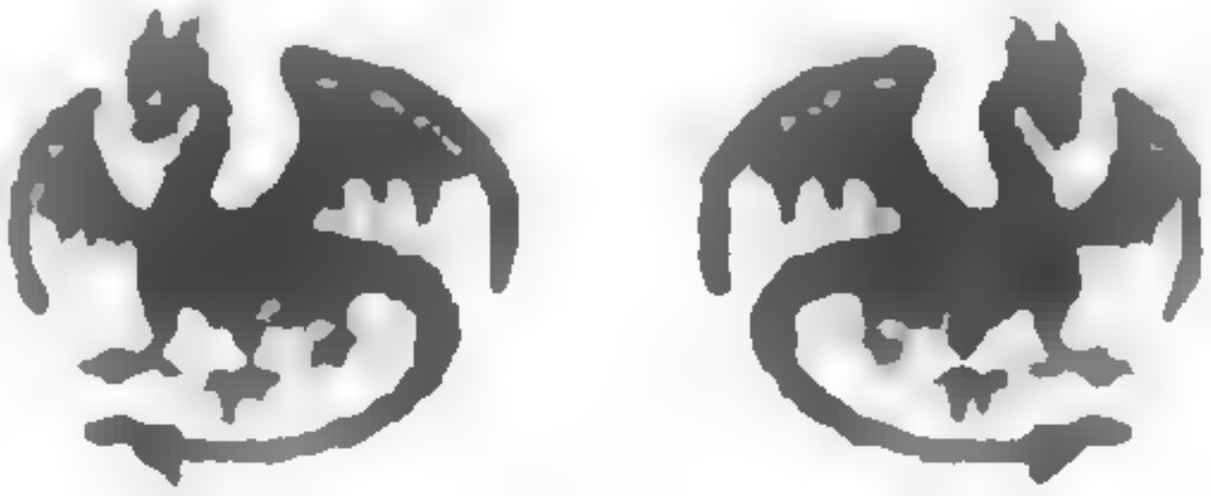

أجابها بعدما وضع يديه على معدته:

- أتضوّر جوعًا بالفعل.

- سأشعل النار أمام المنزل حتى تنتهي.

- ولنعد بعد عشرة أيام لنصطاد المزيد.

***

5

في عرض البحر

ظُهر اليوم الخامس عشر من الانطلاق.

على الرغم من انتصاف النهار، فإن الغيوم كانت قد ملأت السماء حتى حجبت كثيرًا من ضوء الشمس فوق بحر الشمال. تزامن ذلك مع زيادة حركة الرياح قليلًا، وارتفاع الأمواج بشكل ملحوظ أمام سفينة العنقاء، التي استمرت في اختراق ذلك البحر الكبير باتجاه الغرب.

في تلك الأثناء عند مقدمة السفينة، توقف أحد الجنود أمام مالك ولين حاملًا الطعام، فتناولاها منه سريعًا، ثم ناول فارس وفهد طعامهما، وذهب ليعطي بقية الجنود والبحارة حصتهم اليومية. فبدأ الأربعة في تناوله في أثناء ما كانوا يحدقون بصمت في بحر الشمال، أملًا في ظهور يابسة في أي وقت. لكن قطع مالك هذا الصمت في النهاية قائلًا:

- أريد أن أخبركم بأمر ما كنت قد أخفيته عن الجميع منذ سنوات! وأعتقد أن الوقت قد حان لأطلعكم عليه.

نظر الثلاثة إليه باهتمام، لكنهم تراجعوا للخلف فجأة بعدما ضربتهم إحدى موجات البحر، وبللت وجوههم وبعضًا من ملابسهم، وسط ضحكاتهم العالية التي وصل صداها حتى مؤخرة السفينة، وجعلت القبطان كنان ينتبه لوجودهم في الأمام.

أمسكت لين بخصلات شعرها الأحمر الطويل وضغطت عليه بقوة حتى أزالت منه المياه تمامًا، مسحت وجهها وأذنيها

المدببتين برفق، ثم أغلقت معطفها الأحمر بقوة حول درعها الصغير بعدما تسلل البرد إلى جسدها بالكامل، وسألت مالك بعدما عادوا لإكمال طعامهم مرة أخرى عند مقدمة السفينة:

- ما الأمر؟

وضع مالك يده بهدوء تحت درعه الحديدي وأخرج بخفة تلك الماسة السحرية، التي لمعت بوضوح بمجرد أن أزال قطعة القماش من حولها، وازداد بريقها الأزرق السماوي بشدة تحت ضوء النهار، حتى خطفت قلب الأربعة من شدة جمالها. فبادره فارس بالكلام قائلًا بدهشة:

- ماسة أريانا!

- لكن، كيف؟

سأله فهد باستغراب بعدما أنزل مالك يده بالماسة إلى الأسفل قليلًا، لكي يتمكن المحارب القزم، الذي لا يتجاوز طول قامته الثلاثة أقدام، من رؤيتها:

- ألم تنفجر تلك الماسة عند البرج الأحمر بفيرمورث من قبل؟

ابتسم لهما ثم نظر إلى لين، لكنها اكتفت بالصمت مع ابتسامة صغيرة ارتسمت على وجهها، ففهم منها بأنه كانت تعرف بوجود الماسة بحوزته طوال تلك السنوات الماضية، لكنها فضلت عدم سؤاله عن الأمر.

أخبرهم مالك بأنه في ذلك اليوم بعد هروب روح سردار نحو بحر الشمال، أدرك أن دور الماسة لم ينته عند ذلك الحد. لذلك فضل إخفائها بعيدًا عن الجميع، خصوصًا عن ملوك

إيستوريا، بعدما أيقن أنهم لن يسمحوا له باصطحابها في طريقه نحو سردار، إضافة إلى إدراكه بأنه حامل الماسة الوحيد، ولن يستطيع غيره استخدام قدراتها في كل الأحوال، لذلك كان له الحق في تقرير مصيرها.

قال فارس في أثناء ما كان مالك يعيد الماسة تحت درعه مرة أخرى:

- حسنًا ما فعلت، بالتأكيد سيكون لها فائدة ما هناك.

ثم ضحك قائلًا بعدما ابتعد إلى الخلف قليلًا، وأغلق معطفه الأسود حول جسده الطويل:

- لكن أبقها بعيدًا عني!

تذكر مالك على الفور ذلك اليوم الذي حاول فيه استكشاف قدرات الماسة لأول مرة، داخل ممر شيراز قرب حدود فيرمورث، معقل سردار، وكيف قذفت قوة الماسة فارس نحو الصخور حتى كادت أن تقتله، فرد قائلًا:

- لقد تخطينا الكثير من الصعاب معًا، وسوف نتخطى تلك المهمة معًا أيضًا.

ثم نظر إلى فهد سائلًا:

- أليس كذلك يا صديقي؟

أجابه في أثناء ما كان ينهي طعامه في تلك اللحظات:

- ما دام أن هناك طعامًا، نستطيع أن نغزو العالم إذا أردت.

ضحك مالك قائلًا:

- حسنًا، لكن ليبق أمر الماسة سرًا بيننا حتى نهاية المهمة.

رد فهد بثقة:

- بالتأكيد.

لم يعرف الأربعة أن القبطان كنان كان واقفًا عند دفة السفينة يراقبهم من بعيد، محاولًا رؤية مصدر ذلك البريق بين يدي مالك، حتى شاهده بوضوح بعد لحظات وتأكد من الأمر. انعكس بريق الماسة في عينيه، وتدفقت حرارة الرغبة وحب الثروة في عروقه بمجرد رؤيتها. وقف صامتًا في تلك اللحظة يراقب تحركات مالك بعيون مشتعلة بالطمع، بعدما شعر كأن الماسة قد نادته باسمه، وهمست له بوعد مغرٍ بالثراء والسلطة، أيقن بأنه لن يحتاج إلى بذل المزيد من الجهد في البحث عن الكنوز، فاستمر في متابعتها حتى أخفاها مالك، هامسًا لنفسه:

- تلك الماسة هي الجائزة الكبرى! يجب أن أمتلكها في أسرع وقت.

بدأت الأفكار والخطط بالتدفق إلى عقله شيئًا فشيئًا، وعزم على السيطرة على سفينته بشكل كامل، والتخلص من مالك وأصدقائه وجنوده من الجن والبشر والأقزام إذا لزم الأمر. فكر مليًا لبعض الوقت، ثم نادى على أحد بحارته وهمس له سرًا ببعض الأوامر. نظر البحار إليه بعينين مترددتين في البداية، لكن كانت أعين كنان ثابتة واثقة من تنفيذ ما أراد، فأومأ البحار بخضوع وانسحب بهدوء، وذهب كنان بعدها لقيادة السفينة مرة أخرى.

***

بعد ساعة رملية واحدة، توجه مالك نحو الدفة بصحبة لين،

حتى توقفا أمام القبطان كنان، ثم قال:

- يبدو أن اليوم سيكون هادئًا كسابقه.

- في عرض البحر لا يمكنك توقع ذلك أبدًا!

قالها كنان بابتسامة خفية، فقالت لين:

- دعونا نأمل أن تستمر تلك الأجواء الهادئة.

ابتسم كنان لهما، ثم غيّر الموضوع قائلًا:

- يمكنكما أن تنالا قسطًا من الراحة إذا أردتما ذلك!

- أستطيع تولي الأمر نيابة عنك حتى عودتك!

نظر مالك له للحظات قليلة، شد فيها بقوة على مقبض سيفه مترددًا في إجابته، لكنه فضل في النهاية أن يوليّه أمر السفينة لثلاث ساعات رملية فقط، متمنيًا أن يزيد ذلك الثقة بينهما قليلًا، خصوصًا في عرض ذلك البحر الكبير. صاحت بأعلى صوته للجميع:

- السفينة تحت قيادة القبطان كنان، حتى عودتي.

ثم انطلق نحو الطابق السفلي بعدما مر عند فارس وفهد وهمس لهما ببعض الكلمات، وأكمل طريقه بعدها نحو غرفته حتى وصل إليها، ومن خلفه وصلت لين وأغلقت الباب قائلة:

- أشعر بالقلق من تولي هذا القبطان أمر السفينة!

ربّت مالك على كتفها، ثم رسم قبلة على جبينها قائلًا:

- لا تقلقي. إنها ثلاث ساعات فقط يا لين!

ثم غيّر حديثه قائلًا:

- لم أتوقع أن تعيد تلك الأيام الماضية على العنقاء مشاعرنا

مثل السابق!

- هل تذكرين ذلك اليوم، عندما وقعنا في أسر كائنات الفارجل بالقرب من أرض الجبل!

ابتسمت وهي تنظر إلى عينيه البنيتين، وملامح وجهه الجميلة التي أُخفت خلفها سنوات من المسؤولية، وصلابة مكتسبة من المعارك، قائلة:

- يوم أن قيدنا الفارجل معًا، واعترف كل منا للآخر بحقيقة شعوره للمرة الأولى.

تنهد مالك، ثم قال:

- عرفنا بعضنا البعض خلال القتال والأخطار، ويبدو أن تلك المشاعر بيننا أصبحت مرتبطة بذلك الطريق!

ردت:

- لقد شعرت بذلك أيضًا منذ أن تبعتك إلى هنا، وتسللت إلى العنقاء بين الجنود سرًا!

- لكنك وضعت خنجرك على عنقي في النهاية، حتى كشفت عن وجهي.

ضحك مالك قائلًا:

- من الجيد أنني قد كشفت عن وجهك حينها!

ثم تغيرت ملامحه قليلًا وقال:

- إنه القدر يا لين! هو من جمعنا معًا منذ البداية، وهو السبب بوجودك إلى جانبي في تلك المرة أيضًا.

- أحيانًا تصبح الأقدار التي لم نردها في البداية، أفضل مما

تمناه عند تحققها!

- ربما لم أختر وجودك هنا! لكنني لا أستطيع أن أتخيل تلك الرحلة من دونك الآن.

حاولت لين تذكيره بأمر القبطان في تلك اللحظات، لكن كان النوم قد تغلب منه وقاطعها قائلًا:

- إنها ثلاث ساعات رملية فقط! لنخلد إلى النوم.

***

عصر اليوم الخامس عشر.

لم تمض ثلاث ساعات رملية منذ أن خلد الاثنان إلى النوم، حتى استيقظ مالك أولًا بعد أن استعاد جسده بعض النشاط، ثم أيقظ لين بهدوء. ارتدى كل منهما درعه، التقطا سيفيهما، ثم لبسا رداءيهما وخرج مالك أمامها نحو سطح السفينة بخطوات ثابتة حتى وصل إلى هناك. لكنه توقف فجأة في مكانه بحذر، بعدما نظر عن يمينه نحو بعض البحارة المنتشرين عند جانب السفينة، ولاحظ شيئًا مختلفًا.

كان البحارة على غير العادة يحملون سيوفًا لم تكن بحوزتهم منذ انطلاق السفينة، ويرمقون مالك بنظرات حادة أكدت شكوكه في كنان. نظر عند الجانب الأيسر فشاهد بقية البحارة يحملون سيوفًا أيضًا، وقد أعادوا انتشارهم في أرجاء السفينة لتطويق الجنود.

تحرك بناظريه إلى منتصف السفينة بحثًا عن فارس، حتى التقت عيونه لِلّحظات قصيرة، أومأ فارس برأسه خلالها بهدوء ليخبره بأن كل شيء جاهز، وأنه على أهبة الاستعداد

لصد أي حماقات قد يقوم بها كنان وبحارته، كما طلب منه سرًا قبل مغادرته، فالْتفت إلى لين قائلًا بهدوء:

- تحركي خلفي بحذر!

أكمل طريقه بخطوات نحو منتصف السفينة، حتى وصل معها إلى جوار فارس هامسًا:

- لن يدوم هذا الصمت المشحون طويلًا!

ابتسم فارس دون أن يلتفت، وهو يداعب مقبض سيفه بإصبعه قائلًا:

- لنرَ ما لدى القبطان!

في تلك اللحظات، هبت رياح باردة مفاجئة، جعلت السفينة تتمايل بقوة أكثر من السابق، وتساقطت أمطار خفيفة لأول مرة منذ انطلاقهم، حتى بللت سطح السفينة بالكامل، لكن لم يمن ذلك القبطان عن المضي قدمًا فيما قد خطط له.

اقترب كنان من ذلك السياج الخشبي أمام الدفة، نظر إلى بحارته للحظات، ثم أشار لهم برأسه فجأة، فانتشروا حول مالك وجنوده بخفة، وسحبوا سيوفهم في آن واحد، بالتزامن مع بعض أصوات الرعد التي نزلت على آذانهم بقوة في تلك الأثناء، كأنها تحذرهم من مغبة ذلك الصراع، لكنهم تجاهلوها ببساطة واستمروا بالتقدم إلى الأمام، حتى طوقوا مالك والجنود بالمنتصف.

نظر مالك إلى كنان قائلًا بصوت حازم:

- إلى أين تظنون أنكم ذاهبون؟

صاح كنان بصوت عالٍ:

- الماسة! أعطوني الماسة الآن وسأترككم على قيد الحياة!

رد فارس بسخرية، بعدما سحب مع مالك والجنود سيوفهم:

- ألا يمكنك أن تطلب بأدب؟

استشاط القبطان غضبًا وأشار بيده إلى بحارته بالهجوم، فتقدموا لبضع خطوات، ثم توقفوا في أماكنهم بعدما صاح فارس بأعلى صوته:

- الآن!

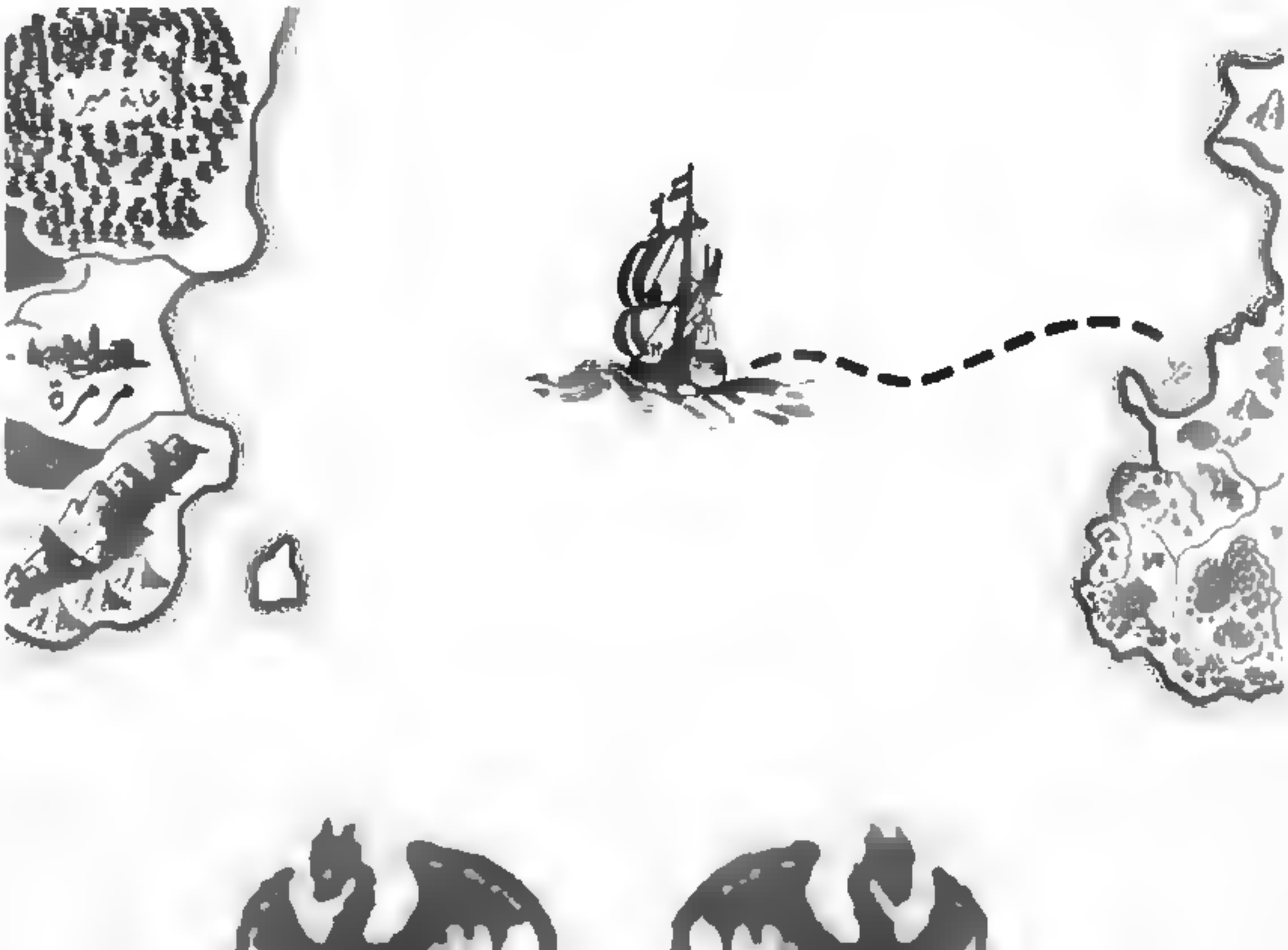

وصلت إشارة فارس بوضوح إلى جنود الممالك، المختبئين تحت تلك البراميل الخشبية المنتشرة على جانبي السفينة، فانقضوا من تحتها مسرعين نحو بحارة كنان على الجانبين، حتى حصروهم بينهم وبين مالك ومن معه، وأوقعوا بهم في

كمين محكم، إلا أن ذلك لم يمنع البحارة من بدء القتال، فبدأ الفريقان بالهجوم وسط دهشة كنان من ذلك الفخ الذي أوقع نفسه فيه.

لكن في تلك اللحظات، قفز فهد فجأة فوق ظهره من تحت أحد البراميل المجاورة له، واضعًا خنجره على عنقه، حتى أنزله بجسده الضخم أرضًا، قائلًا بصوت عالٍ:

- حان الوقت ليعرف الجميع بأن شجاعة الأقزام ليست مجرد أساطيرا!

حاول كنان المقاومة، وهم فهد ليضرب رأسه بمقبض خنجره كي يفقده الوعي، لكن توقف كل شيء فجأة عندما صاح أحد البحارة من أعلى قمة صاري السفينة بصوت امتلأ بنبرات الذعر والرّهبة قائلًا:

- عاصفة! عاصفة هائلة قادمة من الأمام!

نظر الجميع إلى الأفق للحظات لم تدم طويلًا، أدركوا فيها بأنهم هالكين لا محالة، بعدما شاهدوا عاصفة مدمرة مليئة بالغيوم السوداء تقترب منهم بسرعة مرعبة، وأمامها أمواج عالية كأنها جبال تتحرك.

دفع كنان فهد من فوقه بسرعة، أمسك بالدفة بقوة، ثم صاح بغضب للجميع:

- امسكوا بالحبال! لا تدعوا السفينة تنقلب!

لكن كان الأوان قد فات، ضربت موجة عملاقة مقدمة السفينة، فسقط الجميع أرضًا، حاول مالك وجنوده الإمساك بالحبال، ومساعدة البحارة في توجيه السفينة بعيدًا عن تلك

العاصفة، لكن بلا فائدة.

نظر نحو الدفة وسط الفوضى والصراخ الذي عم الأجواء، فالتقت عيناه بعيني كنان، ورأى فيهما مزيجًا من الطمع والخوف، همس لنفسه بصوت منخفض بحديث وصل مغزاه إلى كنان قائلًا:

- هذه هي نهاية الطمع! باب يُفتح على الهاوية، ولا يعود منه أحد سالمًا.

اندفعت السفينة داخل قلب العاصفة بالرغم من كل الجهود التي بذلها الجميع، كأن قوة خفية كانت تسحبها إلى الداخل. صرخت لين وهي تمسك بأحد الحبال مع مالك:

- إنها تبتلعنا!

- لم تعد السفينة تحت سيطرتنا!

نظر مالك إلى العاصفة قائلًا:

- إنها البداية فقط!

***

6

عاصفة

كانت الرياح تعوي كأنها أرواح غاضبة، تحمل معها صرخات الرعد التي تلقي في القلوب خوفًا لا يمكن وصفه، والأمواج تصطدم بجانبي السفينة بلا هوادة، ترفعها تارة كأنها قطعة خشب صغيرة، وتغمر سطحها بمياه البحر الهائج تارة أخرى. إلا أن العنقاء استمرت في مصارعة تلك الأمواج العاتية، التي كانت تتسابق لحملها نحو قمّتها حتى يظن من عليها بأنها سوف تلمس السماء السوداء القاتمة. لكن كان ذلك الشعور يزول سريعًا عندما تهوى بهم نحو الأسفل بقوة، كأنها تأخذهم إلى القاع.

وسط الفوضى العارمة، وقف القبطان كنان عند الدفة، يشد بيديه عليها محاولًا السيطرة على سفينته، يصرخ بأوامره باستمرار إلى البحارة والجنود لتثبيت الأشرعة، ممتنعًا بالكثير من الكلمات الغاضبة بسبب ما يحدث، لكن كانت العاصفة أقوى منهم جميعًا.

لم تكن الأمواج والرياح الخطر الوحيد المحيط بالسفينة، كانت هناك دوامات مائية هائلة، وأعاصير عملاقة امتدت من سطح المياه حتى قمة السماء، تدور بسرعة كبيرة، وتمر بجانب السفينة بين الحين والآخر. وكان ذلك الأمر أكثر ما أقلق كنان آنذاك، بعدما أيقن بأن ملامسة إحداها لجسد العنقاء قد يعني هلاكهم.

وقد أدرك مالك الأمر، فاستمر بدوره وسط جنوده في

الإمساك بالحبال بقوة، لكن مع ترنح السفينة المتواصل فوق المياه التي كانت تثور كوحش هائج، تكسر بعض الأشرعة من الأعلى تباعًا، مُحدثة صوتًا مسموعًا لم تخفه أصوات الرعد الحادة، وسقطت أخشابها في المياه أمام أنظاره. كان الأمر أشبه بالجنون، كأن السفينة تصرخ ألمًا، وتسير بهم رغمًا عنهم إلى التهلكة. لكن دائمًا في أحلك الظروف يتمسك الجميع بالحياة، لذلك استمروا في محاولاتهم اليائسة لتجاوز الأمر.

على الرغم من أن عمل الجنود والبحارة في تلك اللحظات كان أمرًا شاقًا، فإنه كان أصعب على الأقزام قصار القامة، خصوصًا مع شدة الرياح الباردة التي دفعت الكثير منهم نحو المياه وأغرقتهم في الأعماق. وقد حاول فهد إنقاذ أحدهم عند سقوطه، لكن انزلقت قدمه فجأة فوق مياه الأمطار التي كانت تغمر السطح، ويزداد منسوبها مع كل موجة تضرب السفينة، وكاد أن يسقط هو الآخر، بعدما رأى موجة عملاقة تقترب بسرعة، كأنها وحش يفتح فمه لتلهمه. صرخ فارس بسرعة:

- فهد!

لكن كانت لين هي الأقرب إليه، فأمسكت بذراعه الصغيرة بكل ما تملك من قوة، وهي تصرخ قائلة:

- تمسّك جيدًا!

تقدم فارس نحوهما بسرعة، مدّ يده محاولًا سحبه معهما وهما ينظران إلى عينيه اللتين كانتا تلمعان بالخوف وسط الظلام، لكنه تمسّك بصديقيه بقوة، حتى أعادهما بأمان إلى السطح وأجلساه عند جانب السفينة، يتنفس بصعوبة،

ويمسح بيده على لحيته المبللة وشاربه الطويل، مبتسمًا رغم شدة الموقف، قائلًا:

- يبدو أن الأقزام بحاجة إلى وجود العمالقة أحيانًا.

لكن لحظات الراحة القليلة تلك تلاشت سريعًا عندما صاح أحد جنود الجان بصوت مرتجف عند جانب السفينة المقابل:

- هناك شيء ما في المياه!

نظر الجميع نحو هذا الجندي، الذي ظهرت معالم وجهه المرتبك بوضوح مع إحدى ومضات البرق، في أثناء وقوفه فوق جانب السفينة الخشبي، مستغربين مما قاله دون أن يحرك أحدهم ساكنًا. لكن مع ومضة البرق التالية لم يكن هناك شيء.

شعر مالك بأن قلبه ينبض بعنف، كان عليه أن يتصرّف سريعًا. ركض قبل الجميع حتى وصل إلى هناك، وأدرك أن الجندي قد اختفى تمامًا. بدأ في النظر بتمعن نحو الأمواج العالية حول السفينة حتى لاحظ أن المياه تتحرك فوقها بطريقة غريبة، كأن شيئًا تحتها يتحرك بقوة مُحدثًا دوامات صغيرة حولهم.

- ليبتعد الجميع عن جانبي السفينة!

قالها بصوت عالٍ، فتراجعوا ببطء وسط همهمات القلق التي سُمعت بينهم بوضوح. سأل كنان بنبرات غمرها التوتر:

- ما الأمر؟

لم يجبه مالك للحظات، ثم صاح قائلًا:

- هناك شيء مريب!

- هذا ما كان ينقصنا!

قالها القبطان بوجه ملأه القلق، ثم أشار إلى أحد بحارته، فتناول البحار مصباحًا صغيرًا أشعل النار بداخله بسرعة، وتسلق به صاري السفينة بخفة، حتى وصل إلى قمته المكسورة، ثم وقف بثبات فوقه على الرغم من ترنح السفينة. مدّ يده إلى الأعلى وبدأ بالنظر حوله لتبيّن الأمر، في أثناء ما كانت أعين الجميع بالأسفل تراقبه بفضول، وأنفاسهم تتباطأ بقلق، في انتظار ما سيقوله.

لكن لم يدُم ذلك الشعور طويلًا، شاهدوا فجأة خلفه تحت أضواء البرق التي اندمجت مع ضوء المصباح الصغير، ثعبانًا بحريًا هائل الحجم، امتد طوله أمامهم من أعلى صاري السفينة حتى سطح المياه، له أجنحة قصيرة، ووجه حيوان شرس برز خلاله عينا تلمع كجمرتين في الظلام. فتراجع بعضهم إلى الخلف خوفًا منه، وتشبث البقية بسيوفهم أملًا في أن تنقذهم.

التفت البحار ببطء بعدما شعر بحركة مريبة، حتى التقت عيناه بعيني الثعبان المتوهجتين. حاول الصراخ لكنه كان فمه قد تجمد، وامتلأ وجهه بالرعب والهلع. إلا أن الثعبان لم يمهله كثيرًا، التقم بسرعة بفمه الكبير، وابتلعه أمام أنظار الجميع، واستمر في التمايل بعدها للحظات مظهرًا قوته أمامهم.

- رمح!

صاح مالك بعدما ألقى لفارس بواحد من الرماح، فالتقطه بخفة، ورماه بقوة نحو الثعبان حتى أصابه في أحد أجنحته

القصيرة بضربة مباشرة، غاص بعدها إلى الأعماق، تاركًا كل من شاهده في ذهول وفزع، بعدما أصبحت العاصفة المدمرة أقل ما يقلقهم.

وفي أثناء محاولتهم استيعاب الأمر، سقطوا جميعًا أرضًا محاولين التمسك بأي شيء، وسط صرخاتهم التي عمّت سطح السفينة بعدما اهتزت بقوة كأنها اصطدمت بجبل تحت المياه. ومع تكرار تلك الاهتزازات القوية أدركوا بأن الثعبان لا يزال موجودًا هناك، يهاجم السفينة من الأسفل بعنف محاولًا إغراقها، حتى تكسر الصاري بالكامل في النهاية، وتضررت مقدمتها بشدة، وبدأت المياه بالتسرب من جانبها الأيمن، مما جعل الإبحار بها أصعب من السابق. إلا أن مالك استجمع شتات نفسه، وصرخ قائلًا:

- إلى المجاديف! إلى أماكنكم.

كان كنان أول من امتثل للأمر، قام مسرعًا نحو الدفة، أحكم قبضته عليها، وبدأ بمحاولة الفرار من تلك البقعة التي يسكن في أعماقها ذلك الوحش المخيف. استمر في مراوغة الثعبان يمينًا ويسارًا في مسار ملتوي مستخدمًا مهارته في الإبحار، وقد نجح ذلك في منعه من الوصول إلى جسد السفينة حتى اختفى أثره لبعض الوقت، إلى أن لمحه أحد الجنود مجددًا من بعيد، وذهب ليخبر مالك في أثناء وجوده بجوار كنان.

بمجرد أن سمع القبطان ما قاله الجندي، بدأ في محاولة الالتفاف بالسفينة فجأة. وقد رآه مالك في أثناء محاولته القيام بذلك، فأمسكه من ذراعه بشدة قائلًا:

- ماذا تظن نفسك فاعلًا؟

رد كنان بغضب:

- سوف أعود أدراجي نحو إيستوريا، لن أستطع التقدم خلال العاصفة بعد الآن!

رد مالك بعدما جذبه بعيدًا عن الدفة:

- هل تظن بأنك من يقود السفينة الآن!

أردف فهد بعدما أتى مسرعًا بصحبة لين وفارس:

- الثعبان يحوم حولنا، والسفينة ما زالت تحت سيطرة العاصفة.

لكن لم يستمع القبطان لهما، حاول العودة للدفة من جديد، فجذبه مالك بقوة بعيدًا عنها. استشاط كنان غضبًا، وأخرج سيفه بسرعة، لكن لم يسحب البحارة سيوفهم معه تلك المرة. فقد كانت الأجواء مختلفة عن السابق، ولم يحتمل الأمر مزيدًا من التصعيد.

نظر كنان إليه بغضب للحظات، أيقن فيها أن السفينة تقترب من مصير مجهول. وأدرك أن تلك الفرصة ربما تكون الأخيرة له ليحصل على ما أراده. كانت فكرة امتلاك الماسة تغلي في عقله بشدة، وشعر كأنها تهمس له مجددًا:

- لا تستسلم!

- إنها فرصتك!

رفع سيفه عاليًا، ثم باغت مالك بضربة قوية تفاداها بمهارة. حاول القبطان توجيه ضربة أخرى، لكن كان مالك قد أخرج سيفه، وضرب بمقبضه رأسه، فسقط مغشيًا عليه في الحال. قال مالك للجنود بعدما تجمعوا حول جسده الضخم:

- خذوه إلى غرفته، وأحكموا وثاقه جيدًا.

ثم التقط قبعة القبطان، ووضعها فوق رأس أحد البحارة هامسًا:

- تولَّى زمام الدفة.

رفع صوته بعدها عاليًا، قائلًا:

- من الآن، أنا قبطان السفينة! وعليكم طاعتي، لعلنا ننجو من تلك الأهوال.

لم يناقشه أحد، أومأ الجميع برؤوسهم، وذهبوا إلى المجاديف مرة أخرى، تاركين مالك عند الدفة ينظر حوله بتمعن، حتى لمح الثعبان قادمًا من بعيد بسرعة كبيرة نحو منتصف السفينة، فصاح قائلًا:

- استعدّوا للصّدمة!

لكن، قبل أن يصطدم الثعبان بهم بعدما رفع رأسه عاليًا، خرج فجأة من قلب المياه ثعبان آخر أضخم حجمًا، بفم عملاق كان مفتوحًا بشدة حتى أطبق على رقبة الثعبان الأول، ثم سقطا معًا في المياه للحظات قليلة، صعدا بعدها إلى السطح مرة أخرى ليكملوا الصراع تحت ومضات البرق، التي كانت تكشف عن أجنحتهم المتشابكة وأنيابهم الحادة. نظر مالك إليهما بتمعن مدركًا بأنها فرصتهم الأخيرة، ثم صرخ قائلًا:

- لقّموا مدافع الأسهم، صوبوا نحو الثعبانين!

كان صراع الثعبانين كافيًا ليتجمّد أمامه الجنود والبحارة في أماكنهم، كأن الزمن قد توقف عند ذلك الحدث. وكانت

كلمات مالك بمنزلة طوق نجاة أُلقي لهم حينها، وأعاد لهم الحياة من جديد. ركضوا لتلقيم مدافع الأسهم الضخمة عند جانب السفينة المواجه لهما، حتى انتهوا من ذلك وصوبوها نحوهما بدقة. انتظر مالك مليًا حتى شاهد انشغالهم بمعركتهم الخاصة، ثم أنزل يده قائلًا:

- أطلقوا السهام!

انطلقت السهام الحديدية ذات الرأس المدبب نحو الثعبانين، حتى اخترقت جسديهما بالقرب من الرأس، وسقطا بعدها إلى الأعماق متأثرين بجراحهما البالغة. صاح مالك بصوت عالٍ:

- اخبروا إلى الأمام، لن نعود إلى إيستوريا اليوم!

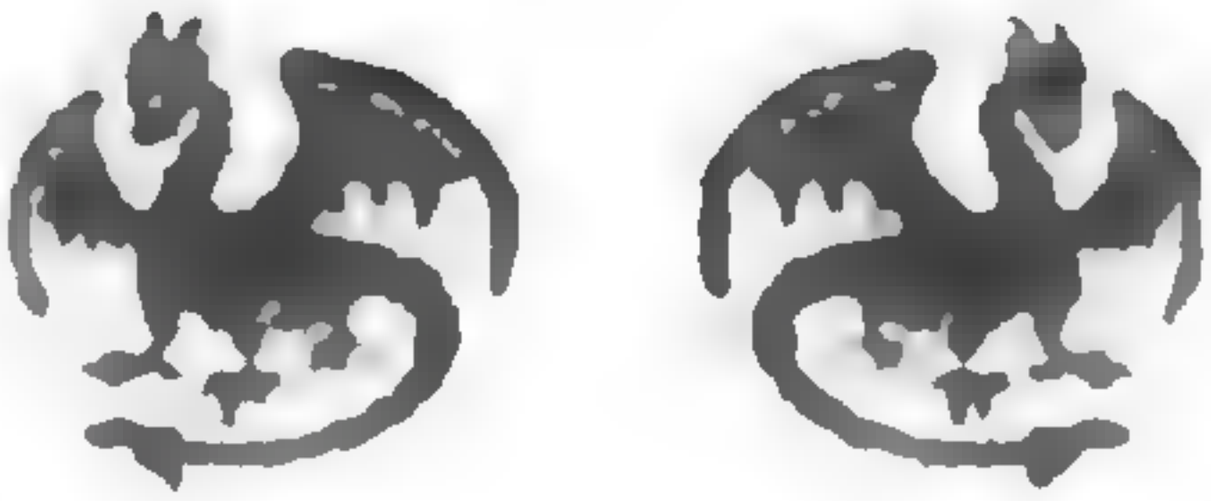

- لا توجد عودة من ذلك الطريق قبل الوصول إلى اليابسة!

انطلقت السفينة مخترقة أجواء العاصفة وأمواجها الهائلة، بعدما كادت أن تتحطم ويهلك طاقمها بالكامل. لكنهم تمسكوا بالأمل من جديد بعد اختفاء ثعبان البحر القاتل.

***

بعد تسعة أيام..

كانت الرياح قد هدأت قليلًا خلال الأيام الماضية، واستغل البحارة والجنود ذلك في إصلاح الكثير من الأضرار التي

أصابت السفينة حتى عادت إلى الإبحار من جديد. لكن كانت الدوامات المائية الكبيرة مستمرة في الدوران حولهم، تزامنًا مع تساقط الأمطار بكثافة، في غياب كبير لضوء النهار الذي تسرب بعضه عبر السحب القاتمة.

نظرت لين إلى فهد وفارس بيأس في أثناء وجودهما إلى جوارها، وتحديقهما بالمياه التي لا تنتهي، بعدما ظهر الإرهاق على وجهيهما بوضوح، ثم التفتت إلى مالك وقالت بقلق أخفته طوال الطريق، رأى في عيونها الزرقاء:

- يبدو بأنّه لا وجود لألْمَاسيَا!

شد فهد على مقبض سيفه بأطراف أصابعه، ثم تنهد بعمق قائلًا:

- يبدو أن بحر الشمال هو قدرنا المحتوم!

كان مالك هو الآخر يشعر بالقلق، خصوصًا عندما ينظر إلى وجوه البحارة والجنود، ويرى فيها كثيرًا من الذعر والإحباط من مواجهة المجهول. كانت الأفكار والقرارات تتصارع داخل عقله بشدة. حتى فارس الذي كان دائمًا ما يسانده في مثل تلك الأمور، تلون وجهه بالحمرة عندما نظر إليه، كأنه يخبره بأن التقدم في ذلك الاتجاه أصبح مستحيلًا، وأن عليه مراجعة الأمر. تساءل للحظة:

- هل كنت على حق! أم أن إصراري على المضي قدمًا كان خاطئًا؟

- لقد فقدنا العديد من البحارة والجنود بالفعل.

- ماذا لو تقدمنا أكثر من ذلك!

سرح قليلًا في وجوه أصدقائه، ثم أكمل حديثه مع نفسه:

- ربما يجب أن نستسلم لأقدارنا أحيانًا!

- الاستسلام ليس دائمًا هزيمة.

- يمكنه أن يكون وسيلة لرؤية الطريق.

وقبل أن يجيبهم ويتخذ قرارًا بالعودة، صرخ أحد البحارة بأعلى صوته قائلًا:

- هناك يابسة! اليابسة أمامنا من بعيد!

***

7

نيران ولهيب

عمّ الصمت بين الجميع فجأة، لم تصدق عقولهم ما سمعته آذانهم للوَهلة الأولى. لكن بعد لحظات نظروا خلالها إلى حيث أشار البحار، وأدركوا أن الأمر كان حقيقيًا، انفجرت الصيحات، وتعالت الضحكات، وعلت الابتسامات وجوههم المتعبة، بالرغم من استمرار العاصفة. أما مالك، فقد ركض مع أصدقائه حتى مقدمة السفينة، وانتظر وصولها إلى قمة الموجة التي حملتها عاليًا، دقق النظر في الأفق جيدًا، حتى شاهد بصعوبة نهاية العاصفة من بعيد، وطلوع الشمس من خلفها فوق قمم جبلية كثيرة. ثم قال بابتسامة تجلت على وجهه بوضوح:

- إنها يابسة بالفعل!

قالت لين:

- تبدو بعيدة جدًا.

رد فارس بعدما انتظر صعود السفينة مرة أخرى فوق الأمواج:

- ليست بعيدة مقارنة بما قطعناه حتى هنا.

ثم أكمل بعد أن فكر قليلًا:

- ربّما مسيرة ست ساعات رمليّة فقط.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه فهد لكنه لم يرد عليهم. صعد بسرعة فوق مقدمة السفينة، رفع سيفه عاليًا، ثم صاح قائلًا:

- لقد فعلناها!

هلل الجميع بحماس بعدما بعث بداخلهم الأمل مرة أخرى، وتمسكوا بالحياة من جديد. تناسوا أمر العاصفة ولم يعد ظلامها يخيفهم، ولا أمواجها ترهبهم. وبينما كانوا يحتفلون بظهور اليابسة، ظهر فجأة في السماء ظل ضخم، اختراق السحب بسرعة، ثم أصدر صوتًا حادًا جدًا تردّد صداه في السماء، صم آذانهم، وألقى في قلوبهم الرعب والهلع.

نظروا نحو مصدر الصوت الذي واصل التقدّم باتجاههم، فشاهدوا هيئته شيئًا فشيئًا. طائر هائل الحجم، جلده أحمر قاتم، فاتح كالجمر عند أطرافه، بجناحين عملاقين امتدّا من بدنه الضخم، ورأس مخيف يثير الفزع في قلب من يتجرأ على النظر إليه. عيناه سوداوان عميقتان، وفمه كبير وصَل إلى نصف رأسه وامتلأ بصُفوف أسنان مدببة على الجانبين. وقدماه عملاقتان مكْسوتان بجلد غليظ عن بقية جسده. لكن مع ذلك، لم يمنعه وزنه الهائل من الطيران بخفة.

اقترب منهم بسرعة خاطفة، ومرّ من فوقهم ملقيًا بظلاله على السفينة، قبل أن يهوي ذيله الطويل الذي امتدت فوقه سلسلة من الأشواك الكبيرة بدأت من خلف رأسه، ليصطدم بصاريها محطمًا إياه بالكامل حتى توقفت تمامًا. ثم ارتفع مجددًا محلّقًا إلى السماء بعدما اتضحت هيئته المخيفة، تاركًا خلفه حالة من الفزع والذهول عجزوا عن استيعابها.

- ما هذا!

صرخت لين. نظر فارس إلى مالك سائلًا:

- هل تلك هي الأسطورة التي أخبرنا بها الملوك من قبل؟

حاول فهد أن ينطق بكلمة، لكنه لم يستطع في البداية. استجمع شتات نفسه، ثم رد بوجه امتلأ بالخوف:

- يبدو أن هذا هو التنين!

كان مالك يحدق إلى التنين في أثناء تحليقه عاليًا، لم يسمع ما قاله أصدقاؤه من شدة ذهوله، اكتفى بقول واحد ردّده عدة مرات:

- الأسطورة حقيقية!

- ألْمَاسيَا موجودة!

جذَبته لين من ذراعه قائلة:

- مالك، ماذا سنفعل؟

لكنه لم ينظر إليها، كانت أنظاره متجهة نحو التنين بعدما شاهده يدور في السماء من بعيد، ويلتف للعودة باتجاه مقدمة السفينة. فقال بصوت منخفض:

- إنه يعود!

سأل فهد:

- ماذا قلت؟

صَرخ قائلًا:

- التنين قادم! أسرعوا نحو المجاديف.

- اتجهوا بالسفينة نحوه مباشرة، وعند إشارتي انحرفوا بها يمينًا.

دبت الحركة فوق سطح العنقاء من جديد بين البحارة والجنود بالرغم من الخوف الذي ملأ قلوبهم. أمسكوا

بالمجاديف وأسرعوا بها نحو التنين كأنهم يسيرون بها نحو حتفهم. لكن كان أمر مالك بمنزلة الأمل الأخير لهم لتخطي الأمر. استمروا بالتقدّم وانتظروا إشاراته. لكنه تمهل قليلًا حتى شاهد التنين يزأر من جديد بصوت تردّد صداه عاليًا، لم تخفه أصوات الرعد القوية بالسماء، ثم فتح فمه الكبير للحظات، بدأ خلالها جوفه بالاحمرار شيئًا فشيئًا حتى توهّج تمامًا، فأدرك أن التنين ينفث نيرانًا من فمه، وصرخ قائلًا:

- نحو اليمين!

انعطفت السفينة بشدة فجأة بمجرد اقتراب التنين، لكن كانت نيرانه أسرع في الوصول. اندفع اللهب من فمه المتوهج حتى أمسك في أخشاب العنقاء عند المقدمة ودمرها بالكامل، فتوقفت مرة أخرى. ارتفعت ألسنة النيران منها، وتصاعد الدخان نحو السماء بالرغم من استمرار تساقط الأمطار فوقها.

أدرك مالك في تلك اللحظات أن نهايتهم قد باتت وشيكة، وأن العنقاء لن تبرح تلك البقعة تحت هجوم التنين داخل العاصفة. نظر حوله، فشاهد البحارة يركضون في كل مكان، والجنود يتجمعون عنده في انتظار أمره الأخير بعدما عمّت الضجّة بينهم، في أثناء تحليق التنين مبتعدًا عنهم. وقد استغل أحد البحارة تلك الأجواء، تسلل سرًا من بينهم إلى الطابق الثاني، توجه إلى غرفة القبطان كنان، ففتح الباب بسرعة حتى وجده مكبّلًا في مكانه. أزال قطعة قماش من فوق فمه، فصرخ فيه قائلًا:

- ماذا يحدث! ما تلك الأصوات؟

لم يرد البحار، استخدم خنجره في قطع الحبال حول يديه وقدميه حتى حرره تمامًا، ثم مدّ يده فتمسّك به كنان واعتدل في وقفته سريعًا. أجاب البحار حينها:

- السفينة ستغرق أيها القبطان!

- هناك تنين يهاجمنا!

- هل قلت تنين؟

- نعم، تنين ضخم ينفث النيران، وقد دمّر مقدمة السفينة وصاريها بالكامل، يجب أن نهرب في الحال.

- إلى أين سنهرب؟

- هناك يابسة! لكنها بعيدة.

التقط كنان سيفه، ثم ربّت على كتف البحار قائلًا:

- أحسنت صنعًا بإنقاذي، لكن على كل واحد منا أن ينجو بمفرده!

نظر البحار إليه بذهول، ثم تبعه إلى الأعلى في صمت، حتى وصل القبطان هناك، وشاهد التنين في أثناء تحليقه من بعيد تحت ومضات البرق المستمرة. نظر حوله فوجد مالك بمفرده بعدما أعطى أمرًا للجميع بالاستعداد لمغادرة السفينة. استل سيفه وانطلق نحوه من دون تفكير، فصرخت لين بصوت خرج متقطعًا من فرط الخوف:

- مالك!

انتبه مالك على الفور، وتفادى ضربة كنان متفاجئًا من وجوده، لكنه كظم غيظه قائلًا:

- الوقت ليس مناسبًا للقتال أيها القبطان!

ضحك كنان بصوت سمعه الجميع، بعدما اختلط الغضب بالجشع بداخله، قائلًا:

- لن أبرح تلك السفينة من دون الماسة! الماسة لي وحدي.

- إذًا لن تبرحها أبدًا!

قالها مالك، فهاجمه كنان على الفور، وسط صراخ الجميع عليهما عند رؤيتهم للالتفاف التنين من أجل الهجوم من جديد. كانت الأفكار حول التنين وألْمَاسيَا تتعارك داخل رأسه

بقوة أكبر من قتاله للقبطان الذي أعماه الطمع، لكنه أيقن أن الوقت ليس مناسبًا لكل المعركتين، فاستغل هجوم كنان بإحدى ضرباته القوية وتفاداها بسرعة، ثم ضربه بيده في وجهه حتى أسقطه أرضًا. لكنه قام مرة أخرى محاولًا الهجوم فأصابه مالك بسيفه في ذراعه اليمنى، ليسقط على الفور عند منتصف سطح السفينة، يصرخ بشدة.

نظر مالك باتجاه التنين، فوجده يزأر بقوة مرة أخرى ويفتح فمه ليهاجم قلب السفينة، صاح مردّدًا:

- انجوا بحياتكم! اقفزوا إلى المياه!

نظر إلى فارس وفهد وأشار لهما بالانطلاق، أمسك بيد لين ونظر إليها مطمئنًا، ثم ركض معها سريعًا باتجاه جانب السفينة. لكنه ألقى نظرة خاطفة إلى الخلف في أثناء ركضه حتى لمح كنان مستلقيًا هناك كما هو، وقفز بعدها بقوة إلى الأعلى. لكن كان التنين قد نفث نيرانه نحو قلب السفينة حيث كان كنان، حتى انفجرت بالكامل، وتطايرت أخشابها المشتعلة حولهم قبل أن يلمسوا المياه، مُحدثة صوتًا هائلًا غرق بعده مباشرة.

تطاير الجميع في المياه، كلّ يتصارع بمفرده مع الأمواج الهائلة التي أغرقت بعضهم أسفلها، ويحاول النجاة بعيدًا عن الدوامات المائية التي سحبت معظمهم إلى داخلها، وسط صرخات المحاربين الأربعة التي ملأت الأجواء:

- مالك!

- لين!

- فهد!

- فارس!

حاول كل منهم التمسك بالآخر، لكن كانت العاصفة أقوى منهم جميعًا. فرّقتهم الدوامات في كل اتجاه، وابتلعهم ظلام البحر وأمواجه المتلاطمة.

***

8

وجهة جديدة

صباح اليوم الخامس والعشرين من الانطلاق.

كان البحر هادئًا ذلك الصباح على غير عادته في الأيام الأخيرة، بالرغم من البرد القارس الذي غطى الأجواء عند شاطئه. والسماء ملبدة بالغيوم الرمادية التي تسرب عبرها بالكاد شعاع خافت لم يكف لإضاءة تلك البقعة تمامًا. أشعل يزيد وتيا النار عند أشجار النخيل بالقرب من المياه، وجلسا بجوارها يراقبان الأفق في صمت، بعدما انتهيا لتوهما من صيد الكثير من الأسماك كما خططا لذلك قبل عشرة أيام.

قطع يزيد ذلك الصمت قائلًا بنبرة مرحة:

- حظينا بصيد وفير اليوم.

أجابته بابتسامة خفيفة:

- سيكفينا ذلك لأيام بالتأكيد.

غير يزيد الحديث قائلًا:

- لكنك كنتِ شاردة طوال الوقت!

نظرت إلى عينيه قائلة:

- كنت أفكر بمياه البحر الباردة!

سكتت قليلًا بعدما ظهرت الدموع في عينيها، ثم قالت:

- على الرغم من برودتها القارسة، إلا أنها لم تكن كافية لتهدئة تلك النيران داخل قلبي!

لم يرد يزيد، اكتفى بالنظر إليها سرًا بحزن، مدركًا أنه بالرغم من هدوء حياتهما في مرمرة، إلا أن ماضيهما كان يطاردهما على الدوام، خصوصًا عندما تلوح في الأفق ذكريات والديهما.
وفجأة، قطع الصمت بينهما صرخة خافتة من تيا:

- انظرا! هناك شيء ما يطفو فوق المياه!

نظر يزيد في الاتجاه الذي أشارت إليه حتى تبين الأمر. كان هناك جسدان طافيان بالقرب من الشاطئ، تدفعهما الأمواج ببطء نحو اليابسة. صرخ يزيد:

- بسرعة يا تيا! علينا إخراجهما!

قفزا معًا في المياه، وسبحا بسرعة نحو الجسدين. كانا ثقيلين جدًا، لكنهما بذلا قصارى جهدهما لسحبهما إلى الشاطئ حتى تمكّنا من ذلك في النهاية. وضع يزيد الجسد الأول على الرمال، بينما وضعت تيا الآخر إلى جانبه. كان كلاهما في حالة يُرثى لها، أجسادهما مشبعة بالمياه تمامًا، وأنفاسهما شبه منقطعة. وقد لاحظا امتلاك كل منهما لسيف وضع داخل غمده بإحكام، بالإضافة إلى قوس صغير بحوزة واحد منهما فقط لفّه حول ظهره. فأدركا أنهما قد يكونان من المحاربين أو الجنود.

بدأ يزيد وتيا محاولات يائسة لإنعاشهما حتى فتح أحدهما عينيه بصعوبة بعد دقائق، لفظ فيها كثيرًا من المياه اندفعت من فمه بقوة. بدأ بالسعال قليلًا وكذلك فعل الآخر بعده، تنفس بصوت مبحوح للحظات، ثم التفت إلى يزيد بعدما سأله باللهفة:

- أخيرًا! من أنتما؟ ماذا حدث لكما؟

رفع الرجل رأسه بصعوبة قائلًا:

- أنا... مالك.

ثم نظر إلى الجسد الآخر حتى تبين هويته، وأردف:

- وهذا صديقي فارس.

استند مالك على يديه، نهض بصعوبة، ثم بدأ ينظر حوله بقلق بالغ تجلّى على وجهه المتعب، وسأل بصوت مرتعش:

- أين، أين هم؟

سألته تيا بدهشة:

- من هم؟

- لين، فهد، الجنود... هل هناك ناجون غيرنا؟

لم ينتظر جوابًا، ركض مع فارس نحو المياه وهما يناديان بصوت متحشرج:

- لين! فهد!

لكن بلا جواب. كان كل ما استقبلاه هو صوت الأمواج الهادئة. توقف مالك للحظة، وضع يده تحت درعه حتى وجد ماسة أريانا في مكانها، أخرجها بسرعة حتى لمع بريقها السماوي وسط دهشة يزيد وتيا مما يفعل. أمسكها بكلتا يديه للحظات شعر فيها ببرودة تسري داخل جسده، وانتقل بعدها لماضي تلك البقعة، وتحديدًا إلى الساعات الأخيرة قبل وصولهما. لكنه لم يجد شيئًا.

أنزل الماسة يأسًا، وأومأ برأسه إلى فارس بالسلب بعدما امتلأت عيناه بالدموع، ثم جلس على ركبتيه، غطى وجهه

بيديه، وانفجر في بكاء عميق. حاول فارس مواساته، لكنه لم يستطع الحديث كأن الكلمات قد تجمدت داخل فمه. فجلس بجواره مكتفيًا بالبكاء قائلًا:

- ما الذى فعله بنا هذا الطريق!

تقدم يزيد وتيا منهما بهدوء، أمسكا بذراعيهما وعادا بهما حتى أجلساهما إلى جانب النار، ثم قالت تيا:

- لا شيء يمكنكما فعله الآن.

قال يزيد:

- انتظرا هنا حتى نحضر الخيول. يجب أن تأتيَا معنا. لا يمكنكما البقاء هنا أكثر من ذلك.

***

بعد دقائق قليلة، أحضر يزيد الخيول واستعد بصحبة شقيقته للمغادرة. أشار إلى مالك وفارس فامتطيا أحد الحصانين، بينما امتطى مع تيا الحصان الآخر. ثم نظر إلى مالك سائلًا بفضول:

- من أي إقليم أتيتما؟

نظر الاثنان إليه بدهشة من مسمى الإقليم، لكن أجابه مالك سريعًا:

- أتينا من مملكة فاليريا!

صمت يزيد قليلًا مستغربًا مما سمعه، ثم قال:

- لم أسمع بها من قبل!

أجابه فارس:

- مملكة فاليريا موجودة في إيستوريا.

لم يرد يزيد. انطلق معهم عبر ذلك الطريق الذي زينت جانبيه الورود، وفاحت منه رائحة التراب الرطب بعد هطول الأمطار فوقه وقت الظهيرة، وتعالت عند أشجاره أصوات الطيور العذبة، حتى خلق ذلك جوًّا بديعًا أراح قلوب الأربعة، إلى أن وصلوا عند منزلهم في النهاية.

توقف مالك هناك ينظر حوله بتأمل. كان منزلهما بسيطًا للغاية، تَوَسّط مزرعة كبيرة امتلأت بحقول واسعة من القمح، تَلَوّن باللون الأصفر الذهبي، وظهرت سنابله بوضوح في كل مكان، إلى جانب بعض الخضروات التي زيّنت فناء المنزل الأمامي. ومن بعيد تحت أشعة شمس الشتاء الفاترة ظهرت عدة منازل أخرى في اتجاهات مختلفة، لمحها فارس وأخبر مالك بها، فأدرك أنهما متواجدان داخل إحدى القرى في مكان ما بأَلْمَاسيَا.

أشار يزيد لهما بأن يتبعه إلى المنزل، فانطلقا خلفه إلى الداخل. كان المنزل متواضعًا صغيرًا، لكنه مليء بالدفء خصوصًا بعدما أشعل يزيد النار في الموقد بالقرب منهما. في تلك اللحظة انعكست أضواء تلك النيران داخل عيون مالك حتى ذكرته بنيران التنين الملتهبة التي أحرقت سفينته وأحرقت قلبه معها. لكنه انتبه إلى تيا في أثناء قدومها باتجاههما، فاستعاد تركيزه مرة أخرى.

أحضرت تيا لهما بعضًا من ملابس يزيد ليستبدلاها بملابسهما المبللة وغادرت إلى الداخل مرة أخرى. فارتدياها وجلسا أرضًا في انتظار ما سيقوله أخيهما. لكنه ابتسم قائلًا:

- كلاكما بحاجة إلى الطعام. تناولاه الآن، وسنتحدث لاحقًا.

أحضرت تيا بعض الطعام الساخن، فجلسا بالقرب من النار يتناولاه في صمت، حتى انتهيا منه سريعًا، وشكرا يزيد وتيا على كرمهما وحسن استقبالهما بعدما استعادا نشاطهما مرة أخرى.

قال مالك:

- في البداية أستميحكما عذرًا، فلم أسألكما عن اسميكما!

ابتسم يزيد قائلًا:

- أنا يزيد وهذه شقيقتي تيا.

أومأ برأسه تحية لهما، ثم سأل:

- هل نحن موجودان في ألْمَاشيَا الآن؟

- بالطبع!

قالها يزيد ثم أردف:

- لم تُخبِرانا بعد عمَّا حدث معكما!

أخذ مالك نفسًا طويلًا ثم قال:

- أنا مالك قائد جيوش مملكة فاليريا من أرض بعيدة تُسمى إيستوريا، وهذا صديقي المحارب فارس قائد فرق المغاوير.

قاطعه يزيد بدهشة ظهرت على ملامح وجهه:

- وأين تقع إيستوريا وفاليريا تحديدًا؟

أجابه فارس تلك المرة:

- إيستوريا خارج حدود ألْمَاشيَا! وتبعد عنها لمسافات

طويلة قد تصل إلى مسيرة شهر كامل في عمق بحر الشمال.

قاطعتها تيا:

- هل تقصد بأنكما أتيتما من خارج تلك الأرض؟

- نعم! أتينا من أرض أخرى. لكننا ما زلنا جميعًا داخل أرض الماس، عالمنا الأكبر.

قالها فارس، فسأل يزيد:

- ولماذا قطعتم كل تلك المسافة حتى هنا؟

أجابه مالك تلك المرة:

- لم نأتِ بمفردنا! أتينا على متن سفينة كبيرة بصحبة الكثير من جنود إيستوريا. لكننا تفاجأنا بوجود عواصف هائلة سحبتنا للدّاخِل، وثعابين عملاقة هاجمتنا بشراسة، وانتهى المطاف بنا أمام تنين كبير نفث نيرانًا حارقة من فمه حتى أغرق السفينة.

ثم أردف بعدما ظهرت الدموع في عينيه:

- فقدت كل شيء هناك! فقدت جنودي، فقدت صديقي فهد! وفقدت زوجتي، لين!

وضع يزيد يده على كتف مالك ثم قال:

- أعرف ما تشعر به، فقد فقدنا والدينا أمام أعيننا أيضًا. ذلك الألم لن يزول أبدًا، لكنه سيدفعك لتصبح أقوى دومًا.

ثم غيّر حديثه:

- يبدو أن سفينتكم قد دخلت في حزام العواصف حول ألْمَاسيَا!

- ذلك الحزام يُحيط بألْمَاسيَا من كل اتجاه باستثناء عدة منافذ قليلة في بعض الأماكن.

- لكنكم نجحتم في النهاية بالوصول قرب سواحل ألْمَاسيَا، لذلك هاجمكم أحد الحراس!

أردف يزيد بعدما نظرا إليه باستغراب:

- تحمي التنانين حدود ألْمَاسيَا منذ القدم، ويطلقها الجميع بالحراس! ربما رأى ذلك التنين أن وجودكم هناك يشكل تهديدًا لألْمَاسيَا.

أوضح مالك لهما بأنه أتى لألْمَاسيَا لمنع إعادة روح سردار للحياة من جديد. سرد لهما بعد ذلك كل ما مرّ بهم في إيستوريا منذ البداية، مرورًا بمهمة البحث عن ماسة أريانا فيها، وحتى الانتصار الكبير الذي حققه أمام أتباع سردار، وكيف فرّت روحه المظلمة عبر بحر الشمال نحو ألْمَاسيَا في النهاية.

كان حديث مالك مذهلًا بالنسبة إلى يزيد، الذي أدرك بدوره أنهم ليسوا وحيدين في ذلك العالم. وأن هناك شرًا مظلمًا يُهدّد وجودهم في ألْمَاسيَا أيضًا. وقد كانت الماسة الموجودة بحوزة مالك خير دليل على صدق كلامه، خصوصًا بعدما استخدمها ليخبره بماضي منزلهما، منذ وصولهما للمرة الأولى.

- مذهل!

قالتها تيا، فأردف يزيد:

- لسنا من أهل إقليم مرمرة! أتينا إلى هنا منذ أن فقدنا والدينا في إقليم فيونا. لكننا سنعود إلى هناك يومًا ما!

سأله مالك:

- وماذا كان عملكما هناك؟

أجابه يزيد بثقة:

- كنت قائدًا لمجموعة من الجنود، وكذلك كانت تيا. كانت مهماتنا تقتصر على تأمين بعض المناطق الحدودية من اللصوص وقطاع الطرق.

- لكن ماذا عنكما؟ ماذا ستفعلان الآن؟

فكر مالك قليلًا ثم قال:

- يجب أن نذهب إلى ملك ألْمَاشيَا لنخبره بأمر سردار والظلام!

ابتسم يزيد لهما للحظات دون أن ينطق بكلمة، ثم قال:

- لا يوجد ملك لألْمَاشيَا يا مالك! ألْمَاشيَا أرض كبيرة جدًّا!

- في نصفها الجنوبي يعيش البشر داخل أقاليم منعزلة، يحكم كلًّا منها أمير من أهلها، ويسيطر معظمهم على تنانين من الحراس. والحروب بين تلك الأقاليم لا تنتهي.

- أما نصفها الشمالي فتسيطر عليه أقاليمه شعوب الجان بعيدًا عن صراعات البشر.

نظر مالك إلى فارس قائلًا:

- يبدو أن مهمتنا ستطول هنا كثيرًا!

قاطعتها تيا:

- ليس إذا ذهبتم لأمير إقليم ألميريا «بهرام». فهو الأمير الأقوى، ويملك تنينًا أيضًا من الحراس يُدعى «فالينار»، يحمي

به مملكته. لكنه في صراع دائم مع إقليم فيونا.

سألها فارس:

- إقليم فيونا! حيث ترعرعتما؟

تغيّرت ملامح وجهها قليلًا، ثم أجابته:

- نعم، لكننا لسنا على وفاق مع أميره، لذلك رحلنا عنه.

- فيونا أيضًا إقليم كبير، يمتلك أميره «نذير» هو الآخر تنينًا يُدعى «سيفار»، والحرب بينه وبين ألميريا لا تهدأ أبدًا.

قال مالك:

- يبدو أن التنانين تحظى باهتمام الأمراء هنا!

رد يزيد:

- ليس لمجرد الاهتمام، فالوصول إليها صعب وخطير على كل حال. لكن التنانين هنا هي مظهر القوة والسيطرة الأساسية لأمراء الأقاليم أمام شعوبهم وأعدائهم.

سأل فارس تيا مرة أخرى:

- ماذا عن إقليم مرمرة؟

أجابته:

- الأمير آصف مثله مثل أمير إقليم تويا الواقع بأقصى الشمال، لا يمتلك تنينًا، ويناى بإقليمه بعيدًا عن صراعاتهم. لكن هناك أيضًا إقليم «نارين» في أقصى الغرب. يحكمه الأمير «مرجان» ويخضع له تنين يُدعى «زاروس».

سأل مالك بجدية:

- هل يمكننا لقاء الأمير بهرام أمير ألميريا؟

رد يزيد بعد تفكير:

- نعم! لكن لماذا سيستمع لكما؟

- إذا أردتما مساعدته، يجب أن تثبتا له أنكما حليفان يمكن الوثوق بهما. لكن هذا يعني أيضًا...

أكمل مالك حديثه:

- الانخراط في حربه مع إقليم فيونا!

نظر فارس إلى مالك قائلًا:

- لا خيار لدينا. إذا أردنا المساعدة في الوصول إلى سردار، يجب أن نذهب إليه.

التفت مالك ليزيد وتيا متسائلًا:

- هل يمكن لكما مساعدتنا في الوصول إليه؟

وقبل أن يجيبه بالرفض، نادته تيا بعيدًا عنهما ليتحدثا على انفراد بالأمر، استمر نقاشهما لدقائق طويلة، أتى بعدها يزيد مبتسمًا، ثم قال:

- كنا نستعد للذهاب إلى ألميريا خلال أيام لنبيع جزءًا من محصول القمح لدينا. لكن سنحتاج إلى تأمين العربة من قطاع الطرق على طول الطريق بين مرمرة وألميريا.

- لذلك، يمكنكما أن تساعدانا في ذلك!

بحيرة الزمر
مصر
بحيرة الجنوب

رد مالك بسرعة:

- بالتأكيد! لكن متى يمكننا الذهاب؟

- يمكننا الانطلاق صباح الغد.

- كما أنني أود أن أتأكد من وصولكما إلى الأمير بهرام، فقد أقلقني أمر سردار كثيرًا.

أشار يزيد إلى إحدى غرف المنزل ليستريحا بداخله حتى الغد، فشكراه مرة أخرى، وتوجها إليها مباشرة. كانت غرفة صغيرة يتوسطها فراش كبير، استلقيا عليه في الحال بدون أن ينطق أي منهما بكلمة. حتى غط فارس سريعًا في نوم عميق ظنًا منه بأن صديقه قد سبقه إلى النوم بعد ذلك اليوم العصيب.

لكن لم تعرف عينًا مالك طريقًا للنوم في تلك الأثناء. كان ذهنه شاردًا بشدة بعدما عادت الأحداث الأخيرة لمطاردته بين جدران تلك الغرفة، كأنها أشباح تحوم حوله بداخلها. كان يرى وجه لين أمامه، نظراتها المشبعة بالأمل بعد اقتراب خروجهم من العاصفة، نظرات الحب في عينيها عندما أمسك بها داخل السفينة، وكلماتها الأخيرة بعد سقوطهم في المياه، والتي لم تُسعفه الرياح والعاصفة لسماعها.

- ليتك لم تأتِ معنا على متن تلك السفينة المشؤومة!

قالها في نفسه عدة مرات. كان الألم يعتصر قلبه بشدة. لكنه أردف بصوت مسموع:

- ربما أخذك الموت مني!

- لكن لن يموت ذلك الحب الذي جمعنا به القدر.

- ستظل روحك معي على الدوام.

أغمض عينيه في تلك اللحظات، واستسلم للنوم بعدها متمنيًا التوفيق في طريقه نحو ألميريا.

***

9

على الطريق

مع ظلوع فجر اليوم التالي، بدأ ضوء النهار بالتسلل عبر نافذة الغرفة الصغيرة، وتعالت أصوات الطيور شيئًا فشيئًا حول تلك المزرعة الكبيرة. فتح مالك عينيه ببطء شديد، ثم أغلقها سريعًا بعدما ظن أنه كان يرى حلمًا غريبًا في مكان لا يعرفه. كانت عيناه قد اعتادت رؤية سقف غرفته الصغيرة بالسفينة طوال الأيام السابقة، لكنه أدرك الأمر سريعًا وفتح عينيه مبتسمًا، أخذ نفسًا عميقًا ثم نادى:

- فارِس! استيقظ.

قام فارس من فراشه بهدوء، شد يديه إلى الأمام بقوة قائلًا:

- أشعر بأن الألم يسري في كل أنحاء جسدي.

رد مالك:

- ليس هذا غريبًا، فقد كنا نصارع الأمواج بالأمس!

أجابه:

- كان الموت قريبًا جدًا منا.

قام مالك من فراشه، جذَب فارس برفق، ثم قال:

- يبدو أن القدر كان له رأي آخر.

في تلك الأثناء سمع الاثنان بعض الضجة بالخارج، فتناولا سيفيهما وتوجها نحو باب الغرفة ليتفقدا الأمر. بمجرد أن فتحاه استقبلا بعض النسيم البارد المختلط برائحة أخشاب محترقة أشعلها أحدهم بالخارج لنشر الدفء حول المكان.

كان يزيد وتيا قد استيقظا قبلهما وحملا سيفيهما بعد ارتدائهما ملابس من الفرو تقيهما برد الشتاء القارس، وشرعا في إعداد بعض التجهيزات اللازمة.

قال فارس لهما مبتسمًا:

- صباح الخيرا!

التفت يزيد مبتسمًا:

- صباح الخير، أتمنى أن تكونا قد حظيتما ببعض الراحة.

- هيّا ساعدانا في تجهيز العربة. يجب أن ننطلق بعد قليل!

ناولت تيا كل واحد منهما رداءه الفرو بعدما جف تمامًا، فلبساه سريعًا حتى شعرَا ببعض الدفء. ذهبا معهما بعد ذلك إلى الخارج عند العربة الخشبية، التي تم ربطها بحصانين كبيرين بدا على جسديهما القوة والضخامة. وبجانب العربة كان هناك حصانان آخران جهزهما يزيد لمالك وفارس.

قال يزيد بصوت خالطه صوت الرياح الباردة حولهم:

- لنضع صناديق القمح على العربة!

بدأ الأربعة في حمل الصناديق الخشبية واحدًا تلوا الآخر. كانت حبات القمح تتلألأ بداخلها تحت شمس الفجر الخافتة، وأحس كل منهم بأنه يحمل كنزًا من حبات الذهب الخالص.

قال فارس:

- أتمنى أن نصل إلى ألميريا سالمين!

أجابه يزيد:

- ذلك الطريق محفوف بالمخاطر، لذلك علينا أن نتوخى

الحذر!

قاطعه مالك:

- لا تقلق! سيكون كل شيء على ما يرام.

ثم تساءل:

- كم يبعد إقليم ألميريا عن هنا؟

أجابه يزيد:

- مسيرة ستة أيام تقريبًا.

قال فارس بدهشة:

- أمامنا طريق طويل إذن!

ردت عليه تيا:

- صحيح. خصوصًا أن الشتاء قد بدأ، لذلك علينا التوقف بين الحين والآخر.

بعدما انتهوا من تحميل العربة، أحضرت تيا بعض الطعام والمياه من أجل الطريق، ووضعت حزمًا من الحشائش الصغيرة للخيل في صندوق جانبي بالعربة، ثم صعدت إلى مقدمتها عند الخيول مع أخيها، بعدما امتطى مالك وفارس حصانيهما.

نظر مالك إلى يزيد للحظات، حتى أشار إلى الطريق أخيرًا قائلًا:

- نحو ألميريا!

ابتسم مالك وفارس بعدما نظرا إلى الأفق أمامهما، وربتا على حصانيهما برفق، ثم قالا تباعًا:

- نحو ألميريا.

تحركت العربة ببطء على الطريق المحاط بحقول القمح على الجانبين، والتي استمرت سنابلها في التمايل مع الرياح حولهم، كأنها تودع الأربعة في انتظار عودتهم لحصادها هي الأخرى. كان مالك وفارس على حصانيهما يتأملان تلك البقعة التي سحرت أعينهما بجمالها البديع. لكن رغم هذا، كان هناك شعور غامض بداخلهما بأن الطريق إلى ألميريا لن يكون خاليًا من المفاجآت، آمِلين أن يجدوا هناك العون الذي يسعيان إليه، دون الحاجة إلى خوض معارك جديدة.

مع تقدم الأربعة على الطريق، شاهدوا كثيرًا من أهل تلك البقعة بين الحين والآخر. كانت منازلهم بسيطة للغاية، تكونت من طابق واحد فقط وفناء صغير أمامه. وبالرغم من أن هذه المنازل كانت تفصل بينها مسافات كبيرة، إلا أن أهلها كانوا يعرفون يزيد وشقيقته جيدًا، ويلقون عليهما التحية بمجرد مرورهما بالعربة أمامهم، متمنين لهما طريقًا سالمًا وبيعًا مربحًا.

سأل مالك يزيد:

- متى سنصل إلى مدينة إقليم مرمرة؟

ابتسم له يزيد في أثناء ما كان ممسكًا بلجام الحصانين، محاولًا السيطرة على العربة فوق ذلك الطريق الضيق الذي بلّلته بعض الأمطار قبل دقائق، قائلًا:

- ليس اليوم يا مالك! هذا الطريق لا يذهب إلى مرمرة.

- إنه اختصار لمسافات طويلة كنا سنقطعها إذا ذهبنا إلى

هناك.

أردفت تيا:

- سيقودنا ذلك الطريق عبر قرى مرمرة إلى الطريق الرئيس الذي يصلها بألميريا.

- انظر هناك على مرمى البصر. هل ترى تلك الهضبة المرتفعة؟

نظر مالك وفارس أمامهما حتى لمحاها من بعيد، وأدركا بأن عندها تنتهي حدود إقليم مرمرة، وتبدأ حدود إقليم ألميريا الكبير.

***

بعد عدة ساعات رملية

كان النهار قد اقترب من نهايته، وبدأت الشمس في الغروب معلنة عن نهاية يوم جديد، قطع خلاله الأربعة مسافة كبيرة، وعبروا خط الحدود إلى داخل أراضي ألميريا. لكنهم اضطروا في النهاية إلى التوقف من أجل تناول الطعام والنوم لبعض الوقت كي يستطيعوا المواصلة.

نزل مالك من فوق حصانه أولًا، تلاه فارس مباشرة، بعدما أشار إلى يزيد بإيقاف العربة والانتظار فوقها في تأهب حتى يتفقد مع فارس محيط المكان.

كان الطريق إلى ألميريا محاطًا بالأشجار الكثيفة على الجانبين، كأنه يعبر من منتصف غابة كبيرة. لكن بالرغم من هذا، كان ضوء الشمس يصل إلى هذه البقعة بالكامل وينير أرجاءها تمامًا. وبعد بضع دقائق أخرى تفقد فيها الاثنان هذا

المكان، أشَار مالك ليزيد، فنزل مع شقيقته من فوق العربة، وتوجها نحو بعض الأشجار الكبيرة، حيث جلسوا جميعًا إلى جوارها.

لكن فجأة، انتفض مالك وفارس من مكانهما عندما سمعا زئيرًا قويًا يعرفانه جيدًا. تلون وجهاهما بالخوف في لحظات، وتسارعت ضربات قلبيهما بشدة بعدما تذكرا تلك الأحداث السيئة في بحر الشمال.

نظر مالك إلى يزيد بسرعة مستفسرًا:

- هل هذا تنين؟

ابتسم يزيد وتيا لهما ثم قالا معًا:

- نعم إنه تنين!

قال فارس بنبرات قلق تجلت على صوته، مستغربًا من هدوء الاثنين:

- إذًا لنختبئ قبل أن يلحظ وجودنا!

أجابه يزيد بهدوء:

- إنه فالينار، تنين الأمير بهرام.

ثم أردف بعدما جذبهما ليجلسا مرة أخرى:

- نحن الآن في ألميريا. يمكنكما رؤية فالينار مع الأمير بهرام كثيرًا.

- إن التنانين الخاضعة للأمراء لا تؤذي أحدًا إلا بأمرهم، وتنصاع لهم بالخضوع.

سأل فارس بعدما هدأت ضربات قلبه المتصاعدة قليلًا:

- إذًا لماذا هاجمنا ذلك التنين الأحمر سابقًا؟ ولمن يخضع؟

أجابه بعدما فكر قليلًا:

- لا يوجد تنين أحمر في ألْمَاشيَا، باستثناء...

سكت قليلًا، فسأله مالك:

- باستثناء؟

قال يزيد في تعجب:

- فيدارا!

- لكنني لست متأكدًا من ذلك، لأن فيدار لا يظهر كثيرًا.

أكملت تيا:

- يربط أهل ألْمَاشيَا وجود التنين فيدار بنبوءة قديمة. إنه التنين الأقوى والأضخم على ألْمَاشيَا، تنين لا يخضع لأحد.

نظر مالك وفارس إلى الأعلى بدهشة، حتى لمح فالينار في أثناء ابتعاده خلال الأفق، بعدما تلاشى زئيره الحاد شيئًا فشيئًا حتى اختفى تمامًا، وساد الهدوء بينهم من جديد.

أحضرت تيا من العربة بعض اللحم النيئ وأشعل يزيد النار بسرعة بعدما جمع بعض الأخشاب المنتشرة حولهم، ثم وضع اللحم بحذر فوقها، وانتظر الأربعة في هدوء حتى يكتمل شواؤه مستمتعين بتلك الرائحة الذكية التي ملأت أنوفهم، وجذبت كثيرًا من الغزلان بالقرب منهم.

ابتسم فارس قائلًا:

- يذكرني ذلك المكان بالغابة السوداء!

نظر يزيد وتيا إليه بفضول، فأجاب مالك:

- نعم قليلًا، لكنها كانت أكثر ظلامًا!

- اضطررنا لعبورها خلال حربنا مع داركان، أحد أتباع سردار، وقضينا خلالها أوقاتًا مرعبة.

رد يزيد:

- يبدو أنكم قد عشتم أيامًا عصيبة في إيستوريا!

في تلك الأثناء أضيئت تلك البقعة وميضًا بالبرق المفاجئ، وتعالت أصوات الرعد فوقها حتى تساقطت الأمطار حول الأربعة في النهاية. لكنها لم تصل إلى أسفل تلك الأشجار حيث جلسوا. لم يعِر الأربعة أي اهتمام لتلك المياه التي انتشرت بالقرب منهم، أو لصوت ارتطامها المتتابع على تلك الأرض الترابية. اكتفوا بتغطية العربة بغطاء سميك كان يزيد قد أحضره معهم، وبدأوا في تناول طعامهم بشراهة. كان الجوع قد تمكن منهم، وظهر التعب في وجوههم بوضوح. لكنهم انتهوا منه سريعًا، وشربوا بعده بعض الشاي الساخن، الذي أعاد لهم قليلًا من الدفء من جديد.

كانت علاقتهم قد توطدت كثيرًا بالرغم من قصر تلك الفترة التي جمعتهم معًا. شعر مالك وفارس بأنهما وسط أصدقائهما في إيستوريا، وأحس يزيد وتيا بشيء من الدفء والراحة في وجودهما، خصوصًا تيا التي لاحظت نظرات فارس لها منذ خروجهم من مرمرة.

كانت نظراته لها مختلفة. أيقظت بداخله إحساسًا دفينًا لم تعرفه من قبل، حتى شعرت في لحظة ما ببعض الخوف من مغادرته. كان وقع الأمر غريبًا عليها، فتارة تنكر ذلك الشعور، وتارة أخرى تتمنى أن يطول وجوده معهما.

أما فارس، فقد أدرك صدق ذلك الإحساس بداخله منذ أن رآها للمرة الأولى. ومن لحظة انطلاقهم، كان ينتزع الفرص ليسألها عن ألْمَاسيَا بدلًا من يزيد، بعدما أدرك أن سماعه لصوتها الناعم هو الدواء الوحيد لذلك الشعور المتنامي بداخله، وأن صمتها الطويل يجعله في حالة ترقب لا يعلم سببها.

لكنها قامت في النهاية بهدوء، ذهبت باتجاه العربة، وأحضرت بضع أغطية كبيرة، غطى كل منهم بها جسده بإحكام، وغرقوا بعد ذلك في نوم عميق استيقظوا منه مع طلوع الفجر، ثم أكملوا طريقهم سريعًا نحو ألميريا.

بعد مرور ثلاثة أيام أخرى، قطعوا خلالها مسافة كبيرة، بدأ الطريق يزداد خطورة، ليس فقط بسبب التضاريس الوعرة التي بدأت في الظهور حولهم على الجانبين، بل أيضًا بسبب ذلك الشعور المتزايد بداخلهم بأنهم لم يعودوا في منطقة آمنة تمامًا مثل مرمرة.

رأى مالك في تلك الأثناء بقايا عربة قديمة متوقفة على جانب الطريق، عجلاتها محطمة بالكامل، ومقدمتها ممتلئة بكثير من السهام السوداء، ظهرت حولها بقع من الدماء، لمعت حمرتها بوضوح تحت شمس الظهيرة الدافئة، وكأنها دليل على هجوم سابق حدث في وقت قريب.

رفع مالك يده فتوقف الجميع، قبل أن يتبادل مع فارس بعض النظرات الصامتة، شد على سيفه بحزم بعد ذلك مستعدًا لأي مواجهة محتملة. أخرج ماسة أريانا بعد ذلك وأمسكها بكلتا يديه، وغرق بعدها في حالة صمت تام لدقائق

بدت للثلاثة كأنها أيام طويلة، ثم فتح عينيه قائلًا بصوت خافت:

- ثلاثة من قطاع الطرق بملابس سوداء، استخدموا سهامًا سوداء اللون في هجومهم على تلك العربة.

تسارعت ضربات قلبي يزيد وتيا، وسحب كل منهما سيفه بسرعة، لكن أردف مالك بهدوء:

- لا داعي! لقد رحلوا.

سأل يزيد وهو يتأمل بقع الدماء الحمراء بقلق:

- هل هناك ضحايا؟

أجابه بعدما أخذ نفسًا طويلًا:

- اثنان، للأسف!

ثم أردف:

- لكن الغريب في الأمر أنّهم لم يسرقوا شيئًا منهما!

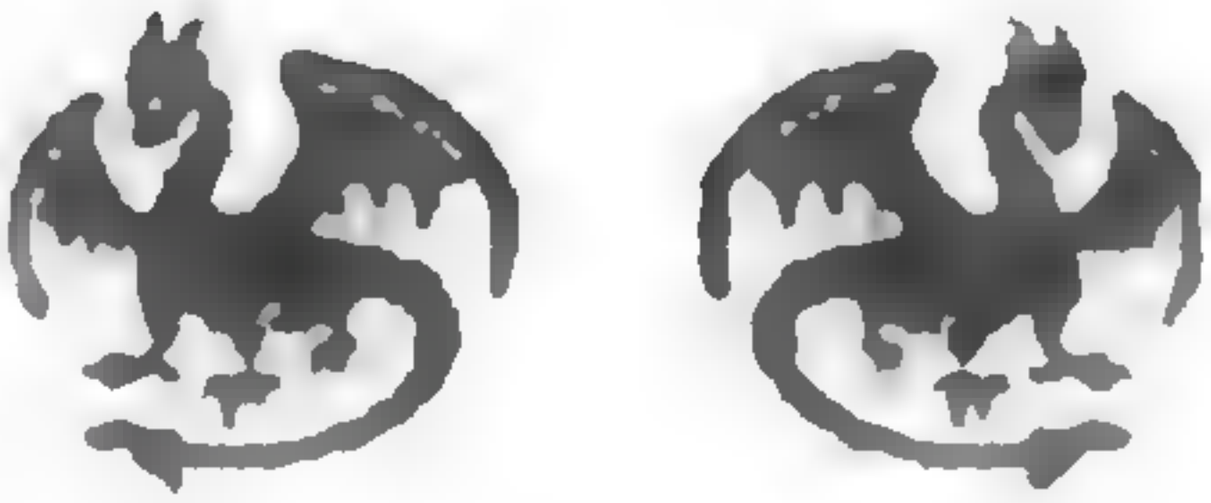

تساءل فارس بدهشة:

- هل قتلوهما وهربوا فقط؟

أجابت تيا تلك المرة:

- يبدو أن هذا هو ما حدث بالفعل. انظروا.

- العربة ممتلئة بالأغراض!

نظر مالك للحظات إلى تلك العربة، ثم قال بتعجب:

- غريب!

أشار بعدها بيده إلى الأمام، بعدما أدرك خطورة بقائهم هناك لوقت أطول. فتحركوا خلفه بهدوء، وواصلوا التقدم على مدار اليوم عبر تلك الطبيعة الصخرية الممتلئة بأشجار عملاقة صفراء اللون، حتى وصلوا مع غروب شمس ذلك اليوم إلى أولى قرى إقليم ألميريا.

***

10
فلورا

- وصلنا إلى قرية فلورا!

قالها يزيد بابتسامة جميلة وصل أثرها إلى قلوب الثلاثة، بعدما ظهرت القرية بوضوح أمامهم، وانعكس جمال لون الطبيعة الأخضر فيها داخل أعينهم، وسط طبيعة إقليم ألميريا الصفراء التي اعتادتها أنظارهم. ثم أردف بعدما أشار بيده إلى نقطة ما:

- سنتوقف هناك!

تحرك مالك وفارس بحصانهما إلى حيث أشار، ومن خلفهما تحركت العربة، حتى توقفوا في النهاية بجوار بعض المنازل الخشبية، التي انتشرت بجانب بعضها البعض مُكوِّنة قرية صغيرة، امتلأت شوارعها بالوحل الكثيف بعد تساقط الأمطار، وزينتها المشاعل الموضوعة أمام تلك المنازل. وضع يزيد وفارس الغطاء فوق العربة من جديد، بينما انشغل مالك بمراقبة محيط المكان في تلك اللحظات. لكن قاطعت تيا صمته قائلة:

- لا تقلق! فلورا آمنة جدًا.

ابتسم لها قائلًا:

- العدو الذكي عادة لا يهاجم خصمه عند استعدادِه.

- يتركه حتى يشعر بالأمان، ثم ينقض عليه لحظة انشغاله!

رمقته تيا طويلًا بنظرات إعجاب، بعدما أدركت أنها تقف

أمام قائد يتمتع بدهاء عسكري عظيم، أكبر بكثير من مجرد تأمين عربة قمح صغيرة. لكنها قالت له أخيرًا بعدما أتيا يزيد وفارس إلى جانبهما:

- ربما قليل من الاحتياط سيكون مناسبًا.

ضحك فارس قائلًا:

- توجد مشكلة واحدة حاليًا! لقد ازداد البرد كثيرًا، ولم أعُد قادرًا على تحمّله. نحتاج إلى بعض الدفء.

- لا تقلق! أعلم أين نجده.

قالها يزيد، ثم انطلق سريعًا أمام الثلاثة على أقدامهم عبر الطريق الرئيسي بفلورا. كان الطريق هادئًا للغاية، لكنه لم يخلُ تمامًا من المارة، بالإضافة إلى صوت غناء وصل صداه إلى آذانهم من بعيد، واستمر بالتزايد شيئًا فشيئًا مع تقدمهم، حتى أدرك مالك وفارس أنهم يقصدون مصدر ذلك الصوت العذب.

أمام مبنى كبير توسّط القرية، وقف يزيد عند بابه الخشبي الضخم للحظات، نظر خلفه لهم بابتسامة، ثم دفعه بكلتا يديه برفق. اندفع دفء المكان الممتزج برائحة الطعام سريعًا نحوهم، وعلا صوت الغناء حولهم بعدما شاهدوا مصدره بوضوح. قال يزيد بصوت عالٍ:

- أهلًا بكم في خان فلورا!

دارت أعين مالك وفارس سريعًا في محيط الخان. شاهدا أعدادًا كبيرة من البشر تجلت البهجة على تجمعهم بوضوح. طاولات ممتلئة بالطعام والشراب، أصوات ضحكات عالية،

ومجموعات تغني بحماس مع العازفين. حتى أدركا بعد لحظات بأنّه يشبه استراحات مدينة ميريت مع بعض الاختلافات البسيطة. لكن مع دخول الأربعة، خيم صمت مفاجئ على المكان. توقفت الضحكات، وانخفضت الأصوات، وتحولت أعين الجميع نحوهم. رفع يزيد يده مُحيّيًا بنبرات حملت بعض الدهشة من سكوتهم:

- مرحبًا!

لكنهم استمروا بالتحديق بهم في صمت، فأردف:

- أنا يزيد، وهؤلاء أصدقائي. أتينا من مرمرة!

شعر مالك وفارس ببعض القلق، شدّا على مقبضي سيفيهما بإحكام، وانتظرا إشارة من يزيد، لكن صاح أحدهم بصوت عالٍ:

- أعرف هذا الرجل. يأتي إلى هنا بين الحين والآخر.

رد يزيد قائلًا:

- نرغب في المبيت في نزل فلورا حتى الصباح!

عادت الضجة تدريجيًا، واستأنف الجميع الغناء مرة أخرى كأنّ شيئًا لم يكن. نظر الأربعة إلى بعضهم البعض بدهشة لِدقائق قليلة، إلى أن اقترب منهم رجل طويل القامة بلحية سوداء كثيفة، وشعر قصير غطّى معظمَه بقبعة من الصوف، عرّف نفسه لهم بمُراد، صاحب الخان، قائلًا:

- أعتذر عمّا حدث! فقد انتشرت جرائم القتل مؤخرًا حول فلورا، وأصبح أهلها يخافون الغرباء قليلًا.

نظر يزيد إلى مالك وفارس للحظات بعدما تذكر تلك العربة

الخشبية على الطريق، لكنه فضّل الصمت في تلك الأثناء، والتفت إلى مراد قائلًا:

- لا بأس. نريد فقط غرفتين حتى الصباح.

أخرج مراد على الفور مفتاحين كبيرين، ناولهما ليزيد قائلًا:

- ثلاث عملات حمراء لكل غرفة.

نظر مالك وفارس إلى بعضهما البعض في تعجب مما سمعاه، وزادت دهشتهما أكثر عندما شاهدا يزيد يخرج ست قطع زجاجية صغيرة، مكعبة الشكل، حمراء اللون، ناولهما لصاحب الخان بهدوء. فأشار مراد بيده إلى طاولة فارغة في أحد أركان الخان قائلًا بنبرة ودودة:

- تفضلوا بالجلوس. سأرسل لكم بعض الطعام والشراب.

شكر يزيد الرجل بابتسامة، وذهب مع أصدقائه نحو الطاولة. جلسوا بهدوء وأعينهم تراقب ذلك المكان الدافئ المنهِج، على الرغم من ملاحظتهم لبعض النظرات المريبة نحوهم من قِبل بعض الحاضرين. لكن قطع هدوئهم في النهاية وصول عامل الخان، بعدما وضع أمامهم أربعة أطباق من الفخار دائرية الشكل، امتلأ كل منها بقطع كبيرة من لحم البقر الساخن المطهي بعناية، وطبق آخر وضع فيه أربع فطائر قمح بالعسل، ثم غادر مسرعًا بعدما أتى في النهاية بأربعة أكواب كبيرة امتلأت بالمياه.

لم ينتظر الأربعة كثيرًا، انقضّوا معًا فوق تلك الوجبة الدسمة، يتناولون منها بشراهة، وسط ضحكاتهم العالية التي امتزجت مع صوت الضجة حولهم. حتى انتهوا منها

سريعًا، وبدأوا في الاستماع إلى تلك المقطوعة الجميلة التي بدأ بعض أهل فلورا في غنائها، والرقص على أنغامها في مجموعات. التفتت تيا إلى فارس بابتسامة قائلة:

- هل تستطيع الرقص؟

نظر لها ببعض الخجل متعجبًا من سؤالها. بدأ قلبه في الخفقان بعنف فجأة، وصمت للحظات لم يستطع الإجابة فيها على سؤالها، لكن جذبه مالك من ردائه بسرعة قائلًا بابتسامة:

- بالطبع يستطيع، إنه الأمهر في فاليريا!

ثم التفت إلى فارس قائلا:

- أليس كذلك؟

نظر فارس له بدهشة مدركًا أن صديقه قد لاحظ نظراته طوال الأيام السابقة إليها، وتحولت نظراته إلى ابتسامة عريضة ملأت وجهه بوضوح بعدما تذكر أنه لم يرقص في حياته قط، وهو أمر يعرفه مالك جيدًا. لكنه قام في النهاية مجيبًا دعوته، وتوجها إلى حيث يرقص الآخرون على أنغام تلك المقطوعة.

يا فلورا، يا حكاية الزمن الجميل

يا نجمة مضيئة في ليل طويل

على أرضك ننشد مقطوعات الأمل

ونرقص ببهجة وحب كبير

ساحاتك تموج بعطر الحياة

وتأوي كل من يحاول النجاة

يا فلورا، يا حكاية الزمن الجميل
يا نجمة مضيئة في ليل طويل
على أرضك نرقص مثل الطيور
ونحيا بحب يُعانق النور
تتحد أرواحنا في هذه الليلة السعيدة
في خان فلورا، حيث السعادة أكيدة
يا فلورا، يا حكاية الزمن الجميل
يا نجمة مضيئة في ليل طويل

كان فارس وتيا مُفسِكان بذراعي بعضهما البعض، يدوران معًا بخفة في حركات دائرية سريعة حاول فارس تقليدها بعدما شاهد بقية الراقصين. لكن قالت له تيا بعد دقائق:

- يبدو أن أهل فاليريا لا يعرفون الرقص! ربما على تدريبك لبعض الوقت.

ضحك قائلًا:

- حسنًا، أعترف بأنها المرة الأولى! لكنّها لن تكون الأخيرة.

توقف في مكانه، أمسك بيدها من الأعلى وتركها لتدور بسرعة مع اقتراب نهاية المقطوعة، مضيفًا بسعادة:

- يبدو الأمر ممتعًا، خصوصًا مع من تحب!

كانت تيا قد انتهت من رقصتها، نظرت له بصمت ظاهر على ملامحها الجميلة من الخارج، محاولة إخفاء ضربات قلبها المتسارعة، وانعكاس تلك الكلمات في عينيها. قائلة:

- يبدو ذلك صحيحًا!

تركته بعد تلك الكلمات واقفًا في صمت محاولًا فهم مغزى ما قالت، وهو ينظر إليها عند عودتها إلى الطاولة. لكنه سرعان ما لحق بها إلى هناك، وجلَس إلى جانب مالك الذي أعجبته تلك الأجواء الجميلة أيضًا، بالرغم من ذلك الصراع الداخلي الدائر بين عقله وقلبه بين الحين والآخر. لم يتقبل قلبه فقدان لين وغيابها إلى الأبد، وانشغل عقله بصراع الأقاليم وتخوّفه من الانخراط فيه. سرح بعقله قليلًا في تلك الأثناء، وبدأ بالحديث مع نفسه:

- كيف سنصل إلى سردار بمفردنا!

- لا بد من الحصول على بعض المساعدة.

- بوجود سردار سيأتي الدور على إيستوريا مستقبلًا، لكنه سيكون حاليًا على ألْمَاشيَا إذا لم يساعدني أمراؤها!

استند بظهره على كرسيه، أخذ نفسًا عميقًا، ثم أخرج زفيرًا طويلًا مضيفًا:

- كيف سيُساعدني مجموعة من الأمراء المتناحرين!

نظر إلى يزيد أخيرًا قائلًا:

- غريب أمر البشر هنا!

- يتصارعون فيما بينهم على الرغم من أنهم بنو جنس واحد!

اعتدل يزيد في جلسته قليلًا، وبدأ في توضيح تاريخ ذلك الصراع القائم كما أخبره به والده من قبل.

لم يكن هناك إقليم باسم فيونا من الأساس. كانت تلك

الأراضي الواقعة تحت سيطرة الأمير نذير تابعة لإقليم تويَا في الماضي. وقد عاشت تلك المناطق في سلام طويل ورخاء كبير لقرون كثيرة، إلى أن تمكن الأمير نذير بدعم من أقاليم الجان من الهجوم بتنينه ومُحاربيه على إقليم تويَا، والسيطرة على أجزاء كبيرة من أراضيه. ثم بسط سيطرته بعد ذلك شيئًا فشيئًا، مُعلنًا عن إقامة إقليم فيونا رغمًا عن الجميع.

قاطعه مالك سائلًا بفضول:

- لكن لماذا لم تتكاتف الأقاليم الأخرى أمام هجومه؟

ابتسم يزيد قائلًا:

- لم يتكاتف أحدا!

- تركوا إقليم تويَا بمفرده في مواجهة نذير والجان. لكن ليست تلك هي المشكلة حاليًا.

أضاف فارس بهدوء:

- لم يتوقف نذير عند ذلك الحد بالطبع.

أجاب يزيد:

- هذا ما حدث بالضبط! لم يكتفِ بما قد حصل عليه، ويحاول التوسع منذ ذلك الوقت على حساب الأقاليم الأخرى.

- يحلم بتحويل إقليمه لشيء أكبر يمتد من البحر إلى البحر، ليحكم عبره كل البشر مجتمعين.

قاطعه فارس:

- وما معنى ذلك؟

أجابه:

- من بحر الشمال إلى بحر الأشباح غرب ألْمَاشيَا.

- وقد وصل الأمر به في طغيانه إلى استخدام تنينه سيفار للهجوم على كل من يقف ضده!

تغير صوته قليلًا مضيفًا:

- حتى لو كانوا من أبناء شعبه، إذا تعاونوا مع أهل ألميريا.

رد مالك بثقة:

- لا تقوم الممالك على جثث الأبرياء! لذلك لن يتمكن أهل الشر أبدًا من تحقيق أفكارهم العدوانية.

- لكن، ماذا عن الأقاليم الأخرى؟

أوضح لهما يزيد بأن إقليم نارين بدأ في دعم إقليم ألميريا منذ وقت طويل، بعد هجوم الأمير نذير على محاربي نارين وإحراق الكثير منهم بتنينه. كما أن إقليم مرمرة يدعم الأمير بهرام أيضًا خوفًا من تزايد نفوذ فيونا، لكن بشكل غير مباشر.

- ماذا عن إقليم تويَا؟

سأل مالك، فأخبره بأن أميره يدعم إقليم فيونا رغمًا عنه خوفًا من فقدان باقي أراضيه، خصوصًا مع صغر مساحة إقليمه ووجوده خلف فيونا بالقرب من أقاليم الجان الشمالية.

أتَى عامل الخان في تلك الأثناء سائلًا:

- هل ترغبون في تناول شيء آخر؟

أجابه يزيد وهو يمد له يده بأربع قطع زجاجية خضراء اللون، قائلًا:

- شكرًا لك. سنغادر بعد دقائق.

قال مالك بعدما غادر عامل الخان:

- يبدو أن أقاليم الجان تؤثر بشكل مباشر في ذلك الصراع أيضًا.

أجابته تيا تلك المرة:

- تقوم الأقاليم الشمالية ببعض الهجمات بين الحين والآخر بغرض السطو على خيرات الجنوب.

- ينتظرون فقط الفرصة المناسبة للانقضاض على أقاليم البشر.

رد مالك بعدما وقف مع فارس استعدادًا للمغادرة:

- أظن أن فيونا لم تكن لتفعل كل ذلك بمفردها!

- أقاليم الجان هم سبب كل ما حدث ويحدث لكم حتى الآن!

- إنهم العدو الأول لبشر أَلْمَاشيَا، ونذير ينفذ خطتهم للسيطرة على تلك الأرض، أو السيطرة من البحر إلى البحر كما ذكرت.

- لكنهم يجهلون جميعًا خطر الظلام القادم!

- يجهلون تلك الإبادة الجماعية التي يمكن أن تحل بالجميع إذا لم يتم التصدي له.

غادر الأربعة نحو نزل فيونا المقابل للخان، عبروا بابه الصغير ثم صعدوا تباعًا إلى الطابق الثاني. كانت هناك غرفتان فقط، فدخل مالك وفارس إلى إحداهما، وذهب يزيد وتيا إلى الأخرى.

كانت الغرفة بسيطة للغاية، توسطها سريران خشبيان بسط عليهما غطاء سميك من الفرو. بالإضافة إلى نافذة صغيرة، وقف عندها مالك لدقائق يُحدق في أضواء المشاعل التي تزين شوارع فلورا. فكر في حديث يزيد عن صراع البشر لبعض الوقت، وشعر بعبء ثقيل على كتفيه نحو أهل أَلْمَاشيَا ضد ذلك الأمير الظالم. لكنه خلَع درعه في النهاية واستلقى في فراشه للحظات قليلة، غطّ بعدها هو وفارس في نوم عميق حتى فجر اليوم التالي.

***

11

كمين

مع بزوغ ضوء الفجر، فتح مالك عينيه ببطء شديد بعدما التقطت أُذناه صياح الديوك التي يُربيها أهل فلورا. اعتدل في فراشه، أيقظ فارس بهدوء، ثم قام مُسرعًا باتجاه النافذة. كانت الحركة قد دبّت في شوارع تلك البلدة، وبدأ أهلها في الخروج من منازلهم تباعًا. فالتفت إلى فارس قائلًا:

- يبدو أن أهل فلورا مفعمون بالحيوية والنشاط ليلًا ونهارًا!

ابتسم له فارس قائلًا:

- وهم بارعون في الرقص أيضًا.

نظر مالك إلى الخارج مرة أخرى، ثم قال:

- يجب أن نتحرك الآن. يبدو أنها ستمطر في أي لحظة، كما أن البرد يزداد سوءًا.

أجابه فارس بعدما قام من فراشه:

- حقيقة، لم أر شتاءً كهذا من قبل! ذلك البرد يقتلني ببطء.

بعد دقائق قليلة، تجمع الأربعة أمام نُزُل فلورا، وانتظروا لبضع دقائق أخرى حتى أتى مراد عندهم قائلًا:

- أتمنى أن تكونوا قد حظيتم بليلة دافئة!

ابتسم له يزيد بعدما ناوله مفاتيح الغرفتين قائلًا:

- كانت ليلة رائعة. لم أحظ بمثل ذلك النوم العميق من قبل!

أجابه بعدما رفع حاجبيه بسعادة:

- تلك الأجواء لن تجدها إلا في فلورا يا سيدي.

ثم أردف وهو يبتعد عنهم:

- إلى اللقاء، دمتم سالمين!

ذهب الأربعة على الفور عند العربة. رفعوا الغطاء المبلل بمياه الأمطار بسرعة عنها، ثم صعد يزيد وتيا فوقها من جديد، ومن بعدهما مالك وفارس فوق حصانيهما، بعدما وضعوا بعض الحشائش أمام الخيول وانتظروها لدقائق حتى انتهت منها. أشَار مالك لهم بالتحرك، فرفعت الخيول رؤوسها، ونفثت أنفاسها الدافئة في الهواء البارد، قبل أن تبدأ بالتحرك بحذر فوق شوارع تلك القرية التي غطاها الوحل بالكامل، وسط الضباب الكثيف الذي كان يملأ الأجواء، حتى تلاشت معالم فلورا خلفهم شيئًا فشيئًا، وأصبحوا بمفردهم من جديد.

***

على الرغم من انتصاف النهار في تلك الأثناء، إلا أن الغيوم كانت قد غطت السماء تمامًا وحجبت الشمس من خلفها بشكل كامل، وانتشر الضباب الكثيف أمام الأربعة بين الأشجار والصخور المنتشرة على طول الطريق. كانت أنفاسهم الباردة تخترق الضباب أمامهم لأقدامهم من شدة البرد القارس، لكنهم لم يتوقفوا قطّ. نظرت تيا إلى فارس فوجدته منشغلًا بمراقبة محيطهم، فحوّلت نظرها ناحية مالك قليلًا. إلا أنه كان صامتًا تمامًا، سارحًا بأفكاره بعيدًا، كأنه قد دخل بخياله عالمًا آخر، ناسيًا جسده فوق ذلك الحصان الأبيض. فقاطعه بابتسامة قائلة:

- يبدو أنك تفتقدها كثيرًا!

أجابها بعد تنهيدة طويلة:

- بل أفتقدها بشدة!

- لا أستطيع الاستمرار في ذلك الطريق الطويل في غيابها.

- كانت محاربة الجان تلك، تسكن أعماق روحي، وتعيش في جنبات عقلي. كان الأمر مثاليًا في وجودها.

- لكن يبدو أن للقدر رأيًا آخرا!

سألته بدهشة ظهرت على وجهها هي وأخيها:

- هل كانت لين من الجان؟

أجابها:

- نعم! إنها أعظم محاربات جان مملكة بيناروس في إيستوريا.

- لكن يختلف الجان في إيستوريا كثيرًا عن الموجودين في ألْمَاشيَا!

رد يزيد:

- يبدو أن إيستوريا مكان رائع!

أجابه:

- تُعجبني مرمرة أيضًا. شعرت فيها بالراحة والهدوء. أرغب في العودة إلى هناك بعد انتهاء المهمة.

سَرَح يزيد بخياله قليلًا تاركًا قيادة العربة لشقيقته. تذكر الأحداث الأليمة التي عاشها معها في فيونا. كان يرى ذلك المشهد المأسوي أمام عينيه كل يوم تقريبًا، وأحس أن نيران الانتقام تُلْهِب قلبه بشدة كلما اقترب من ألميريا. وبعد دقائق

من الصمت الطويل نظر إلى مالك قائلًا:

- لم أخبرك عن سبب مغادرتنا لفيونا من قبل.

التفت مالك وفارس إليه بفضول، تحول إلى دهشة شديدة بعدما سمعاه. أدركا أن يزيد وشقيقته قد عاشا أوقاتًا عصيبة في فيونا، وشاهدا رغبتهما الشديدة في الانتقام من الأمير نذير، الذي وصل به الأمر إلى قتل أبناء شعبه من أجل الوصول إلى أهدافه وأطماعه. أدرك مالك أن أقاليم الجان مع الأمير نذير يشكلون عائقًا كبيرًا أمام وصوله إلى سردار هو الآخر، وأن شرهم لن يكون مختلفًا كثيرًا عن الظلام وأتباعه. لكنه فضل الانتظار من جديد لحين مقابلة الأمير بهرام أولًا قبل التفكير بأي خطوات جديدة.

في تلك اللحظات صاح يزيد بابتسامة تجلت معالمها على وجهه قائلًا:

- انظروا إلى ذلك المنحدر هناك، نقترب من مدينة ألميريا!

نظر مالك إلى حيث أشار حتى رأى منحدرًا يهبط إلى الأسفل. وعلى مرمى البصر ظهرت مدينة بعيدة جدًا لم تظهر معالمها بوضوح، وقبلها انتشرت بعض القرى الصغيرة على طول الطريق. قدّر فارس تلك المسافة حتى المدينة بمسيرة نصف يوم آخر. لكن كان هناك أمر مختلف يشغل بال مالك في تلك الأثناء بعد ما قاله يزيد. نظر إليه قائلًا:

- يبدو أن لدينا هدفًا مشتركًا!

نظر إليه يزيد بدهشة، فأوضح له أن الأمير نذير قد يصبح عدوًا مشتركًا فيما بعد. يرغب يزيد في الانتقام منه بشدة،

في حين يسعى مالك إلى الحصول على مساعدة الأمير بهرام، أو بمعنى آخر معاداة الأمير نذير أيضًا. توقَّف الجميع في تلك اللحظات بعد حديث مالك، خصوصًا بعدما طلب من يزيد مساعدتهما حتى انتهاء مهمتهما، وانتظر ردًّا منه. لكن قطع ذلك الصمت الشديد صوت صفير حاد جدًّا، تبعه صوت اصطدام شيء خرج من الأشجار الجانبية ومرق من بينهم حتى استقر في جانب العربة، تلاه صوت فارس يدوي بشدة قائلًا:

- سهام! كمين! احتموا!

لم يكد فارس يُنهي كلماته، حتى انهال عليهم سيل من السهام المجهولة، اندفعت عبر الضباب باتجاههم مثل الشهب. قفزت الخيول في فزع محاولة الهرب، واحتمى الأربعة خلف العربة بعدما حرروا حصانيها في لحظات. كان مالك يخرج رأسه محاولًا رؤية مصدر تلك السهام، لكن كان يتراجع بسرعة عندما تمر بجواره. كسر فارس إحداها بعدما استقرّت بالقرب منه، ثم أعطاها لمالك. تناولها صديقه بسرعة وتأمل فيها للحظات قليلة، ثم صاح قائلًا:

- سهام سوداء! إنها تُشبه تلك التي رأيناها على الطريق سابقًا.

رفع يزيد رأسه لينظر ناحية الأشجار، ثم جلس صارخًا:

- نواجه نفس القتلة إذن!

فكرت تيا قليلًا، ثم سألت مالك:

- هل يمكنك استخدام الماسة؟

- لا يوجد وقت لذلك، انتظروا قليلًا بعد.

وفجأة... توقف كل شيء. لم يكن هناك سوى صوت أنفاسهم المتسارعة، المختلطة بصوت ارتطام حبات المطر المتساقطة أرضًا في تلك الأثناء. نظر مالك إليهم بدهشة، ثم رفع رأسه بحذر محاولًا تبيّن الأمر من جديد، حتى شاهد خلال لحظات ستة ملثمين، بملابس سوداء، وهيئة تشبه تلك التي شاهدها عبر الماسة من قبل، يخرجون بهدوء من بين الأشجار خلال الضباب واحدًا تلو الآخر، ويسحبون سيُوفهم بعدما ألقوا الأقواس أرضًا.

قام الأربعة على الفور بمجرد سماعهم صوت احتكاك سيُوف الملثمين بأغمادها. سحبوا سيُوفهم الحادة معًا، وتقدموا بخبات باتجاه الملثمين الذين تفاجأوا بوجود محاربين فوق عربة خشبية. لكنهم تقدموا للمواجهة في النهاية. صرخ فيهم مالك:

- تريدون قتلنا إذن، مثل هؤلاء الذين قتلتموهم عند فلورا!

نظر الملثمون إلى بعضهم بعضًا باستغراب، حتى رد أحدهم:

- وصلتم إلى نهاية الطريق! سنمزّق أجسادكم كما فعلنا بهم.

اندفع مالك نحو ذلك الملثم شاهرًا سيفه، ومن خلفه اندفع البقية نحو الآخرين. تعالت أصوات السيُوف عاليًا تحت الأمطار، واحتدم القتال كثيرًا. كان مالك وفارس يقاتلان أربعة منهم، بينما تقاتل يزيد وتيا مع الاثنين الآخرين. لكن بعد عدة دقائق تمكن مالك من ضرب أحدهما في وجهه بمقبض سيفه فأُسقط بعيدًا، وانتهز الفرصة لمهاجمة الثاني في نفس اللحظة، فضربه على معصمه حتى سقط سيفه، ثم

وجه إليه ضربة أخرى تفاداها بأعجوبة، إلا أن سيف مالك كان قد ارتد سريعًا حتى شق بطنه ليسقط أمامه صريعًا في الحال. واستمر بعدها في قتال الآخرين بعد عودته.

بينما كان مالك يصارع خصمه، كان فارس قد تخلص من أحد خصميه منذ اللحظات الأولى للمعركة، بعدما سدّد له رمية خاطفة بسهم من قوسه استقر في صدره مباشرة، واستمر في قتال الآخر لدقائق طويلة، كاد الملثم أن يُجهز عليه خلالها أكثر من مرة. لكنه تمكن من صدّ أحد ضرباته القوية أخيرًا، ثم غرز سيفه سريعًا في صدره ليسقط على الفور أمامه.

كان مالك وفارس ينظران بين الحين والآخر نحو يزيد وشقيقته بقلق، لكن كان الاثنان يقاتلان بشراسة، ويتفاديان الضربات بمهارة، على الرغم من قوة خصميهما. وقد تمكن يزيد في النهاية من إسقاط عدوه أمامه، ثم تتبعه بسرعة بعينين يتطاير منهما الغضب من شدة الهجوم، في أثناء محاولة الهرب على ظهره إلى الخلف، إلى أن غرز سيفه بقوة في صدره حتى أزداه قتيلًا، بعدما تطايرت الدماء على وجهه المتعب، وتسارعت أنفاسه بشدة.

وفي زاوية أخرى من المعركة، كان مالك يحاول هزيمة خصمه الأخير، إلا أنه كان بارعًا في استخدام السيف، واستمر بمراوغة مالك حتى أجهده كثيرًا، وأصابَه بجروح بسيطة. تراجع مالك إلى الخلف قليلًا محاولًا التقاط أنفاسه بحذر، وانتظر هجوم خصمه التالي، حتى تمكن من جذبه من معصمه على حين غرّة، ثم لوّاه بقوة حتى صرخ بشدة

محاولًا إمساك السيف في اليد الأخرى، لكن كان مالك قد التقط ذلك السيف قبل أن يسقط أرضًا، ومرر السيفين معًا على عنقه في حركة خاطفة.

حاول الملثّم الأخير طعن تيا، بعدما انشغلت لوَهلة بالنظر إلى الأجساد المنتشرة بينهم، والدماء المختلطة بمياه الأمطار أرضًا، وكاد أن يغرز سيفه في جسدها، لولا وصول فارس بينهم فجأة، محاولًا صدّ الهجوم بسيفه. لكن تمكّن الملثّم في النهاية من جرحه في كتفه الأيسر بعدما انزلقت قدمه في الوحل عندما التفت إلى تيا مرسلًا لها بنظرات طمأنة سريعة، أعقبها صراخ حاول إخفاء بعضه أمامها.

رفع سيفه مجددًا للإجهاز عليه، إلا أن يزيد ومالك كانا قد أتيا سريعًا، وجذباَه بقوة إلى الخلف، ثم ضرباه بأياديهما معًا مرارًا وتكرارًا، حتى أُغشي عليه تمامًا، وساد الصمت مرة أخرى.

بعد أكثر من ساعة رملية كاملة، فتح الملثّم عينيه ببطء شديد، متمتمًا بكلمات غير مفهومة من شدة الألم. إلا أنه لم يتمكن من رؤية أي شيء. أغلقها مرة أخرى وانتظر للحظات، محاولًا التماسك. كانت الدماء قد غطّت رأسه بالكامل، وظهرت معالم الضرب المبرح على وجهه. حاول تحريك يديه، لكن بلا فائدة. كان مقيدًا بحبل التفّ حول جسده إلى جوار جذع إحدى الأشجار. فتح عينيه مرة أخرى حتى تفاجأ بعيون كثيرة أمامه، تحدق فيه بغضب في انتظار استعادته لوعيه.

أدرك الرجل سريعًا أن الواقفين قبالته ثلاثة فقط، بالرغم

من جرحه للرابع في نهاية المعركة. ظنّ لوَهلة أنه قد تمكن من قتله، لكنه فضل التأكد مرة أخيرة، دار برأسه ناحية اليسار باحثًا عنه، إلى أن شاهد يد فارس مرفوعة عاليًا، وتهوي بسرعة نحو وجهه المتورم، حتى اصطدمت به بشدة. صرخ بألم مرة أخرى بعدما خرجت الدماء من فمه مجددًا، ثم قال:

- توقف! لم أعُد أحتمل.

صرخ مالك في وجهه:

- من أنتم؟ لماذا حاولتم قتلنا؟ ولماذا تقتلون الآخرين!

ابتسم الرجل بشدة حتى ظهرت أسنانه الملطخة بالدماء، بصق منها الكثير إلى جانبه ثم أجاب:

- قُطّاع طرق من فيونا، نسطو على العابرين من هنا، ونقتات على ما لديهم.

ضربه يزيد بقوة تلك المرة حتى صرخ بشدة، ثم سأله:

- وما عمل لصوص فيونا هنا؟

قال فارس بنبرات شك ظهرت في صوته، بعدما أمسك بكتفه المجروح الذي ضمّدته تيا قبل قليل:

- هذا الأسلوب في القتال لا يمكن أن يكون لقطّاع الطرق!

أردف مالك بثقة:

- بالطبع. لقد كنا نقاتل أشخاصًا مُدرّبين بعناية. حتى إنهم كادوا أن يهزمونا!

أخرج ماسة أريانا بعد ذلك، أمسك بها بكلتا يديه، نظر إلى

الرجل للحظات، ابتسم فيها الرجل له بسخرية ظهرت على وجهه من الخارج، مخفيًا دهشته مما يفعل بتلك الماسة الزرقاء. لكن سرعان ما أغمد مالك عينيه، ثم فتحهما مجددًا في الفترة التي سبقت قدومهم بساعة رملية واحدة.

كان الطريق هادئًا تمامًا، لم يكن هناك أي أثر للمارّة أو الملثمين. تحرك مالك بهدوء ناحية الأشجار الجانبية حتى بدأت أذناه في الالتقاط بعض الأصوات مع اقترابه شيئًا فشيئًا، إلى أن وصل هناك وشاهد الستة كما هم. اقترب منهم حتى أصبح بجانبهم تمامًا، وتمكّن من سماع بعضًا من حديثهم. كان هؤلاء الستة جواسيس للأمير نذير، أمير إقليم فيونا. تسللوا إلى تلك المنطقة منذ شهر تقريبًا، وبدأوا منذ ذلك الوقت في مهاجمة عربات التجار على هذا الطريق الواصل بين مرمرة وألميريا. حاول مالك معرفة سبب ذلك الهجوم، لكن بلا فائدة. كان حديثهم مختصرًا، فعاد إلى أصدقائه على الفور.

كان الثلاثة يحدّقون إلى مالك بفضول في انتظار معرفة ما شاهده عبر الماسة، لكن كان الرجل أكثر منهم فضولًا. أراد بشدة معرفة نهاية الأمر، على الرغم من جراحه المؤلمة التي تجاهلها ببساطة. فإن المعلومات لدى مالك كانت أقل مما توقع معرفته، وقد أدرك أن سؤال هذا الجاسوس مجددًا قد يجعله ينكر الأمر برمته. فكر مليًا ثم قال:

- أنتم جواسيس الأمير نذير إذن!

اتسعت أعين الرجل بشدة، شعر بالرعب يتسلل إلى قلبه، وتساءل كثيرًا عن ماهية الماسة مرة أخرى. نظر يزيد إلى

مالك متسائلًا بدهشة:

- هل قلت الأمير نذيرا!

- نعم! لقد أرسل هؤلاء الجواسيس من أجل مهاجمة العربات التي تمر من ذلك الطريق.

سأل فارس:

- ولماذا قد يفعل ذلك؟

تظاهر مالك بمعرفته بالأمر قائلًا:

- سمعت كل شيء! لكن أرغب في أن يخبركم هذا الأحمق بنفسه.

ضحك الجاسوس بسخرية مرة أخرى، لكن كانت ملامح مالك جادة، ونظراته ثابتة في انتظار رده. إلا أن يزيد وفارس لم يحتملوا ذلك الانتظار. انهالا عليه ضربًا من جديد وسط صراخه المستمر، حتى رفع يده أخيرًا بعدما اقتربت منه تيا ووضعت سيفها على عنقه، قائلًا:

- حسنًا يكفي.

- لقد أرسلنا الأمير نذير بالفعل. كانت مهمتنا تقتضي مهاجمة عربات التجار على الطريق الواصل بين مرمرة وألميريا.

قاطعه مالك:

- وقد قتلتم آخرين قبل أيام على مقربة من فلورا.

أردف الجاسوس:

- نعم فعلنا! وقد ظننّا أنكم من تجار مرمرة. لم نعرف بأنكم

من المحاربين. أرجوكم اتركوني لأعود إلى فيونا.

سأله مالك:

- لم تخبرنا عن سبب تلك الهجمات حتى الآن؟

- أراد الأمير نذير نشر الفوضى في تلك المناطق. لا أعرف شيئًا غير ذلك.

قالها الجاسوس، فتساءلت تيا:

- وما معنى هذا؟

نظر مالك لها مجيبًا:

- عادة محاولات نشر الفوضى تسبق الحرب! يحاول فاعلها إرباك خصمه، ونشر الخوف بين العامة.

- أعتقد أن الأمير نذير قد أعد العدة لحرب كبرى مع ألميريا.

قال فارس:

- إن كان ذلك صحيحًا، فقد بدأت بوادِر تلك الحرب في الظهور سريعًا، قبل أن نصِل إلى ألميريا حتى!

قاطعهما يزيد:

- علينا تحذير الأمير بهرام!

أومأ مالك برأسه، ثم نظر إلى الجاسوس مرة أخرى بعدما سألت تيا:

- ماذا عن هذا القاتل؟

أجاب يزيد:

- أرى أن نتخلص منه في الحال. هذا هو الجزاء الوحيد

لمثل معدومي الرحمة هؤلاء.

نظر مالك إلى تيا منتظرًا اقتراحها، فقالت بعد لحظات:

- أرى أن نصطحبه معنا إلى قلعة ألميريا، ونسلّمه إلى أميرها ليرى ماذا سيفعل به هناك.

رد فارس:

- سيقتله أيضًا على أي حال!

اعتدل مالك في وقفته بعدما تعلق أنظار الجميع بما سيقوله، فأخذ نفسًا طويلًا ثم قال:

- لن نقتله!

تنهد الجاسوس بفرح حاول إخفاءه بسرعة، بعدما لمح نظرات الغضب في أعين الثلاثة. أردف مالك:

- لا أرغب في سفك دماء جديدة، على الأقل حتى نقابل الأمير بهرام أولًا. لم يكن هذا سبب قدومنا من إيستوريا على أي حال!

فكّ فارس وثاقه على الفور وتركه ليرحل بعيدًا قائلًا:

- كنت أتمنى أن أسيل دماءك هنا.

لكنه اختفى عن أنظارهم بين الأشجار خلال لحظات قليلة مردّدًا:

- ستسيل الدماء في كل الأحوال!

جلس فارس إلى جانب تيا لتتفقّد جراحه مرة أخرى بعدما ذهب مالك ويزيد لإخفاء أجساد الجواسيس، وإحضار الخيول من محيط المكان بعد ذلك. قالت تيا له بنبرات

امتنان:

- أنقذتني من موت محتوم اليوم.

- فعلت ما كان سيفعله أي شخص آخر!

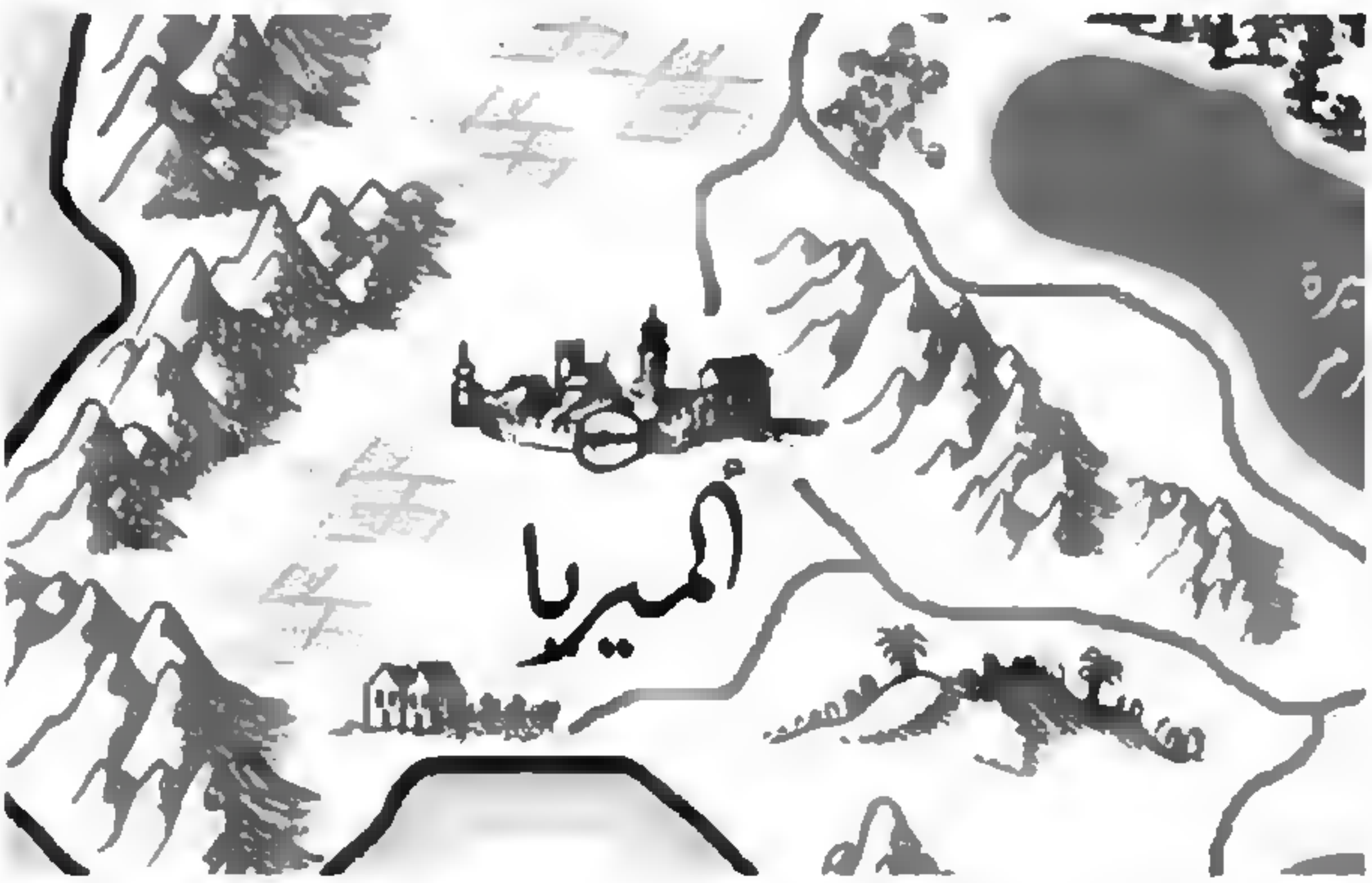

- لم يكن لأي شخص آخر أن يلقي بنفسه أمام الموت كما فعلت!

سَرَح في عينيها للحظات ثم قال:

- يبدو أن الأمر كان يستحق العناء!

ضغطت على جرحه بابتسامة رقيقة، فتأوّه قليلًا، ثم ابتسم سريعًا لها بعدما قالت:

- عليك الحذر جيدًا في المرة القادمة.

كان مالك ويزيد قد عادا بالخيول عند العربة، حيث وضع يزيد لجام العربة على الحصانين مرة أخرى، وأزال مالك السهام السوداء منها بعدما اطمأنّ على صناديق القمح الموضوعة فوقها. تناولوا بعض الطعام في تلك الأثناء، ثم امتطى مالك وفارس حصانيهما ومن بعدهما يزيد وتيا فوق العربة من جديد. التفت يزيد إلى مالك قائلًا:

- طلبت مني المساعدة قبل قليل.

رفع رأسه عاليًا ثم قال:

- أنا معكم!

- لا أود أن يبقى الأمير نذير في مأمن بعد الآن. قتل والدينا قبل ذلك، وكاد أن يقتلنا أيضًا قبل قليل.

رد مالك:

- نحو قلعة ألميريا إذن.

قاطعَه:

- لا. علينا بيع القمح أولًا في أسواق ألميريا، وذلك الأمر سيستمر لبضعة أيام. بعد ذلك يمكننا التوجه إلى القلعة معًا.

تحرك الأربعة من جديد مع اقتراب غروب شمس ذلك اليوم، محاولين الوصول قبل حلول الظلام. مرّوا ببعض القرى الصغيرة خلال طريقهم، وتقدموا دون توقف حتى وصلوا مع بداية الليل عند مشارف مدينة ألميريا عاصمة الإقليم.

منذ اللحظة الأولى، بدت على أطراف تلك المدينة الكبيرة مظاهر الثراء، التي تمثلت في وجود كثير من البساتين

الضخمة على الجانبين، ومظاهر القوة التي لاحظها مالك عند رؤيته لبعض الحصون الحجرية التي كانت تلُوح فوق التلال، كأنها تراقب كل شبر من تلك المدينة. قال يزيد بابتسامة عندما استوقفهم جنود الحدود:

- وصلنا أخيرًا!

12

ناجون جدد

إقليم فيونا، بعد أيام.

في أحد أروقة قلعة فيونا الداخلية، التقطت أذنا الجندي وقع أقدام تقترب من بعيد. اعتدل سريعًا في وقفته بعدما أمسك بمقبض سيفه بإحكام، تسارعت أنفاسه الدافئة مع اقتراب الخطوات شيئًا فشيئًا، عبر الهواء البارد الذي كان يملأ تلك الطرقات الحجرية. إلى أن لمح درعًا فضيًا يلمع مع أضواء المشاعل المعلقة على جانبي الرواق. يلبسه رجل قوي البنية، طويل القامة، يتبعه شخص آخر كظله. فأدرك هوية القادمين على الفور. انحنى في الحال بعدما ابتلع ريقه في صمت، ثم اعتدل قائلًا:

- سيدي الأمير نذير.

التفت إلى الثاني مضيفًا:

- سيدي الوزير.

كان الأمير نذير يلبس رداءً كبيرًا من الفرو الأسود بأكمام طويلة، ويحمل سيفين وُضعا داخل أغمدهما على جانبيه. شعره قصير جدًا وأذناه كبيرتان قليلًا، ولم تخلو ملامح وجهه من الغلظة والتعالي. نظر إلى هذا الجندي الموكل بحراسة تلك الأروقة الداخلية الموصلة إلى سجن القلعة، قائلًا بصوته الجهوري:

- أين هم؟

هرول الجندي نحو أحد المشاعل، أمسك به بخفة، وتحرك أمامهما لبضع خطوات قليلة بين زنزانات السجن الحجرية، وأبوابها الكبيرة المصنوعة على هيئة شبكة من القضبان الحديدية. حتى توقف أمام إحداها مشيرًا بيده إلى السجينين خلفها عند قدومهما إلى جوار الباب، قائلًا:

- أمسكنا بهذين الاثنين عند الشاطئ قبل عشرة أيام.

- فتاة من الجان، ورجل من الأقزام.

تحرك نحو باب الزنزانة المجاورة مشيرًا إلى الموجود خلفه، مضيفًا:

- وأمسكنا بهذا الرجل في وقت لاحق.

سأل الأمير نذير:

- أم من البشر هو؟

أجابه الجندي بعدما أومأ برأسه:

- نعم يا سيدي.

عاد الأمير عند باب الزنزانة الأولى سائلًا السجينين بغلظة:

- من أنتما؟ ومن أي إقليم أتيتما؟

رد القزم بحذر:

- مجرد ناجين من عاصفة مدمرة بعد رحلة طويلة، وقد اختار القدر تلك الأرض المباركة لتكون طوق نجاة لنا.

- أنا فهد، وهذه صديقتي لين. أتينا من أرض بعيدة تُسمى إيستوريا.

ضحك الأمير بصوت عالٍ تردّد صداه عبر أروقة السجن، ثم

قال ساخرًا:

- إذن، لقد أصبح الأقزام يجتمعون مع الجان في مغامرات رائعة!

فكرت لين قليلًا قبل إجابته، وسألت نفسها بقلق:

- كيف نخرج من هذا المأزق؟

- هل أخبره بأمر الظلام والمهمة؟

- قد لا يصدقنا.

- ما العمل؟

تساءلت كثيرًا خلال لحظات قليلة، ثم ردت أخيرًا بعد حيرة:

- حسنًا سأطلعك على كل شيء.

- أتينا بصحبة المحارب فهد على متن سفينة من إيستوريا.

ظهرت الدموع في عينيها بعدما أردفت:

- فقدنا كل أحبائنا هناك في بحر الشمال!

سأل بعدها لاحظ ثباتهما:

- وأين توجد إيستوريا تلك؟

رد فهد بحذر:

- أبعد ما يكون عن هنا.

سأله الوزير تلك المرة بجدية:

- ولماذا قد يبحر محاربان من أجناس مختلفة عبر بحر الشمال، وسط عواصف قاتلة؟

أجابه:

- أتينا من أجل مطاردة سردار وأتباع الظلام!

- أرسلنا ملوك إيستوريا لإيجاده، قبل أن يسيطر على ألْمَاشيَا ويعود بشره إلينا مجددًا.

قال الأمير نذير وهو ينظر إلى عيونهما:

- أعتقد أنكما تستهزئان بنا!

- حتى الأطفال الصغار لن يصدقوا تلك الحكاية الغريبة.

أكمل مشيرًا لهما بإصبعه:

- أنتما الاثنان هاجمتما سواحل فيونا معًا. ربما تكونان جاسوسين لألميريا أو نارين!

قاطعهما وصول أحد الحراس بصحبة أحدهم. توقفا أمام الأمير بخشوع، ثم قال الحارس:

- سيدى الأمير، لقد عاد أحد جواسيسنا بحالة لا يُرثى لها.

تحرك الحارس جانبًا حتى ظهر الجاسوس أمام الجميع بوضوح. كان وجهه متورمًا بالكامل، ظهرت عليه كدمات مرعبة وآثار دماء بدأت من أعلى رأسه. وقف أمام الأمير بصعوبة محاولًا الثبات، بالرغم من ترنحه أمامه بشكل واضح. أمسك الأمير ذراعيه بقوة صارخًا:

- من فعل بك هذا؟

قص الجاسوس عليه كل ما حدث منذ بداية مهمتهم بين ألميريا ومَزمَرة، وكيف قتلوا خلال شهر كامل كثيرًا من التجار والعابرين لتلك المنطقة الحدودية، ونشروا فيها الخوف

والفزع بين العامة. حتى التقوا بأربعة محاربين كان بحوزتهم عربة كبيرة مثل بقية التجار، دافعوا بشراسة عن أنفسهم وتمكنوا من قتل بقية الجواسيس باستثنائه.

كان الغضب يتطاير من عينَي الأمير نذير في أثناء سماعه لحديث الرجل. تمنى بشدة أن يمسك بهؤلاء الأربعة ليحرقهم بنيران تِنّينه الكبير، أو يفصل رؤوسهم عن أجسادها بسيفيه الفولاذيين. استمر في الضغط على ذراعي الجاسوس بقوة رغم صراخه من شدة الألم، خصوصًا بعد تمكنه من الوصول إلى فيونا خلال خمسة أيام كاملة. ظنّ فيها المحاربون الأربعة أنه لن يستطيع الوصول، لكنه تمكن على الطريق من سرقة أحد الخيول من صاحبه بعدما قتله بدم بارد وواصل المسير نحو سيده ليطلعَه على الأمر. سأل الأمير نذير:

- هل تعرفت على هؤلاء المحاربين؟ إلى أي إقليم ينتمون؟

أجابه بعدما رفع الأمير يديه عنه، بعدما تمالك نفسه قليلًا:

- ليسوا من تلك الأرض يا سيدي!

- وما معنى هذا؟

- سمعت اثنين منهم يخبران بأنهما من مكان يُدعى «إيستوريا».

اتسعت أعين نذير على الفور، نظر إلى وزيره الذي بادله نفس النظرات، ثم التفتا معًا إلى فهد ولين. كان الاثنان لا يزالان في مكانهما خلف القضبان يستمعان إلى ذلك الحديث الدائر. لم تختلف نظراتهما كثيرًا عن الأمير ووزيره. نظرا إلى بعضهما البعض في ذهول، خالطه فرح شديد بوجود ناجيين

غيرهما حاولا إخفاءه بشدة في تلك اللحظات الفارقة. تظاهرا بجهلهما بالأمر، لكن لم يمهلهما الأمير كثيرًا. صرخ فيهما مرة أخرى:

- كنتم تكذبان إذن؟

- لم نكذب أيها الأمير. أتينا من إيستوريا كما قلنا، لكن بمفردنا!

التفت نذير إلى الجاسوس مرة أخرى محاولًا معرفة المزيد. فأخبره بأن قائد هؤلاء المحاربين كان يعرف بأمر المهمة. وقبل أن يعنّفه الأمير مجددًا ويضغط على عظامه المتعبة، أخبره أن هذا المحارب قد استخدم ماسة غريبة زرقاء اللون، عرف عبرها أمورًا لم يكن أحد على علم بها غيرهم. تلك الماسة تمتلك قدرات غامضة لم يستطع معرفتها خلال استجوابهم له. وقد كان هؤلاء المحاربون في طريقهم إلى أمير ألميريا من أجل أمر هام.

نظرت لين إلى فهد بصمت للحظات، شعرا فيها بأن القدر قد أعطاهم أكثر مما تمنياه بكثير خلال أيام سجنهما السابقة. اكتفيا بإمساك يدَيهما معًا في سعادة، محاولين السيطرة على مشاعرهما بعد معرفتهما بنجاة مالك. وقد وصل ذلك الفرح ذروته بعدما أُخبر الجاسوس الأمير بأنه تمكن من إصابة محارب منهم يُدعى فارس، لكنه كان في حالة جيدة بعدما استعاد وعيه.

كان الغضب قد وصل ذروته هو الآخر عند الأمير نذير. أراد معرفة المزيد عن الأمر، إلا أن الجاسوس كان قد انتهى من كل ما لديه، ووقف منتظرًا أوامره لينال الرعاية اللازمة بعد

كل ما لاقاه خلال الأيام السابقة. لكنه تفاجأ به يبتعد إلى الخلف قليلًا بحذر، وقبل أن ينطق بكلمة أخرى، كان نذير قد سحب سيفيه معًا وضرب بهما عنقه، بعدما سمع كلمات أميره الأخيرة:

- لا مكان للضعفاء في صفوف فيونا!

لم تتماسك لين نفسها، صرخت فيه بقوة:

- ما الذي فعلته!

- كيف تقتل جنودك بهذه الوحشية!

جذبها فهد إلى الخلف قليلًا محاولًا تهدئتها، إلا أن الأمير رد عليها سريعًا بعدما مسح سيفيه في رداء وزيره:

- سيأتي دوركما لاحقًا أيضًا!

- بعد أن أعرف المزيد.

كان الاثنان ينظران إليه في ذهول. أدركا بأنهما أمام أمير لا يعرف إلى الرحمة طريقًا، ولا إلى الإنسانية سبيلًا. قاتل متعجرف يمارس الظلم والطغيان بأبشع صوره، ولا يعير اهتمامًا بأي شيء في سبيل ذلك.

كانت نظرات لين وفهد المتبادلة تقول نفس الرسالة. أدركا بأن عليهما الخروج من ذلك السجن في أسرع وقت، والتوجه نحو أمير ألميريا لإيجاد مالك وفارس. سأل الأمير نذير مرة أخرى بعدما أمسك بقضبان الباب الحديدية، ونظر إليهما بثبات:

- أريد أن أعرف كل شيء عن تلك الماسة؟

ابتسم فهد قائلًا:

- أي ماسة! لا نعرف شيئًا عنها.

- ربما اختلط الأمر على هذا الجاسوس.

ثم ابتسم بسخرية قائلًا:

- قبل أن تقتله بالطبع!

قطع حديثهما صوت متحشرج خرج من الزنزانة المجاورة:

- إنهما يكذبان عليك سيدي الأمير.

التفت الجميع ناحية الصوت بدهشة، لكن لم يستطع فهد ولين رؤية صاحبه من خلف القضبان. ومع استمرار صمته توجه الأمير ووزيره على الفور عنده، ونظرا إليه بترقب شديد حتى استجمع شتات نفسه قائلًا:

- كنت أحد البحارة القادمين على متن تلك السفينة.

- أعرف عن هؤلاء المحاربين ما لا يعرفه أحد آخر.

- وأعرف عن تلك الماسة أشياء ستُحب سماعها.

- أشياء ستجعلك أقوى سيدي الأميرا

كان حديث السجين بمنزلة الأمل الذي أراد نذير الوصول إليه بشدة. وكان أمر الماسة قد بدأ في شغل تفكيره منذ أن سمع بها من جاسوسه. أيقن بعد حديث ذلك السجين أنها ستعطيه القوة ليُسيطر على أقاليم البشر الجنوبية، ويتحرر قليلًا من سيطرة أقاليم الجان الشمالية. نظر إلى البحار بابتسامة تجلت على ملامحه بوضوح، ثم إلى وزيره الذي لم تختلف تعبيرات وجهه كثيرًا عنه، طالبًا منه تطبيب جراح

السجين، واقتياده بعدها إلى غرفته بعد أن يتناول ما يشاء من الطعام والشراب.

أشار الوزير إلى الحارس فانطلق مسرعًا نحو ذلك الباب، ففتحه مستخدمًا مفتاحًا كبيرًا كان بحوزته، خلع رداءه الفرو وأعطاه للسجين، فارتداه مسرعًا وغطى رأسه بقبعته الكبيرة، ثم خرج خلف الحارس والوزير على الفور إلى خارج السجن. ومن خلفهم خرج الأمير نذير بعدما أخبر لين وفهد بأن وجودهما قد أصبح بلا فائدة، وأن عليهما الاستعداد لعقوبة الحرق بنيران تنينه سيفار في ساحة القلعة صباح الغد.

ارتمى فهد ولين على الأرض في يأس. أدركا بأن الليلة قد تكون الأخيرة لهما، وفي نفس الوقت هي فرصتهما الأخيرة للهرب. أيقنا بأن عليهما تحذير أمير أميريا من أطماع ذلك الأمير المتعجرف، كما أنه عليهما تحذير مالك وفارس من أطماعه في ماسة أريانا، خصوصًا بعد مساعدة ذلك البحار الخائن. لكن بالرغم من كل تلك المشاعر الثقيلة، كانت نجاة مالك وفارس قد أعطتهما قليلًا من الأمل. فاستمرا بالتفكير في طريقة مناسبة للهرب من هذا السجن المظلم.

***

عند منتصف الليل، سمع الاثنان صوت أقدام تقترب سريعًا. وقفَا خلف القضبان منتظرين وصول صاحبها، حتى شاهدا أحد جنود فيونا أمام زنزانتهما. كان الجندي قد حضر من أجل إخراج جسد الجاسوس من هناك ورميه خارج القلعة، بعدما بقي في مكانه حتى منتصف الليل. رمق الجسد ببضع نظرات سريعة، أمسك بذراعيه بعد ذلك، وبدأ في سحبه

لخطوات قليلة توقّف بعدها مجددًا. نظر إلى السجينين في صمت لبعض الوقت، حتى لاحظت لين انزعاجًا واضحًا ونظرات عدم ارتياح ظاهرة على وجهه بوضوح. غمزت فهد على الفور، فهمس له قائلًا:

- يبدو أنك لست راضيًا عن كل هذا!

همست لين:

- كان جاسوسًا مخلصًا للأمير، ومع ذلك قُتل بهذه الوحشية! تخيّل ماذا سيفعل بك إذا عرف بكرهك له؟

رد الجندي سريعًا:

- هذا الحديث لن يجلب لي سوى الموت أيضًا.

همس فهد مجددًا:

- أو يجلب لك الانتقام!

أضافت لين:

- فقدت صديقًا عزيزًا عليك أيضًا، أليس كذلك؟

- بل فقدت شقيقي! كان جنديًا مخلصًا تابعًا لفيونا، قالها الجندي.

همس له فهد:

- لن يعرف أحد أنك ساعدتنا. إذا خرجنا من هنا قد يُهزم الأمير نذير لاحقًا. عندها فقط ستنال ثأرك الذي تنتظره!

لم يرد عليهما سريعًا تلك المرة، تراجع إلى الخلف بحذر، صمت لبعض الوقت، ثم قال:

- أنا مجرد جندي، لا أستطيع فعل شيء!

- لكن، مفاتيح السجن بحوزتك. يمكنك ترك الباب مفتوحًا لنخرج لاحقًا. خطأ صغير لن يلاحظه أحد.

فكر الجندي قليلًا، وبدأ في الخروج والعودة مرات عديدة، تنهد بعدها بصوت عالٍ، ثم أومأ برأسه بالإيجاب. تحرّك نحوهما، أخرج مفتاحًا كبيرًا من حلقة دائرية ضمت الكثير من المفاتيح المشابهة. فتح الباب بخفة حتى سمعوا صوت فتح القفل بوضوح. كان ذلك الصوت أعذب ما سمعه الاثنان على مدار الأيام الماضية. ابتسما لبعضهما خفية وحاولا الخروج، لكنه أشار لهما بالبقاء لبعض الوقت حتى عودته. ترك الباب مواربًا، ثم سحب جسد الجاسوس بعد ذلك إلى الخارج، بعدما رسمت دماؤه خطًا أحمر اللون عبر طرقات السجن.

بعد دقائق من الانتظار، عاد الجندي مرة أخرى، فتح باب الزنزانة ودخل عند فهد ولين حاملًا رداءين من الصوف أعطاهما لهما بعدما طلب منهما ارتدائه وتغطية رأسيهما بقبعته الكبيرة، ثم همس لهما بصرامة:

- أمامكما خمس دقائق حتى يأتي حارس النوبة التالية!

خرج معهما إلى رواق السجن مشيرًا بيده نحو الأرض قائلًا:

- ستقودكما تلك الدماء عبر الممر الخلفي المؤدي إلى إسطبل السجن.

قاطعه فهد سائلًا:

- وكيف سنخرج من هناك؟

أجابه:

- تركت باب السجن مواربًا أيضًا، سيتعين عليكما غلقه عند

مغادرتكما. لا أريد أي متاعب.

- ماذا عن حراس الإسطبل؟

سألت لين، فأوضح لهما أن هناك حارسًا واحدًا فقط في تلك الأثناء يجب عليهما التعامل معه لكن دون قتل. ربّت فهد على كتفه قائلًا:

- لست مجرد جندي عادي يا صديقي.

- أنت فقط في المكان الخطأ!

ابتسم الجندي للمرة الأولى لهما حتى ظهرت أسنانه، ولمعت بينها سنّة ذهبية انعكس عليها ضوء المشعل القريب، ثم غادر سريعًا. وخلال لحظات كان فهد ولين قد خرجا بحذر بعدما أخفيا ذلك الرداء جسد كل منهما بالكامل. حتى قادتهما دماء ذلك الجاسوس عند إسطبل السجن في الخارج.

تسلل الاثنان بهدوء إلى هناك، ثم توقفا قليلًا لمراقبة حارس الإسطبل بعدما لمحاه واقفًا عند الخيول. أدركا أنهما عليهما المرور من منتصف المكان حتى يصلا عنده، لكن كان الأمر خطيرًا مع اكتمال قمر تلك الليلة، وانكشاف تلك البقعة بوضوح. إلا أنهما تفرقا وتقدما بثبات خوفًا من ضياع فرصتهما الأخيرة. وبمجرد أن قطع كل منهما ثلثي المسافة المطلوبة للوصول، شعر الحارس بحركة مريبة. نظر خلفه محاولًا تبين هوية مصدرها، حتى أدرك حقيقة الأمر.

تبادل نظرات سريعة مع لين، بعدما تجمدت في مكانها عندما شاهده. ثم أخرج سيفه وحاول الصراخ، لكنه سقط أمامهما مغشيًا عليه، بعدما ضربه أحدهما بمقبض سيفه على

مؤخرة رأسه، ثم تقدّم نحوهما بعد تجمعهما حتى تبين لهما هويته، وأدركا أنه هو نفسه من ساعدهما قبل قليل. وقبل أن يشكراه مرة ثانية دوى صوته عاليًا مرات عديدة:

- توقفوا أيها السجناء!

أشار إليهما بسرعة هامسًا:

- اركضا الآن نحو الجنوب، لن أستطيع حمايتكما بعد ذلك.

قفز فهد ولين فوق اثنين من الخيول، نظرا إلى الجندي بنظرات امتنان، اختلطت ببعض الاستغراب من مساعدته لهما. لكنهما أيقنا بأنه أراد الانتقام من سيده بشدة، وقد استغلا تلك الفرصة جيدًا. انطلقا مسرعين عبر باب الإسطبل حتى أصبحا خارج القلعة أخيرًا.

لم تمض سوى لحظات بعد اختفائهما عن الأنظار خلال شوارع مدينة فيونا النائمة، حتى دوى صوت أجراس القلعة عاليًا، وارتفع صوت الحراس والجنود في أثناء ركضهم لتفقد الإسطبل الخلفي لذلك السجن. كان الأمير نذير قد استيقظ على وقع تلك الجلبة، وأتى مسرعًا مزمجرًا بصوت غاضب:

- كيف سمحتم لهما بالهرب أيها الحمقى!

أسرع الحارس المصاب نحوه، بعدما تمالك نفسه ناسيًا تلك الضربة القوية التي أصابت رأسه، ثم انحنى قائلًا:

- لقد استوليا على حصانين. نعتقد أنهما قد توجها نحو الجنوب يا سيدي!

لم يتردد نذير لحظة واحدة. ركض إلى الخارج وهو يصرخ في جنوده:

- اتبعوني على خيولكم، سأطير بسيفارا!

تناول الجنود مشاعل صغيرة، وأسرعوا نحو الخيول التي كانت تصهل بغضب من الضجيج المحيط، ثم انطلقوا بها مسرعين وسط القلق الذي كان يأكل قلوبهم من الداخل في أثناء استماعهم إلى صوت الأمير نذير عند ابتعاده قائلًا:

- سنحرق فيونا بأكملها حتى نمسك بهما إذا لزم الأمرا!

في تلك الأثناء، كان فهد ولين قد قطعا مسافة جيدة عبر طرقات المدينة، وخرجا بعدها إلى حقول شاسعة امتدت لمسافات بعيدة، وفي نهايتها شاهدا غابات كبيرة، ظهرت ظلال أشجارها العالية بوضوح مع ضوء قمر تلك الليلة. لكن كان الطريق المؤدي إليها وعرًا للغاية، ولم تكن سرعة حصانيهما كافية للوصول بسرعة. لكنهما استمرا بالضغط عليهما بدون توقف، بعدما سماعا أصواتًا تقترب من بعيد خلال الظلام.

رفعت لين رأسها إلى السماء لتتبين الأمر، ثم نظرت إلى الخلف قائلة بصوت مرتجف:

- أشعر أن الأمر لم ينته بعدا!

أشار فهد إلى الأمام بعد دقائق مطمئنًا لها عند اقتراب الغابات القريبة، قائلًا بفرح:

- كدنا نصل.

لكن لم تمض سوى لحظات، حتى بدأ صوت هدير عظيم يهز الأرجاء. صوت كانا يعرفانه جيدًا بعدما سما مثيله قبل غرق سفينتهما في بحر الشمال. دوى صوت زئير مرتفع فوق رأسيهما سد آذانهما سريعًا. نظرًا فوقهما في أثناء انطلاق حصانيهما، فشاهدا وحشًا ضخمًا يخرج من قلب السماء المظلمة كأنه يخرج من أعماق الجحيم. أدركا أنه تنين فيونا الأسطوري سيفار، الذي أراد الأمير نذير حرقهما بنيرانه في الصباح. كانت هيئته مشابهة للتنين الأحمر الذي هاجمهما في السابق، لكن كان سيفار أسود اللون بحجم أصغر قليلًا، وأجنحة أطول من الآخر.

كان سيفار يرفرف بأجنحته العملاقة فوقهما، بينما كان الأمير نذير يمتطيه بمهارة مرتديًا درعه الفضي، المتلألئ تحت أضواء القمر. وبالرغم من سرعة التنين والخيول، إلا أن الأمير وسجيناه استمرا في النظر إلى بعضهما البعض في لحظة ما، أدرك فيها فهد ولين أنهما عليهما التصرف سريعًا قبل أن يقدم بتنينه المرعب على حرقهما. لكن كان سيفار قد فتح فمه الكبير، ثم نفث نيرانًا هائلة منه، فتفرقا في ذعر حتى تمكنا من تفادي لهيبه الحارق، بعدما انفجر في مكان سقوطه مُحدثًا انفجارًا عظيمًا.

صاح فهد وهو يركل حصانه بعنف:

- لندخل إلى تلك الغابات قبل أن يعود مجددًا!

بمجرد أن مرّ الاثنان بين أشجار الغابة، لم يجد نذير بدًا من جعل سيفار ينفث نيرانه بشكل عشوائي في تلك البقعة، أملًا

في إصابتهما، أو تعطيل تقدمهما حتى يمسك بهما الجنود. لكنهما كانا قد سبقا الجميع بمسافة كبيرة، ووصلا بالقرب من جدول صغير يتدفق من بين الصخور، وتغطيه الأشجار الكثيفة بشكل كامل.

التقط الاثنان أنفاسهما قليلًا هناك، ثم قالت لين:

- يمكننا العبور عبر ذلك النهر الصغير، وإخفاء آثارنا في المياه.

أومأ فهد برأسه، ثم تقدّم معها نحوه حتى وصلا إلى ضفته. قفزا داخل المياه الباردة التي غطت فهد حتى رأسه، وشرعا في دفع حصانيهما للعبور نحو الضفة الأخرى حتى وصلا بأمان.

أكملا طريقهما بعدها لساعة رمليّة أخرى، ثم توقّفا ليسترخيا قليلًا بعدما ربطا حصانيهما في أحد الأشجار، وأشعلا نارًا صغيرة من بعض أخشاب الأشجار المحيطة من أجل تجفيف ملابسهما، والحصول على بعض الدفء الذي فقداه خلال تلك المطاردة المخيفة.

بعد ساعة رمليّة أخرى، امتطيا حصانيهما وتحركا نحو ألميريا مجددًا. قال فهد وهو يربت على حصانه:

- لقد نجونا بأعجوبة!

ردت:

- إذا تمكنا من عبور هذه الغابة، ربما نصل إلى طريق ما يؤدي إلى ألميريا!

نظر إلى الأفق البعيد، حيث كانت السماء قد بدأت بالتلوّن

بلون الشفق البديع، وأدرك أن الفجر قد بات قريبًا. تنفس بعمق ثم قال مجددًا:

- فلنذهب إذن.

- حان وقت العثور على أصدقائنا!

انطلقا بسرعة نحو الجنوب، تاركين وراءهما غابة مشتعلّة في بعض أجزاءها، وأميرًا غاضبًا لن يهدأ بعد هروبهما.

***

13
إقليم ألميريا

بعد خمسة أيام أخرى.

- أعطني إيّاها!

قالها فارس وهو يلتقط تفاحة حمراء اللون من يد أحد الأطفال، بعدما اصطدم الصغير بحصانه فجأة في أثناء محاولته الهرب بعد سرقتها من أحد التجار المنتشرين في أسواق مدينة ألميريا. أتَى التاجر سريعًا محاولًا إمساك اللص الصغير بعدما أومأ برأسه لفارس بامتنان. لكن قبل أن ينتشله من بين يديه، كان يزيد قد أخرج من جيبه عملة زجاجية خضراء اللون أعطاها له طالبًا منه مسامحته وإعطاءه المزيد، فالتقطها التاجر سريعًا وانسحب معه بهدوء.

ابتسم الطفل بسعادة بعدما ناوله فارس تلك التفاحة، واستمر بالتلويح لهم حتى غابوا عن أنظاره وسط أسواق ألميريا التي كانت تعج بأعداد هائلة من البشر، تجمعوا حول التجار من كل مكان، وتعلّت أصواتهم من كل اتجاه. قال مالك بابتسامة هادئة:

- أسواق ألميريا تشبه أسواق مدينة ميريت كثيرًا.

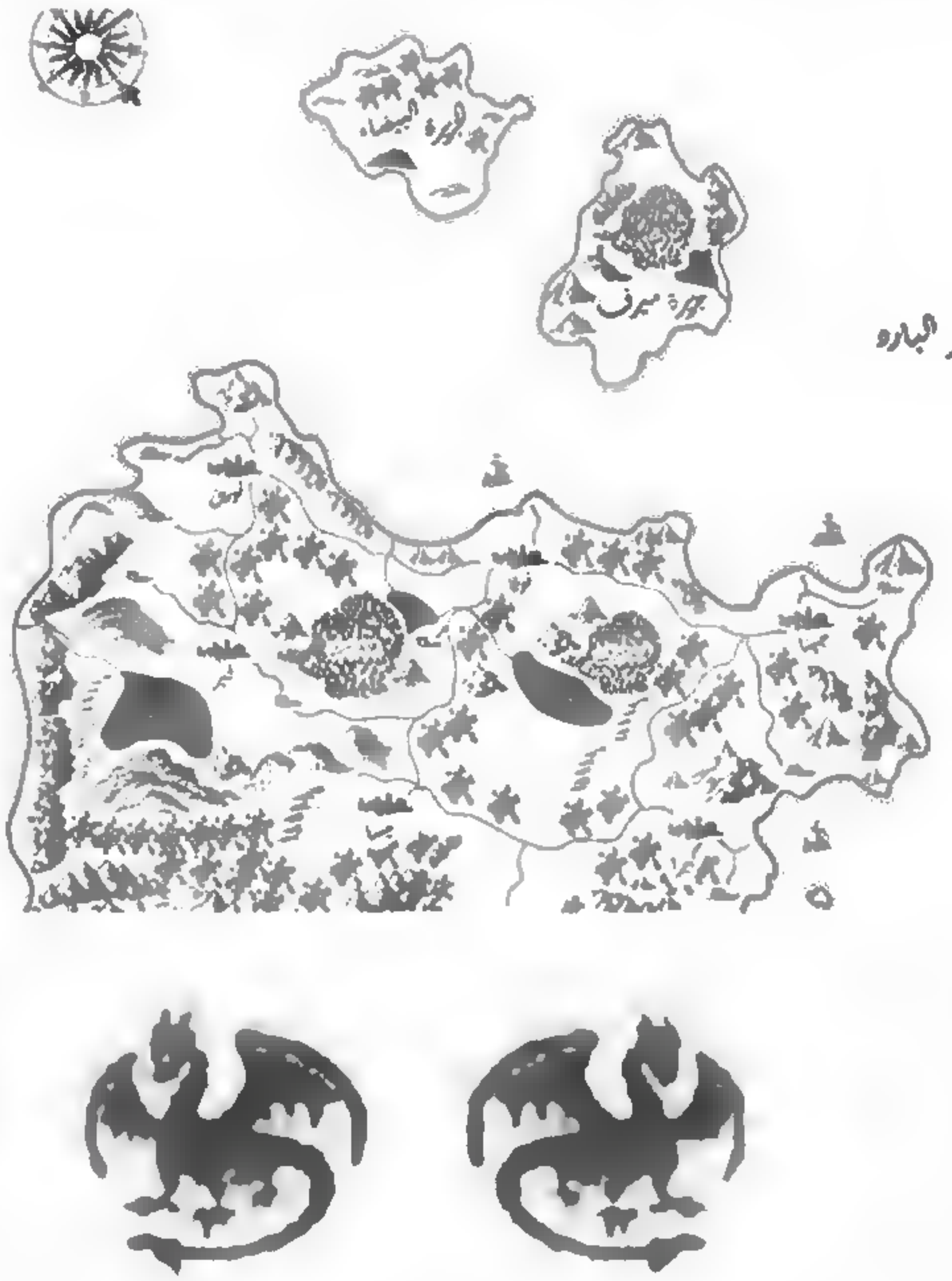

ابتسم يزيد له قائلًا:

- لم تر شيئًا منها بعد!

- تلك المدينة كبيرة جدًا، يقصدها الجميع من كل حدب وصوب.

تساءل مالك بفضول:

- لماذا ينتشر بها اللصوص إذن مع كل تلك التجارة والنشاط؟

أجابته تيا:

- بسبب تلك الحرب الدائرة بين الإقليمين!

- كانت ألميريا تعتمد بشكل أساسي على حقول فيونا الكثيرة، لكنها تعتمد الآن على مرمرة ونارين فقط، إلى جانب بعض الحقول القليلة في جنوبها.

قال مالك بعد تنهيدة سمعها الثلاثة:

- قضينا هنا عشرة أيام حتى الآن، وما زلنا لم نر شيئًا منها بعد!

- وكل ذلك بسبب غياب الأمير عنها منذ وصولنا. أتمنى أن نجده اليوم في قلعته.

ابتسم من جديد ليزيد مضيفًا:

- لكن يسعدني أنكما قد تمكنتما من بيع محصولكما أخيرًا بعد تلك الرحلة الطويلة، وقد كان بيعًا مربحًا أيضًا.

أجابته تيا:

- حصلنا على ألف عملة حمراء، وهذا جيد مقارنة بالعام الماضي.

كان فارس معجبًا بتلك العملات الزجاجية الغريبة. أراد معرفة ماهيتها منذ البداية، لكن لم تسنح له فرصة الحديث عنها خلال الأيام الماضية. سأل تيا تلك المرة بعد ما قالته، فأوضحت له ولمالك الأمر.

يتعامل أهل ألميسيا بثلاث فئات من العملات الزجاجية مكعّبة الشكل. كل فئة لها لون يميّزها عن الأخرى. العملة الخضراء هي الفئة الأقل بين الثلاث والأكثر انتشارًا. يمكن بواحدة منها الحصول على وجبة طعام لذيذة، أو كمية قليلة

من الفواكه وما شابهها. تليها العملة الحمراء التي تساوي في قيمتها ألف عملة خضراء، حيث يمكن ببضع عملات منها استئجار غرفة في نزل صغير مثل هاتين الغرفتين اللتين استأجروها في نزل ألميريا. وإذا أُضيف المزيد من العملات الحمراء، يمكن عن طريقها شراء حصان قوي، أو حتى سلاح حاد. أما العملة الزرقاء اللون، فالواحدة منها تساوي ألف عملة حمراء أيضًا.

- يبدو أن تلك العملة الزرقاء تساوي الكثيرا

قالها مالك بعدما رفع حاجبيه بإعجاب من طبيعة عملات ألميسيا. فأوضح له يزيد أن العملات الزرقاء متواجدة لدى الأغنياء بشكل أكبر. فبضع عملات منها يمكن شراء منازل أنيقة، أو مزارع وبساتين ضخمة بمساحات شاسعة. قاطعتهما تيا قائلة:

- وصلنا إلى قلعة ألميريا!

توقف الأربعة بالقرب من باب القلعة. ترجلوا من فوق خيولهم معًا بعدما سمعوا زئير تنين مهيب خلف أسوارها العالية التي حجبت الرؤية عما يوجد خلفها باستثناء القلعة، وأيقنوا أن الأمير بهرام قد عاد أخيرًا. ثم ربَطوا خيولهم إلى جانب بعضهم البعض في مكان قريب. نظر يزيد وتيا إلى مالك وفارس متسائلين عن جاهزيتهما، فطمأنهما مالك بأنهما على أتم الاستعداد، بعدما طلب منهما تمني التوفيق لهما، وانتظار خروجهما من القلعة.

تحرك الاثنان على أقدامهما نحو باب القلعة الكبير، الذي ظهرت من خلفه قبابه الحجرية التي رفرفت فوق قمته رايات

إقليم ألميريا الحمراء مثلثة الشكل، التي تصور نسرًا أبيض اللون يمثل تلك النسور التي تعيش في بعض بقاع ألميريا الوعرة. نظر الاثنان إلى حراس ذلك الباب بعدما تجمع اثنان منهم أمامهما. وقبل أن ينطق أحدهما بكلمة، قال مالك بثبات:

- أرغب في مقابلة الأمير بهرام لأمر هام يخص أمن الإقليم.

لم يرد الحارس سريعًا، بدأ بالتحديق إلى هيئتهما للحظات أدرك فيها بأنهما من المحاربين، ثم رد:

- يبدو أنكما غريبان عن ألميريا!

تغيّرت ملامح وجهه قليلا، بالتزامن مع إمساكه لمقبض سيفه، ثم سأل بغلظة:

- هل من فيونا؟

ابتسم مالك بهدوء مجيبًا:

- بل من مكان بعيد لم تسمع به من قبل! لن أتحدث سوى أمام الأمير بهرام.

فكر الحارس للحظات، ثم توجه عند آخر كان واقفًا عند الباب، تمتم له ببضع كلمات لم يستطع مالك وفارس سماعها، لكنهما شاهدا ذلك الحارس يهرول نحو الداخل، فأدركا بأنه قد توجه لسؤال الأمير وانتظرا عودته لبعض الوقت، إلى أن رجع مشيرًا لهما بأن يتبعاه. فتسارعت أنفاسهما معًا في تلك اللحظات، على الرغم من ثباتهما أمام الحراس. كانا مدركين بأن مستقبل كل ما قاتلا من أجله في إيستوريا وما عبرا في سبيله بحر الشمال المهيب، يتوقف على ما سيحدث خلف تلك الأسوار.

انطلقا خلفه مسرعين عبر باب القلعة، ومن خلفه عبر طرقات الحديقة الكبيرة التي زينها مزيج بدِيع من أشجار كبيرة، اكتست أوراقها باللونين الأخضر والأصفر، حتى دخلوا الأروقة الداخلية للقَلعة التي امتلأت بالكثير من الغرف على الجانبين، إلى أن وصلوا في النهاية أمام باب كبير ذهبي اللون نقش عليه نسر أبيض في منتصفه تمامًا، وعلى جانبيه وقف حارسان وضعا قبضتيهما على سيفيهما بحذر، فاستعدا لمقابلة الأمير.

بعد بضع دقائق سلما خلالهما سيفيهما وقوس فارس، انفتح الباب الذهبي أمام الاثنين ببُطء. رمق فارس صديقه بنظرات جادة امتلأت بالترقب والقلق، لكن مالك قد رتَّب أفكاره سريعًا قبل ذلك، فربت على كتفه مطمئنًا وانطلق أمامه إلى الداخل.

كانت القاعة واسعة، أنارتها مشاعل ضخمة عُلّقت على الجدران، مع كثير من ضوء الشمس المار عبر نافذة كبيرة توسطت الجدار الأيمن. وفي نهاية القاعة جلس الأمير بهرام على عرشه المرتفع المغطى بفِراء سميك أبيض اللون، ووقف على جانبيه حارسان بدروع فولاذية ثقيلة ورماح طويلة أمسكا بها بثبات. بدا الأمير لهما كرجل في منتصف العمر، كثيف اللحية، عريض الكتفين، ملامحه صارمة، ونظرته حادة، يرتدي درعًا خفيفًا ويضع بجانبه سيفًا عريضًا وُضع داخل غمد مزركش أحمر اللون.

انحنى أمامه فارس بإجلال بينما تقدّم مالك لِبضع خطوات أخرى، ثم انحنى قائلًا:

- سيّدي الأمير بهرام.

- نتمنى أن تُعيرنا بضع دقائق قليلة من وقتك، بعدها يمكنك أن تطردنا أو تبقينا كما تشاء!

لم يرد بهرام، اكتفى بالإشارة له باليد للمتابعة، فأردف:

- اسمي مالك ابن سليمان السياف، وهذا صديقي فارس.

- أتينا من بلاد بعيدة أظنك لم تسمع بها من قبل!

اعتدل الأمير في جلسته قليلًا وبَدَت ملامح الفضول على وجهه، ثم قال مقاطعًا بصوته الجهوري:

- طفت معظم أراضي ألميسيا فوق تنيني فالينار، وقد رأيت منها ما لم يره أحد. فأي البلاد فيها تقصد بالتحديد؟

أجابه:

- لكننا لم نأتِ من ألميسيا، بل من خارجها.

- أبحرتُ مع العديد من محاربي البشر والجان والأقزام من مرفأ مملكة فاليريا غرب أرض إيستوريا على متن سفينة كبيرة.

- لكن بعد أيام طويلة رأينا فيها الكثير من الأهوال والمخاطر، تحطمت سفينتنا وغرق معظم طاقمها، وتشتت البعض الآخر قبالة الساحل الشرقي لإقليم مرمرة.

كان الأمير يُحدّق بذهول إليهما محاولًا تصديق الأمر، لكنه تمالك نفسه ثم رد بحذر:

- هل تخبرني بأنكما تتبعان أراضٍ بعيدة تقبع خلف بحر الشمال، وقد أبحرتما صوب ألميسيا بصحبة الجان حتى

وصلتما إلى ألميريا! معذرة، لكن حديثكما لا يصدقه عقل!

رد مالك بثبات:

- تعيش شعوب البشر والجان والأقزام على إيستوريا في ممالك منفصلة يعم بينها السلام والأمان. لم نر خلافًا بين البشر والجان من قبل حتى أتينا إلى هنا.

- لكن على أي حال لم يكن ذلك سبب قدومنا!

بدأ مالك وفارس في إيضاح الأمر للأمير بهرام بشكل مفصّل. أخبره مالك بقيادته لجيوش ممالك إيستوريا بأجناسها المختلفة في حرب بقاء ضد أتباع سردار سيد الظلام، حتى تمكن من هزيمتهم داخل أرض فيرمورث، ومنع امتداد الظلام نحو الممالك. قصّ عليه أيضًا بعض الأسرار التي عرفها مع فارس خلال تلك الحرب، والتي أوضحت وجود أرض أخرى ضمن عالم أرض الماس بعد بحر الشمال، هرب إليها الكثير بعد الحرب الكبرى القديمة على إيستوريا. وقد كانت تلك الأرض الملاذ الوحيد لروح سردار السوداء وبعض قادته من خلفه بعد هزيمتهم الأخيرة. لذلك قامت تلك الرحلة الخطيرة من أجل محاولة إنهاء وجود سردار على أرض الماس، ومساعدة ألميسيا وإيستوريا قبل فوات الأوان.

كان الأمير واقفًا في مكانه بدون حراك، كأنه قد تجمّد من شدة دهول، تتخبط الأفكار داخل رأسه وتتوالى نظراته إلى هيئة الاثنين بشكل متكرر. لكنه نزل عندهما أخيرًا ثم قال:

- سمعت بأخبار انتشار الظلام منذ أكثر من عامين على جزيرة ميرف، شمال أقاليم الجان. يُقال إن الشمس لم تعد تشرق هناك قطّ، وهذا يشبه بعضًا مما أخبرتماني به.

نظر مالك وفارس إلى بعضهما البعض بنظرات جادة، أدركا فيها أن ذلك الظلام لا بد أن يكون قد تحقق بعد عودة سردار، وأنهما قد تأخرا كثيرًا في مطاردته. نظر مالك إلى الأمير قائلًا:

- سمعنا بقوتك وعظم إقليمك أيها الأمير، لذلك أتينا إليك سريعًا نطلب المساعدة. لا بد من إيقاف سردار سريعًا.

- إن لم تفعل شيئًا أنت وباقي الأمراء، ستفقدون أقاليمكم واحدًا تلو الآخر!

أجابه بعدما عاد إلى عرشه وأسند ظهره متنهّدًا بصوت سمعه الاثنان:

- أظن أن القصص التي تأتي من البحار دائمًا ما تكون ساحرة! لكنها للأسف نادرًا ما تفيد خلال الحروب.

- ثم أي أمراء تقصد! الجميع هنا وقعوا تحت سيطرة أطماعهم وأهوائهم، كما أنني لا أستطيع الوصول إلى جزيرة ميرف، تنيني لا يمكنه عبور أراضي الجان دون إذن.

سكت قليلًا ثم أردف:

- كل ما يهمني الآن هو تلك الحرب اللعينة مع فيونا.

رفع مالك حاجبيه قليلًا وأجاب بسعادة أخفاها بحذر بعد تلك الكلمات الأخيرة، التي شعر كأنها سبيل نجاتهم الوحيد:

- لهذا أنا هنا يا سيدي!

قال فارس:

- الأمير نذير لا يُجهز لحرب عادية، بل يزرع الفوضى على طرق التجارة ويشن كمائن بأيادي جواسيسه من أجل نشر

الخوف وإشعال فتيل حرب شاملة.

قاطعه مالك قائلًا للأمير:

- تعرضت مع أصدقائي لإحدى تلك الهجمات على الحدود الفاصلة بين مرمرة وألميريا.

- وقد استجوبت بنفسي أحد هؤلاء الجواسيس.

سأل بهرام:

- أتمنى أن يكون بحوزتك بعض المعلومات القيمة؟

أجابه:

- مع أن حديثه كان قصيرًا ومقتضبًا، إلا أنني قد استنتجت الكثير خلاله.

- تلك المواجهة لن تكون بين نذير وألميريا فقط!

- بل ضد نذير ومن خلفه كل أقاليم الجان.

- إن الجان هم العدو الحقيقي في تلك الحرب، وما نذير وإقليمه إلا وسيلة للسيطرة.

- إذا سمحت لي أيها الأمير يمكنني مساعدتك في الانتصار بتلك الحرب.

- بعد ذلك يمكنك مساعدتي في هزيمة سردار.

بدى على بهرام بعض التردد، لكنه بعد تفكير دام لبضع دقائق نهض عن عرشه قائلًا:

- ربما يكون حديثك مقنعًا، لكنني أراك غريبًا عن هنا.

- أتيت من مكان لم يسمع به أحد، وتطلب دورًا في حرب لم تبدأ فعليًا بعد!

- في القلعة هنا نسمي ذلك طموحًا، وفي ساحات القتال نسميه تهورًا.

- كما أن لدينا هنا في ألميريا ما يكفينا من القادة والمحاربين.

رد مالك مقاطعًا:

- لم آتِ إليك طالبًا لجيش أو ساعيًا لمجد، بل محذرًا من ظلام سوف يتسلل بين أقاليمكم في أي لحظة، ويحصدكم تباعًا بشكل مفاجئ.

- دعني أساعدك ضد نذير أولًا، قبل أن تدق طبول الحرب على أبواب إقليمك لاحقًا من جهات لا تنتظرها.

- اسمح لي أن أكون ذراعًا خفية لكم. أرسلني حيث تعجز العيون عن الرؤية، واترك لي بعضًا من تلك المهام المستحيلة.

ساد لحظة صمت قصيرة قبل أن يجيبه:

- أمر سردار والظلام سيناقش لاحقًا إذا لزم الأمر. أما الآن، إن كنت مصرًا على تقديم المساعدة، فابدأ بجمع المعلومات عن جيش نذير، ودمّر ما تستطيع من إمداداته في الخفاء.

- هذا كل ما أحتاج إليه منك حاليًا.

أشار بيده ناحية الباب، وأضاف بنبرة حاسمة:

- أما الآن، فقد عدت من طريق طويل وأحتاج إلى بعض الراحة.

انحنى مالك احترامًا، وتبعه فارس صامتًا، ثم غادرا القاعة بهدوء، بينما ظل الأمير واقفًا يحدق إليهما للحظات قبل أن

يعود إلى عرشه مرة أخرى.

***

14

لقاء وفراق

بمجرد أن خرج الاثنان من القلعة، حتى غمرتهما مياه الأمطار المتساقطة في تلك الأثناء، رفعا رأسيهما ليتبيّنا الأمر، فوجدا أن السماء قد اكتست بغيوم كثيفة، تهوي منها حبّات مطر غزيرة، تتوالى فوق الرؤوس بسرعة كبيرة، بالتزامن مع ومضات من البرق المصحوب بأصوات هزيم الرعد المخيفة. نظر فارس إلى مالك قائلًا:

- أفتقد شتاء إيستوريا كثيرًا!

كانت الأرض قد تحولت إلى خليط من الوحل الأسود الممتزج بكثير من الرمال الصفراء التي تغطي تلك المناطق، فتحرّك مالك إلى الأمام بصعوبة بعدما جذب فارس من ذراعه، قائلًا:

- لنبحث عن صديقينا بسرعة.

كان يزيد وتيا يجلسان داخل خان كبير بالقرب من القلعة، ولم يكن لذلك الخان جدران كاملة، مجرد أعمدة قوية صُنعت من الطوب اللّبِن، وُضع فوقها سقف من الخشب غطّى الخان بالكامل، وتحت السقف انتشر عدد كبير من المقاعد والمناضد الخشبية، جلس بعض البشر عندها في انتظار وصول طلباتهم، وسط روائح المشروبات الساخنة التي كانت تفوح من كل مكان، وصوت ارتطام المطر الغزير بالسقف الخشبي فوقهم. وما إن وصل مالك وفارس عند الخيول حتى لمحهما يزيد وأشار لهما بالقدوم، فتوجها صوبهما سريعًا. سألهما يزيد

بلهفة بعدما وصلا عنده:

- هل وافق الأمير؟

سحب مالك مقعدًا بهدوء، جلس بخفة، ثم نظر إليهما مجيبًا بعدما مسح من على وجهه كثيرًا من المياه التي بللت ملابسه أيضًا:

- لم يرفض، لكنه لم يوافق تمامًا.

قصّ الاثنان على صديقيهما ما حدث عند الأمير بهرام منذ البداية، مرورًا بتأجيل أمر سردار، وحتى تلك المهمة الجديدة التي طلبها منهما. أخبرهم مالك بأن بهرام يعرف بأمر الحرب الضخمة التي يخطط لها نذير، لذلك أراد بشدة جمع المعلومات عن جيش عدوه، وتدمير بعض إمداداته. نظر فارس إليهم مضيفًا:

- إذا كنا نريد بعضًا من ثقة الأمير، فعلينا إثبات نوايانا له. عليه أن يعرف أننا لسنا مجرد عابرين غرباء عن إقليمه.

أتى عامل الخان في تلك الأثناء، وضع كوبًا كبيرًا من الشاي الساخن أمام كلٍّ منهم ثم غادر مسرعًا، فالتقط مالك كوبه بهدوء، رشف رشفة كبيرة منه كانت كافية لإعطائه بعضًا من الدفء الذي فقد كثيرًا منه قبل دقائق، خصوصًا بعد توقف الأمطار في تلك اللحظات وبزوغ الشمس من بين السحب من جديد، ثم قال:

- نعم، علينا البدء سريعًا، فقد بدأ ظلام سردار في الانتشار شمال أقاليم الجان منذ مدة.

- ولا أدري كيف تركه أمراء الجان هناك من دون التصدي

لظلامه!

وقبل أن يخفت صدى كلماته ارتفع ضجيج غريب من الجهة المقابلة، نظروا نحو مصدر تلك الضجة، فشاهدوا عددًا كبيرًا من البشر اصطفوا حول شيء ما بالمنتصف، وتعالت صيحاتهم عليه بغضب كاد أن يتحول إلى عراك. استمر الأربعة في متابعة الأمر لبعض الوقت حتى التقطت أذنا مالك بضع كلمات من حديث أحدهم، عرف منها بأنهم قد تجمعوا هناك حول فتاة من الجان ورجل من الأقزام.

انتفض واقفًا ومن بعده فارس، نظرا إلى بعضهما بعضًا في صمت حاد على الرغم من تسارع ضربات قلبيهما بشدة، أراد كلٌ منهما الحديث لكن كان الكلام ثقيلًا على لسانيهما، ركضا سريعًا نحو ذلك الشجار وتبعهما يزيد وتيا، اخترقا تلك الصفوف المكتظة بقوة فوق ذلك الوحل الكثيف حتى وصلا عند المنتصف وشاهدا سبب تلك الجلبة.

توقف هناك شخصان بالفعل كانا قد أدارا ظهريهما إلى حيث أتى الاثنان، إلا أن أعين مالك وفارس ميّزت هيئتهما وملابسهما بسهولة. لم يستطيعا التحدث للمرة الثانية، تسارعت أنفاسهما بشدة، وتزايدت ضربات قلبيهما بشكل أكبر حتى شعرا بأنهما يسمعان وقعها بوضوح، خُيّل إليهما بأنهما داخل حلم غريب لا يُصدّق، وتجمدا في مكانهما للحظات طويلة، جمع بعدها مالك شتات نفسه قليلًا، ثم نادى بصوت جهوري صمت بعده الجمع عن الصراخ واتجهت أنظارهم إليه:

- تأخرتِ كثيرًا يا ذات العيون الزرقاء!

تسللت الكلمات إلى أذني لين وفهد بسرعة خاطفة، شعر بها

الاثنان كأنها طوق نجاة أُلقي لهما وسط عاصفة مميتة كادت أن تفتك بهما على مدار تلك الأيام الصعبة التي عاشاها معًا. التفتا بسرعة ليشاهدا مالك وفارس واقفين قبالتهما يحدّقان إليهما في ذهول. لحظات صمت طويلة سادت بين الجميع، ابتسم بعدها فارس أخيرًا قائلًا لفهد:

- أحمل إليك خبرًا سعيدًا أيها القزم الشجاع!

ثم أضاف مازحًا:

- ينتظرك هنا في ألميريا كثير من لحم البقر المشوي!

- ومن النوع المفضل لديك أيضًا.

اندفع مالك نحو لين بقوة ومن بعده فارس نحو فهد، احتضنوا بعضهم بشدة، وتساقطت دموعهم في صمت. كانت لين تنظر إلى وجه زوجها بنظرات لهفة، ترسل عبرها كثيرًا من المشاعر المختلطة ما بين شوق طال وأيام ثقال، ثم تحتضنه من جديد. لم تختلف مشاعره كثيرًا عنها في تلك الأثناء، وضع يديه على شفتيها الصغيرتين قبل أن تبدأ بالحديث، تحسس وجهها برفق، ثم نظر إلى عينيها قائلًا:

- أعلم.

- لكن سنتحدث عن كل شيء لاحقًا.

ابتسم بعدها إلى فهد، ضمّه بقوة، ربت على كتفه قائلًا:

- أمامنا طريق طويل، لننهِ ما بدأناه معًا.

ثم التفت إلى الجمع الكبير عندما صاح أحد البشر قائلًا:

- بشر مع جان وأقزام بالقرب من قلعة ألميريا! كيف

تجرؤون؟

صاح آخرون بغضب:

- لم نر خيرًا من هؤلاء الجان قطُّ! إن تركناهم اليوم سيأتي بقيتهم لاحقًا.

صرخ آخر:

- أو ربما نجد أمير فيونا وجنوده بيننا فيما بعد! لنحرقهم هنا ونطهر ألميريا من هذا الدنس!

تدافع الجمع نحو الأربعة، محاولين الفتك بهم، بعدما أشهر بعضهم سيوفهم عاليًا، وأمسك البقية بعصي طويلة وحجارة كبيرة كانت كافية لقتلهم. استمروا بالتقدم نحوهم شيئًا فشيئًا وسط صرخ وصياح عالي عمّ الأجواء حتى كادوا أن يمسكوا بهم. لكن فجأة اخترق يزيد وتيا تجمعهم، وأشهرا سيفيهما معًا في وجوههم، تبعهما مالك وفارس في ذلك سريعًا حتى أحاطوا بلين وفهد فيما بينهم. قال يزيد بصوت جهور في أثناء تلويحه بسيفه يمينًا ويسارًا محاولًا إبعاد كل من كان يحاول الاقتراب:

- تراجعوا! أنتم تهاجمون مجموعة تحت حماية الأمير بهرام.

- وهل يحمي الأمير أفراد الجان الآن!

قالها أحدهم محاولًا مهاجمة لين بسيفه، فأصابه مالك بجرح بسيط في كتفه بطرف السيف حتى صرخ بشدة وابتعد إلى الخلف، ثم قال عندما لمح جنود ألميريا قادمين صوبهم محاولًا خداعهم:

- ها قد أتت الجنود لينزلوا عليكم غضب الأمير جزاء لتعديكم على من طلب حمايته!

لم يكد جمع البشر يسمعون تلك الكلمات حتى ساد الهَرج وعمّت الضجة المكان، بدأ الجميع في الركض بعيدًا، فاستغل يزيد تلك الفرصة وأشار إلى لين وفهد بتغطية رأسيهما بقبعة رداءيهما، فغطيا رأسيهما بخفة، وتسللوا بعدها بهدوء حتى دخلوا إلى الخان وجلسوا من جديد. تنهد مالك قائلًا:

- كان ذلك وشيكًا!

أجابته تيا:

- لا يرحب أهل ألميريا بالجان كثيرًا! أما الأقزام فنادرًا ما تجدهم هنا. يسكنون فقط شمال إقليم نارين داخل الغابات المنتشرة في تلك البقعة.

قال يزيد:

- يجب أن نلتمس العذر لأهل ألميريا، فقد عانوا كثيرًا من ويلات تلك الحروب الأخيرة، وما زالوا يعيشون تلك المعاناة حتى الآن!

كان فهد ولين يشاهدان يزيد وتيا للمرة الأولى، صافحوهما معًا في تلك الأثناء وشعرا كأنهما يعرفانهما منذ زمن، خصوصًا بعدما دافعا عنهما مع مالك وفارس بجسارة. لكن كانت نظرات مالك متجهة إلى لين فقط، أراد بشدة أن يشبع قلبه بالنظر إليها، وأن يروي شوقه بمطالعة عينيها، قال لها بعد لحظات:

- كنت أشعر في قرارة نفسي بأن القدر لم ينتهِ من حكايتنا

بعد.

- شعرت بوجودك معي في كل لحظة، كأن قلبينا كانا متصلين طوال تلك الليالي!

ردت بعدما ظهرت الدموع في عينيها مجددًا:

- كنت واثقة بأن اللقاء آتٍ، لكن خفت أن يطول الفراق.

- شعرت بأن روحي قد سلِبت مني بعدما تفرّقنا في بحر الشمال، وقد استعدتها من جديد عندما سمعت في إقليم فيونا بخبر نجاتك!

نظر لها الجميع باستغراب في صمت حتى سأل فارس:

- هل كنتما في فيونا؟

قالها وهو ينظر إلى فهد أولًا، ثم حوّل نظره إلى لين لكنها لم تبد أي رد فعل على وجهها الشاحب، فعادوا بأنظارهم صوب فهد على أمل أن يقص عليهم من الأمر شيئًا. تردّد في الإجابة للحظات، كأن الحديث كان يأبى الخروج من حلقه هو الآخر، لكنه تكلم أخيرًا قائلًا بعد تنفّس طويل:

- نعم، مررنا بها!

مرت لحظة طويلة قبل أن يضيف بشبه ابتسامة ظهرت على فمه الصغير دون أن تصل إلى عينيه:

- ونجونا من أميرها بأعجوبة!

كانت تلك الكلمات كافية لتصيبهم بالصدمة والذهول، لكنهم مع ذلك أرادوا معرفة المزيد. اقترب مالك برأسه نحو فهد في أثناء جلوسه قبالته سائلًا بصوت خافت، قبل أن يحوّل نظره

إلى زوجته بعد ذلك:

- هل تقصد الأمير نذير؟

لم يجب أحد، صمتا للحظات ولم يكن في ذلك الصمت نفي أو تأكيد، لكن أطلق فهد في النهاية ضحكة خافتة قصيرة، ثم قال بعدما تنفس ببطء، كأن الجواب كان مقيدًا في صدره:

- كنا سنعدم في سجن تلك القلعة قبل أيام! لكن لحسن حظنا أراد القدر عكس ذلك.

قصّ فهد عليهم كل ما حدث في تلك الليلة منذ بداية لقاءهما بالأمير نذير، مرورًا بمعرفته بأمر ماسة أريانا من الجاسوس الناجي، وحتى أمر ذلك الجندي الغريب الذي ساعدهما في الهرب من هناك. سألته تيا بفضول بعدما عقدت ذراعيها:

- ولماذا فعل ذلك؟

قال يزيد بقلق:

- ربما كان يعرفكما!

اكتفى فهد بهز كتفيه، ثم نظر إلى لين فأجابت تلك المرة:

- أعتقد أنه لم يكن يعرف غير الثأر فقط! فقد سقط شقيقه ضحية لظلم نذير.

قاطعه فهد سريعًا:

- أو هكذا أخبرنا!

صمت قليلًا، ثم أضاف بعدما تعلقت أنظار الجميع به:

- لم أصدق تلك الحكاية، لكننا مدينان له بحياتنا.

أدرك مالك في تلك الأثناء بأن نذير سوف يسعى إلى الوصول إلى الماسة، لم يرُد أن يعرف أحد من الأمراء بأمرها في الوقت الحالي، حتى أنه لم يخبر الأمير بهرام عنها. لكنه فضّل تجاهل الأمر مؤقتًا حتى ينتهوا من مهمتهم الحالية، ثم قال:

- عشنا جميعًا أيامًا عصيبة حتى نصل إلى هنا.

- وفقدنا الكثير في بحر الشمال من أجل هذا.

- دعونا نبدأ من جديد، لننهي ما قد أتينا من أجله!

أغمض عينيه قليلًا محاولًا التفكير في حل يساعدهم، ثم فتحهما قائلًا:

- سردار قد أصبح طليقًا، الحرب على وشك الانطلاق، الظلام قادم!

- يجب أن نتحرك الآن لنثبت للأمير بهرام أننا سبيله الوحيد للانتصار.

نظر إليه يزيد قائلًا:

- لديه جيش ضخم، وتنين كبير، لماذا سيحتاج إلى مساعدتنا!

ثم أضاف مازحًا لمالك:

- إلا إذا أصبحت راكب تنين!

ابتسم مالك في البداية، لكن سرعان ما زالت تلك البسمة عن وجهه ليظهر بدلًا منها بريق غريب في عينيه، صمت لدقائق ثم قال:

- أنت محق!

- ربما يحتاج إلى تنين آخر بالفعل!

تعلقت أنظار الجميع به طويلًا، لم يدرِ أي منهم إن كان حديثه جادًا أم مجرد مزاح عابر، سألته تيا بدهشة:

- تنين! هل أنت جاد؟ من أين ستأتي به؟

- كل التنانين الموجودة في الماسية تخضع لسيطرة أمراء البشر والجان بالفعل. حتى إن بعضهم لا يمتلكونها!

أجابها سريعًا:

- أعتقد أنك قد نسيت التنين الأهم.

سكت قليلًا، ثم أجاب مبتسمًا:

- التنين الأحمر فيدارا!

قاطعه يزيد على الفور بعدما شاهد الجدية الظاهرة على ملامحه:

- فيدار؟ هذا جنون!

أوضح له يزيد أن هناك نبوءة قديمة تتعلق بفيدار، نبوءة يحفظها كل الأحياء على الماسية منذ طفولتهم. كتب تلك النبوءة قدماء السحرة منذ عصور سحيقة، لكنها لم تجد لصاحبها طريقًا حتى اليوم، أو ربما كانت غير حقيقية من الأساس. تقول النبوءة بوضوح:

يبعث من جبال النار تنين لا يروض لجان

ولا يلين قلبه إلا لفارس من نسل البشر

فإن خضع، خضعت له أقاليم الإنس والجان

وانكشفت بزمجرته أسرار السماء
يهدم بجناحيه جدران الظلم
ويسقط بلهيبه عروشًا بنيت على الباطل
ليبعث النور من بعده على أرض الماس

كانت كلمات النبوءة تتجول داخل عقولهم في نفس الوقت، تمنى كل منهم أن يكون المقصود بها، وأن تخضع له كل تلك القوة الهائلة، لكنهم كانوا مدركين بأن الأمر بعيد المنال، وأنهم ما زالوا غرباء عن الماسية. قالت لين لمالك:

- يبدو الأمر خطيرًا جدًا، لن أسمح لك بالذهاب مجددًا.
- يكفي ما عشناه من الفراق والألم منذ بداية الرحلة!
- وهل نمتلك خيارًا آخرا!

قالها مالك بعد تنهيدة حملت الكثير من التعب المتراكم بداخله، أردف:

- إن لم نتصدّ للظلام، من سيفعل!
- ألست أنا حامل ماسة أريانا؟

صمت فجأة بعدما لمعت في رأسه فكرة مثيرة، فكر قليلًا مرة أخرى ثم ابتسم قائلًا:

- ربما لسنا المعنيين بتلك النبوءة، لكن لدينا الماسة!
- ماذا لو استطعت استخدامها في جبال النار، من الممكن أن أعرف عن طريقها سبيلًا للوصول إلى فيدار.

اعترض أصدقاؤه الخمسة على الفور، كان الأمر خطيرًا للغاية، لم يقم به من قبلهم إنس ولا جان، كما أنهم لم يكونوا

على يقين من وجود فائدة لتلك الماسة هناك، ففي كل الأحوال سيحرق التنين كل من يحاول الاقتراب منه، لكنه كان مصرًا على إتمام الأمر، أو بالأحرى لم يكن هناك سبيل غير ذلك أمامه. قرر أن ينطلق بمفرده صوب جبال النار بالرغم من بعد المسافة، حيث تقع تلك الجبال شمال إقليم نارين كما أخبره يزيد. قاطعه فهد على الفور:

- هل تظن بأنك ستذهب منفردًا إلى ذلك التنين الأحمق؟

- حسنًا، ليأتي محارب تارا الكبير بصحبتي. أحتاج إلى شجاعة غير مألوفة لإتمام الأمر، وإلى شخص لا يُظهر خوفه أبدًا.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتيه، ثم أضاف مازحًا:

- حتى لو كان يخاف.

ضحك فهد قائلًا:

- يا لسوء حظي!

انفجروا جميعًا ضاحكين متمنين أن يطول اجتماعهم في ذلك الخان، لكن أخبرهم مالك بأن عليهم محاولة إتمام المهمة في كل الأحوال إذا لم يتمكنوا من النجاة والعودة في وقت قريب. سأله يزيد:

- ماذا عن فيونا؟

أجابه بعدما تشاور معهم قليلًا:

- لتذهب أنت مع فارس لإتمام الأمر، فأنت أفضل من يعرف قلعة فيونا وأماكن تخزين سلاحها بيننا. عليكم أن تضربا قوة نذير جيدًا قبل أن تدق تلك الحرب طبولها.

همست له لين:

- هل يمكنني أن أذهب برفقتك تلك المرة؟

رغبت لين في الذهاب معه إلى جبال النار، خصوصًا مع علمها بأن الذهاب في ذلك الطريق قد يكون بلا عودة، لكنه أراد أن يُبقيها بأمان مع تيا في ألميريا على مقربة من قلعة الأمير بهرام، تراقبان الأوضاع حتى عودتهم وترصدان أي تحركات غريبة قد تحدث في أرجاء الإقليم.

في الصباح التالي، استيقظ الجميع مبكرًا، تناولوا إفطارًا سريعًا باستثناء فهد الذي أصر على تناول الكثير من لحم البقر، واصطحاب الكثير منه في سرج حصانه. توقفوا عند الخيول بجوار النزل حيث يقيمون. وقفت لين إلى جوار مالك، أمسكت بذراعه بشدة تطلب منه الاحتراس وعدم المجازفة خلال طريقه. ودعته كثيرًا لكنه لم يرد سريعًا، اكتفى بالنظر إليها طويلًا قبل أن يجيب:

- الليلة الماضية كانت الأجمل على الإطلاق!

أضاف بعدما طبع قبلة رقيقة على شفتيها، وحرك يديه على خصلات شعرها الأحمر الطويل:

- اطمئني، لن يطول الفراق تلك المرة.

ابتسمت بخجل ثم أجابت:

- أتمنى ذلك!

كانت تيا واقفة بمفردها في تلك الأثناء، تشجع فارس بعد دقائق وتوجه صوبها بهدوء، ودعها طويلًا وطلب منها توخي الحذر في غيابه، واستمر بالحديث إليها حتى شاهد في عينيها خوفًا من فراقه حاولت إخفاءه بشدة، لكنها لم تستطع. إلى أن اتفقا في النهاية على اللقاء فيما بعد.

توجه مالك وفهد على حصانيهما ناحية الشمال الغربي لقلعة ألميريا باتجاه الطريق المختصر الذي أخبرهم عنه يزيد، بينما انطلق يزيد وفارس إلى الشمال الشرقي للقلعة حيث الطريق إلى غابة ميرا التي تفصل ألميريا عن فيونا. أما لين وتيا فقد انطلقتا عبر أسواق ألميريا، تصغيان للهمسات،

وترصدان الأوضاع عن كثب.

انطلقوا جميعًا، كل يسير في طريقه، لكن قلبه مع البقية. كل يعلم أن الحرب قادمة، وأن عليهم فعل شيء قبل فوات الأوان. وهكذا افترقوا.

***

15
جبال النار

بعد ستة أيام.

على الرغم من برد الشتاء المتزايد في تلك الفترة، فإن الأمر كان مختلفًا على مشارف إقليم نارين. شعر مالك وفهد بذلك بمجرد أن لمست أقدام حصانيهما تلك الأرض، حتى إنهما خلعا رداءي الفرو خاصتهما سريعًا بعدما استشعرا زيادة في حرارة الجو المحيط عن الأيام الماضية، والتي قطعا خلالها مسافة هائلة تحت الأمطار الكثيفة، التي استمرت في التساقط بين الوديان الممتدة من ألميريا.

لم يكن ذلك الاختلاف هو الوحيد أمامهما، كانت التضاريس في تلك البقعة مختلفة أيضًا عن كل ما شاهدهما قبل ذلك. أرض حمراء اللون تمامًا، احتوت على رمال كثيفة متحجرة، تخللتها صخور صغيرة تشبه الجمر في هيئتها، وبالرغم من أن جبال النار لم تكن على مرمى بصرهما بعد، إلا أنهما أدركا أن طبيعة هذا الإقليم متأثرة بوجود التنانين منذ القدم.

في ذلك الصباح، عند البوابة الشرقية للإقليم، ظهر أمامهما جندي يرتدي خوذة حديدية فضية اللون مزخرفة بنقوش سوداء، وبدلة عسكرية كاملة أعطت له مزيدًا من الهيبة. أشار لهما بالتوقف بمجرد رؤيته لسيفيهما وملاحظته لاختلاف جنسهما، سألهما مباشرة عن وجهتهما بصوت امتلك لكنة مختلفة عن تلك التي سماها من أهل ألميريا. تردد مالك في إخباره بحقيقة الأمر مع مراقبته لعينيه المتفحصة لكل شيء،

وفضل السؤال عن الطريق إلى جبال النار، بالرغم من وجود خريطة صغيرة معه كان يزيد قد أعطاها له قبل تفرقهما. رد الجندي بعد تنهيدة:

- تقصدان طريقًا لا عودة منه!

- يمكنكما التفكير قليلًا قبل مواصلة السير.

قال مالك بهدوء:

- خرجنا من ألميريا في مغامرة صغيرة لاستكشاف محيط جبال النار، وقد قطعنا مسافة كبيرة في سبيل ذلك، لهذا لا يمكننا التراجع الآن!

أومأ الجندي برأسه، ثم قال مبتسمًا بعدما رفع يده مشيرًا:

- يبدو أنكما لا تكتريان لحياتكما مطلقًا!

- على كل حال، عليكما التقدم داخل نارين لدقائق، سيظهر على يمينكما طريق كبير يتوجه نحو الشمال باتجاه غابة تيجا، تليها سلاسل جبال النار مباشرة.

- حظًا موفقًا في مغامرتكما، ومع التنانين بالطبع!

تنفس مالك وفهد الصعداء بعدما أشار لهما بالتحرك، استمرا بالمضي قدمًا إلى حيث أشار دون أن يلتفتا خلفهما، حتى ابتعدا عنه كثيرًا. في تلك الأثناء، شاهد الاثنان أهل نارين للمرة الأولى، وبالرغم من أن طريقهما كان بعيدًا عن قلب الإقليم، إلا أن تلك البقعة على أطرافه احتوت على ثقافة مختلفة عما شاهدهما من قبل.

كانت الموسيقى تصدح من كل مكان، والراقصات يتمايلن أمامهما كألسنة اللهب في خانات مكشوفة على الجانبين،

ثُقذف فيها زجاجات النبيذ بين الحاضرين كما لو أنها عملة رسمية في هذا البلد. رائحة العنب المتخمر تملأ الأزقة، وصيحات مجنونة تخرج من أفواه الرجال والنساء معًا، يتعانقون ويصخبون فيما بينهم بجنون، وكأنهم يحتفلون بنهاية حرب لا يعلم بها أحد غيرهم. تمتم فهد وهو ينظر إلى هذا المشهد الغريب قائلًا:

- هل سيواجه هؤلاء نذير وسردار!

ابتسم مالك بتعب:

- أرض على حافة جبال النار، يحكمها تنين، ويسودها طقس كالجحيم، لا عجب إن أراد أهلها الهروب إلى الخمر!

رد فهد مازحًا:

- سيكون من الأفضل لهم أن يتحولوا إلى فارجل لاحقًا.

قطع حديثهما مشهد بديع في قلب الطريق، تمثال ضخم من الفضة لتنين مجنح مهيب، يشع بشدة تحت الشمس لينعكس الضوء منه على كل من يعبر بجواره، كأنه يخبر المارة بأنهم تحت حمايته، ويحذر أهل الشر من عقابه الملتهب. نقشت تحته عبارة بلغة غير مفهومة، توقف الاثنان محاولين قراءتها لكن بلا فائدة، قال أحد المارة عندما رأى دهشتهما:

- زاروس ليس تمثالًا فقط، إنه رمز لنارين وقوتها، وضعه الأمير مرجان هنا ليستمد أهلها منه الطمأنينة والأمان.

قاطعه فهد متسائلًا:

- لكن، أين زاروس الحقيقي؟

صاح مجيبًا بنبرات غريبة، أدركا بعدها بأنهما أمام أحد المجانين المنتشرين في تلك البقعة:

- يهبط به الأمير هنا مرة كل عام ليحتفل بين أهل إقليمه، ويؤكد لهم بأنهم تحت حماية لهب زاروس الحارق.

تأمل مالك التمثال طويلًا، كان أصغر في هيئته من حجم فالينار، وأكد له فهد أنه أصغر من سيفار تنين نذير أيضًا. لكن مع هذا كان تنينًا مهيبًا، جعل مالك وفهد يدركان سريعًا بأن التنانين هي من تحكم عالم ألْمَاشيَا من وراء الستار. وبالرغم من أنه لم يكن يسعى إلى ذلك التنين تحديدًا، إلا أنه كان رمزًا واضحًا أمامه لما ينتظره عند جبال النار.

التفت فهد نحو اليمين فشاهد طريقًا واضحًا يشبه ما وصفه الجندي لهما قبل قليل، فانطلقا عبره سريعًا محاولين الوصول إلى وجهتهما قبل نهاية شمس ذلك النهار.

مرت ثلاث ساعات رملية كاملة حتى وصل الاثنان عند غابة تيجا، وذلك بعد رحلة شاقة اجتازا فيها كثيرًا من دروب إقليم نارين الشمالية، ربطا حصانيهما سريعًا عند أحد تلك الأشجار المرتفعة، ثم تسللا بحذر نحو الداخل. رفع مالك ناظريه صوب السماء للحظات قليلة، ثم قال لفهد:

- بقيت أربع ساعات رملية حتى غروب الشمس! يجب أن نسرع.

كانت الغابة كبيرة للغاية، ممتلئة بأشجار كثيفة متنوعة، برتقالية اللون، شاهقة الارتفاع، متباعدة أيضًا عن بعضها البعض مكونة دروبًا واضحة بينها في كل مكان، أما الأرض فكانت طينية جافة غير مستوية، انتشر فوقها الكثير من

أوراق الأشجار المتساقطة، ونمت فيها بعض الحشائش الصفراء القصيرة. أشار مالك نحو الأمام فانطلقا معًا باتجاه قلب الغابة محاولين عبورها إلى الجانب الآخر.

بعد مضي بعض الوقت داخل تيجا، كان الصمت لا يزال يعم المكان، لم يقطعه طوال الطريق سوى أصوات بعض الطيور التي استمرت بالهرب بعيدًا كلما اقتربا من أعشاشها، حتى أن صوت حذائهما فوق ذلك العشب القصير كان يبدو لهما صاخبًا. شعرا بالتعب في تلك الأثناء يسري في جسديهما المنهكين، تذكرا بأنهما لم يتوقفا لأخذ قسط من الراحة منذ أيام، فقررا الجلوس لبضع دقائق أخرى من أجل تناول بعض الطعام. ذهب فهد ليجد بعض الأخشاب الصغيرة بالجوار، وجلس مالك في انتظار عودته.

وفجأة، في أثناء ما كان غارقًا في تفكير عميق، يستعيد فيه ذكريات ذلك الطريق منذ مغادرتهما مرمَرة، قفز أمامه بضعة أشخاص من فوق بعض الشجيرات القريبة أدرك على الفور بأنهم من الأقزام، وبرز آخرون من خلفه تباعًا حتى امتلأ بهم المكان.

انتفض واقفًا في الحال، استل سيفه محاولًا الدفاع عن نفسه بعدما قدر عددهم بما يقارب العشرين. إلا أنهم كانوا يحملون حرابًا طويلة صوبوها نحوه من كل اتجاه، استدار برأسه باحثًا عن منفذ، لكن كانت الحراب تقترب صوبه ببطء حتى حصروه بين رؤوسها المدببة في المنتصف. تحدث أحدهم إليه لكنة مألوفة قائلًا بغضب:

- من أي إقليم أتيت؟ وإلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟

لم يجد مالك بدًا من الحديث معهم، غرز سيفه أرضًا، ثم رفع يديه محاولًا تهدئتهم قائلًا:

- على رسلكم!

- أتيت من بلاد بعيدة قاصدًا جبال النار!

تبادل محاربو الأقزام ضحكات مكتومة فيما بينهم، ثم رد قائدهم ساخرًا:

- يبدو أنك تتبع هؤلاء المجانين السكرى في نارين!

- بل أتيت من أجل فيدار!

قالها مالك بجدية، فرد عليه سريعًا:

- هذا سبب أكبر يجعلني أصدق بأنك تتبعهم بالفعل.

- لم آتِ إلى هنا باحثًا عن المتاعب، أرغب في الوصول إلى وجهتي فقط.

قالها مالك بعدما رفع يديه برفق مجددًا، لكن لم يقتنع محاربو الأقزام بحديثه، ظنوه أحد الجواسيس التابعين لأقاليم البشر، وقد كانوا يحرصون دومًا على إبعاد أمثالهم عن تلك الغابة. أشار لهم قائدهم بالتخلص منه في الحال، فاقتربوا بحرابهم مرة أخرى، حتى تيقن بأنّه هالك لا محالة، إلا أنهم توقفوا على الفور عندما قاطعهم صوت فهد في أثناء قدومه نحوهم.

لم يلحظ وجودهم في البداية، كان مشغولًا بإنشاد إحدى مقطوعات إيستوريا الصغيرة، تغمره سعادة بالغة بقرب إعداد الطعام الساخن، حاملًا الكثير من الأخشاب على ذراعيه الصغيرتين دون أن يلتفت أمامه، لكن بمجرد أن رفع رأسه

تجمد في مكانه، ثم ألقى كل شيء أرضًا ورفع كلتا يديه قائلًا:

- ماذا تريدون منا؟ لا نملك شيئًا لنُعطيكم إياه!

تأمله قائد المحاربين لثوانٍ معدودة، ثم أومأ برأسه لهم فأبعدوا حرابهم في الحال، اتجه بثبات نحوه بينما وضع فهد أطراف أصابعه على مقبض سيفه مستعدًا، لكنه تفاجأ بهذا القائد يمد يده لمصافحته قائلًا بدهشة:

- لم أر أقزامًا خارج تيجا من قبل! من أين أتيتما؟

لم يرد عليه، اكتفى بالصمت، فسأله مجددًا بعدما ذهبا عند مالك:

- هل من مملكة بعيدة تُدعى تارا؟

نظر الاثنان إلى بعضهما البعض في ذهول، كان سماع اسم تارا في تلك الأرض البعيدة بمنزلة صدمة كبيرة لم يتخيلا حدوثها قط، سأله فهد بحذر بعدما تبادلا نظرات طويلة صامتة مع مالك:

- كيف تعرف باسم تارا!

أخبرهم القائد سروران بأن أجداده الأقزام ترعرعوا في إيستوريا منذ قرون بعيدة، وهربوا منها بعد معركة طويلة مع الظلام وأتباعه. وبالرغم من غرق الكثير منهم في بحر الشمال، إلا أن بعضهم تمكن من النجاة بصعوبة، واستقروا في تلك الغابة لاحقًا إلى جانب موطن التنانين بعيدًا عن صراعات السكان الأصليين داخل الأقاليم.

سأله مالك على الفور:

- هل تعرف شيئًا عن ماسة سحرية قديمة؟ ماسة صنعت

بأيادي السحرة القدماء على ألْمَاشيَا؟

تغيرت ملامح سروران كأنه تذكر شيئًا بعيدًا، ثم أجاب:

- الماسة! نعم، سمعت من جدي عن وجود اثنتين منها.

انتظر قليلًا ثم أردف:

- أعتقد أن قدماء السحرة حفظوا واحدة منهما على أرضكما!

أكمل بعدما شاهد أعين الاثنين تتسع في فضول، ورأسيهما يقتربان منه في انتظار ما سيقول:

- وحفظوا الأخرى على جزيرة ميرف داخل برج سارو. وضعت هناك بعيدًا عن أطماع الأمراء وسيطرة الظلام.

- لكن، لا أحد يعلم إن كانت لا تزال هناك حتى الآن!

ألقى الاثنان بجسديهما أرضًا، نظرا إلى السماء بعمق وتنهدا بقوة، سألهما سروران عن سبب ذلك، فأخبره مالك بأن سردار قد تمكن من الوصول إلى تلك الماسة بالفعل، وهذا يفسر سبب انتشار الظلام على جزيرة ميرف منذ فترة. تذكر أمر التنين، انتفض واقفًا ينظر حوله في عجالة سائلًا سروران عن الطريق، إلا أنه قام بتحذيره من خطورة التقدم في ذلك الاتجاه من جديد.

أكّد له مالك عدة مرات بأن ذلك الطريق هو السبيل الوحيد لإنهاء الصراع على أرض الماس، وبدونه سيسقط الجميع بين

ظلام سردار وخيانة الجان. ثم سأله عما إذا كان يعرف شيئًا عن طبيعة التنانين، فرد وهو ينظر بعيدًا إلى طريق جبال النار:

- بالطبع! فلم يسكن أجدادنا تلك الغابة لقرون دون فائدة.

أخبره سروران أن الأقزام القدماء عرفوا كيفية التواصل مع التنانين من بعيد. كانوا يحفظون الكثير من الكلمات القديمة التي تَنساع لها التنانين، وقد استخدم الأمراء أربع كلمات منها للتواصل معهم فيما بعد، وهي كل ما تبقى من تلك اللغة القديمة، حتى إنهم كانوا يتقربون إليهم بوضع كميات كبيرة من اللحم النيء في بقاع محددة بالقرب من الجبال، وذلك وفق طقوس غريبة لم يفعلها غيرهم، وما زلنا نفعل الشيء نفسه حتى اليوم. ابتسم لهما قائلًا:

- قال لي أبي ذات مرة إن كلمة «سيرا» وحدها تكفي لتهدئة تنين غاضب!

- ربما تفيدنا تلك الكلمة الغريبة لاحقًا.

قالها فهد مازحًا، فتابع سروران بجدية:

- أما «كيرا» فتكفي لتحويل التنين لما أمامه إلى رماد محترق!

بعد تناول بعض الطعام، اصطحب سروران مالك وفهد إلى نهاية الغابة باتجاه جبال النار، واستمروا في تبادل أطراف الحديث طوال الطريق حتى وصولهم. أخبرهما بأن ارتباط التنين براكبه ليس بالأمر اليسير، بل يتم فقط باختلاط دماء الاثنين معًا لمرة واحدة. وقد استخدم الأمراء الذين يملكونها

بعض السحرة لإفقاد تلك التنانين الوعي، حتى يتمكنوا من استخراج شيء من دمائها وخلطه بدماء الأمير لحظة استيقاظها، ليرتبط مصيرهما معًا حتى موت أحدهما.

كان الأمر مختلفًا بالنسبة إلى فيدار، فتنين هائل مثله لم تكن لتنجح معه أي محاولة لإفقاد وعيه، كما أن الأمر برمته يستحيل أن يقوم به شخص واحد بمفرده، باستثناء صاحب نبوءة فيدار. إلا أن مالك كان يعول على ماسة أريانا في إتمام الأمر، متمنيًا مع فهد أن ينجح ذلك سريعًا قبل أن يحولهم التنين إلى رماد.

صافح مالك وفهد سروران بحرارة، وشكرانه من جديد بعدما أخبرهما بالكلمتين الأخريين «فالار» و«نيفار» مع اقتناع بعدم احتياجهما لذلك لاحقًا، وأنه ربما لن يراهما من جديد بعد استمرارهما في ذلك الطريق. وما إن خرجا من بين أشجار تيجا، حتى ظهرت جبال النار الشاهقة أمامهما بوضوح.

جبال عالية تعانق السماء، ينساب من أعلاها حمم ملتهبة، ويعلوها دخان أبيض كثيف يغطي قمتها. تمتد من حافة الغابة وتختفي نهايتها خلف الأفق، وقد علما من سروران أن أقاليم الجان تقبع على الجانب الآخر منها.

أكملا طريقهما إلى أعلى الجبال لبعض الوقت، محاولين العبور من بين الصخور الحادة المنتشرة هناك، حتى وصلا إلى وادٍ صغير يقع في قلب تلك السلاسل الجبلية، صخوره سوداء وهواؤه ساخن، ممتلئ بالضباب ومهجور تمامًا، بالرغم من انتشار أصوات أنفاس غريبة في محيطه لم يسمعا مثلها

من قبل. تحركا بحذر عبر ذلك الوادي مع انتشار الضباب أمامهما، همس فهد بصوت منخفض:

- لم يبقَ غير ساعة رمليّة واحدة قبل أن تغيب الشمس ويظلم ذلك المكان تمامًا.

وقبل أن يجيبه مالك، دوى صوت زئير حاد من خلف إحدى الصخور الضخمة، اهتزت بعده الأرض تحت أقدامهما على الفور، اختبئا خلف صخرة قريبة وحبسا أنفاسهما بصعوبة، بعدما سيطر الخوف والفزع عليهما تمامًا، حتى أن فهد غطى أذنيه بقوة من شدة صوت الزئير المتتالى.

استرق مالك النظر إلى مصدر الصوت بحذر، حتى لمح التنين واقفًا هناك، يدور بين صخور الوادي بغضب، محاولًا الوصول إلى ذلك المتطفل الذي تجرأ على القدوم إلى معقل التنين الأحمر. كان هو فيدار بالفعل، نفس التنين الكبير الذي هاجمهم في بحر الشمال، ينفث دخانًا كثيفًا من فمه المخيف مستعدًا للهجوم، ويتحرك في كل مكان بحثًا عن فريسته الجديدة.

أخرج مالك الماسة ثم أشار إلى فهد بالابتعاد قليلًا، فانسحب بهدوء، لكن ظلت عيناه متعلقة بصديقه، تفيد بصمت ثقيل فيه رجاء وخوف، كأنها تتوسل إليه ألا يخطئ، وإلا سوف ينتهي كل شيء. ثم توارى خلف صخرة أخرى منتظرًا.

سرعان ما استخدم مالك الماسة ليعود إلى الماضي في الحال، فتح عينيه بسرعة، وقف بثبات، تحرك إلى حيث كان فيدار، لكنه لم يكن هناك. تقدّم إلى الأمام مرة أخرى بعدما

سمع صوت زئير جديد بالقرب منه، حتى شاهده يهبط من السماء بسرعة كبيرة، اختفى بعدها خلف حافة الجبل، فتقدّم نحو تلك الحافة بحذر، ثم توقف فجأة قبل أن يصل إليها بعدما برز رأس فيدار إلى الأعلى أمامه.

وقف مالك قبالته ينظر إلى عينَيه السوداوين، وصفوف أسنانه المدببة، شعر بالخوف من جديد على الرغم من إدراكه لعدم رؤية فيدار له، لكنه تابع تحركاته بدقة بعدما هبط أمامه مستعملًا جناحيه العملاقين، وتقدّم نحو أحد الكهوف العملاقة المظلمة داخل الجبل.

عاد مالك مرة أخرى إلى حيث كان، خبأ الماسة من جديد، ثم نظر إلى فيدار لكنه كان قد اختفى من هناك، حاول التسلل بحذر نحو ذلك الكهف المظلم حتى اقترب من الوصول إليه، لكن فاجأه فيدار تلك المرة بهدير حاد في وجهه، فتح فمه بعد ذلك نافثًا منه نيرانًا حارقة صوبه، أحدثت انفجارًا صغيرًا حيث كان، إلا أنه لم يجد مالك بعد زوال الدخان. كان قد هرب من أمامه بأعجوبة، وركض مسرعًا بأنفاس لاهثة ليختبئ في ذلك الكهف الكبير، حتى دخل إليه واختفى خلال الظلام الحالك.

كانت عيناه تراقبان مدخل الكهف برعب شديد، آملًا ألا يجده فيدار في تلك الأثناء، لكن فجأة زمجر شيء من خلفه بقوة، تجمدت قدماه في مكانها لثوانٍ، قال في نفسه:

- يبدو أنني هالك لا محالة!

التفت بعدها بأنفاس متسارعة محاولًا تبيّن الأمر، حتى شاهد شيئًا عجيبًا لم يكن ليتخيله أبدًا. كان هناك تنين أحمر

اللون، حجمه يقارب حجم الفرس تقريبًا، ظهر على أحد جناحيه جرح كبير مفتوح، ولاحظ أن أحد قدميه تنزف هي الأخرى بشدة، بدا عليه الضعف الشديد، وأشار تغيّر صوته إلى أن نهايته باتت وشيكة.

لم يتردد مالك. خلع رداءه بخفة، مزّق من نهايته قطعة كبيرة، وبدأ في تضميـد تلك الجراح بهدوء. زمجر التنين في البداية مقاومًا حتى جرحه في يده عدة مرات، لكن حاول مالك تهدئته بلمـس جناحه برفق حتى خفت أنفاسه، وانحنى له برأسه. قال مالك بعد انتهائه:

- عليك أن تنال الآن قسطًا من الراحة أيها الصغير!

وقبل أن يُكمل جملته اندفع فيدار من مدخل الكهف نحوه بشكل مفاجئ حتى حصره عند الجدار، فتح فمه حتى نهايته، زأر لمرات بشدة لذلك الغريب الذي حاول دخول كهفه الكبير، والاقتراب من صغيره المصاب. وقبل أن يلتقم تلك الوجبة السهلة التي أتت إليهما بلا عناء، توقف فجأة، نظر إلى ذراع مالك المصابة بعينيه الغائرتين، اقترب بفتحات أنفه الكبيرة يشتم تلك الدماء التي غطتها بالكامل، بعدما اختلطت دماء جراح الصغير بدمائه في أثناء معالجته، التفت نحو صغيره من جديد حتى لاحظ جراحه المضمّدة، لكن ارتطمت رأسه في أثناء ذلك بسقف الكهف فتساقطت منه بعض الصخور الصغيرة وأصابت إحداها رأس مالك مباشرة، فخر مغشيًا عليه في الحال.

مرت ساعة رمليّة أخرى انتظر فيها فهد صديقه بتوتر، كانت تصله أصوات فيدار باستمرار قبل ذلك، لكن لم تعد أذناه

تلتقط المزيد، أدرك في تلك اللحظات أن مالك ربما يكون قد أصابه مكروه، أو على الأغلب قد فارق الحياة، تساقطت دموعه بهدوء عندما فكر بالأمر، لكنه أراد التأكد من ذلك قبل قيامه بأي شيء.

تقدّم بحذر ناحية الوادي مرة أخرى، ثم توقف في مكانه حين سمع صوت رفرفة أجنحة يقترب منه شيئًا فشيئًا، نظر إلى السماء مستعينًا بآخر ضوء لشمس ذلك اليوم، حتى رأى فيدار يهبط أمامه كنيزك مشتعل، وبين جناحيه كان هناك فارس يمتطيه. اتسعت أعين فهد في ذهول، كان قد سقط أرضًا بعد هبوط التنين، لكنه قام مسرعًا ليصرخ مرارًا في ذهول محاولًا تصديق الأمر، حتى تمالك نفسه قليلًا، وهمس وهو يرى مالك ممتطيًا تنينًا هائل الحجم أمامه:

- لقد تحققت بالفعل!

ثم صاح بعلو صوته:

- المحارب مالك، فارس نسل البشر، حامل ماسة أريانا، وسيد التنين الأحمر فيدار، إلى أين المسير الآن؟

أشار له أن يصعد، تردد فهد قليلًا، لكنه ركب خلفه في النهاية بعدما تسلقه بصعوبة بجسده القصير، ربّت على كتف مالك بشدة، واطمأن على ذراعه المصابة بعدما أخبره مالك أن التنين قد خضع له بعد اختلاط دماء صغيره به، وبعد فقدانه الوعي فتح عينيه ليجد فيدار قد سحبه إلى الخارج واستمر في تحريكه برفق، محاولًا إيقاظه. كان الأمر مخيفًا في البداية، لكنه تحول إلى فرح عارم بعدما أدرك خضوعه له.

نظر مالك أمامه إلى فيدار، لمس رقبته الطويلة برفق حتى

أصدر فيدار هديرًا منخفضًا عدة مرات، ثم صاح قائلًا:

- فالارا!

أقلع فيدار بهما سريعًا نحو قلب السماء، يرفرف بجناحيه بقوة، ويزأر بشدة، اختل توازنهما في البداية، لكنهما تمالكا نفسيهما سريعًا وأمسكا بتلك الأشواك الممتدة على ظهره بإحكام. كان مالك يوجهه عند الضغط بيده على جانبيه، لكنه كان ينصاع إلى الأوامر بصعوبة، صاح فيه محاولًا اختبار قوته:

- فيدار، كيرا!

نفث نيرانًا هائلة من فمه، امتدت من أعلى السماء إلى أحد الجبال في الأسفل محدثة انفجارًا ضخمًا سمعا صدى صوته بوضوح. حاول النفث من جديد، لكن كان مالك قد أمره بالتراجع مستخدمًا كلمات سروران. مرّا من فوق غابة تيجا عن قرب، ليُرفرف بجناحيه الكبيرين فوقها، فعلت من داخلها صيحات الأقزام عند ملاحظتهم لراكب التنين، يهتفون معًا من كل مكان:

- تحققت النبوءة، تحققت النبوءة!

***

16

طبول الحرب

وصل فيدار إلى سماء ألميريا صباح اليوم التالي، بعدما قطع في تلك الليلة مسافات شاسعة، حلق خلالها عبر الغيوم الملبدة بلا كلل. رغم ذلك، كان الإرهاق واضحًا على ملامح مالك وفهد بعدما أتعبهما الطيران فوق التنين كثيرًا، لكن مع رؤية مالك لاقتراب القلعة الشامخة في الأسفل، ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه، ثم قال في نفسه:

- لم أكن قطُّ صاحب نبوءة!

- تحايلت على الأمر باستخدام الماسة، وامتلكت أقوى تنانين أرض الماس بمداواة تنين صغير.

- لا تهمني النبوءة! كل ما يهمني الآن هو الانتصار.

التفت فيدار برأسه فجأة، نظر بعينيه الكبيرتين إليه كأنه شعر بما كان يحدث به نفسه، التقت عيناهما طويلًا في تلك الأثناء لتتبادلا آلاف الكلمات في صمت. أدرك مالك سريعًا بأن فيدار يشعر به ويُمثل على ذلك الأساس لأمره، ربّت على جسده بشدة وشعر بمسؤولية تجاه ارتباطهما، فقد اختلطت دماؤه بدماء سلالته وأصبح مصيرهما واحدًا. قطع حديث عيونهم ظهور القلعة تحتهم تمامًا، فصاح قائلًا:

- نيفارا!

على الرغم من شجاعة فهد وبسالته المعروفة، إلا أن خوفه من ركوب تنين شرس كان الشعور الطاغي على ملامحه، خصوصًا مع سماعه لتلك الكلمات الغريبة التي يصرخ بها

صديقه بين الحين والآخر. كان مدركًا بأنه لولا وجود مالك إلى جواره لما كان ليتجرأ قط على الاقتراب من مثل هذا الوحش الكبير، لكن كانت كلمات صديقه المطمئنة طوال الوقت تدفعه على مواصلة المسير.

وصل فيدار فوق القلعة خلال دقائق معدودة، استمر بالدوران فوقها لبضع ثوان، ثم اقترب فجأة منها حتى دوّى صوت جناحيه عاليًا وتردد صدى صوته عبر ساحة القلعة، فتراجع الحراس إلى الداخل سريعًا، وتراكض أهل ألميريا في خوف.

هبط مالك أمام باب القلعة، ونزل مع فهد سريعًا قبالته في ترقُّب، وقف أمام تنينه الذي استمر هديره في الدوي عاليًا، ليعلم الجميع بأنه قد أصبح خاضعًا لسيده، ثم تحرك لعدة خطوات مناديًا على الحراس. أطَلّ أحدهم برأسه من الداخل، وأتى بحذر بعدما طمأنته كلمات مالك، طلب منه إخبار الأمير بوصوله، أحنى رأسه احترامًا وانطلق إلى الداخل سريعًا.

تجمع المئات من أهل ألميريا بالقرب من القلعة مرة أخرى، انفجرت بينهم الهمسات والتكهّنات، وعَلت حولهم صِيحات متفرقة من شدة الذهول، تطالع عيونهم التنين الأحمر في خوف، ويغمُرهم الكثير من الاندهاش. كانوا يتساءلون بقلق:

- هل هي النبوءة؟

- ومن هذا الذي يمتطيه؟

من بين الحشود خرجت لين وتيا سريعًا، التفت مالك خلفه بعدما نادته زوجته بصوتها الرقيق، كانت واقفة بثبات، تتأمله بعينين تفيضان بالمشاعر، وابتسامة خافتة ارتسمت على

وجهها. تنظر إليه تارة، وتُمعن النظر في التنين الكبير بجواره تارة أخرى، وكذلك فعلت تيا. لم يتردد لحظة، خصوصًا مع تأخر قدوم الأمير بهرام، اندفع نحوها بسرعة، واحتضنها بقوة وسط ذهول الجميع، تنهد وهو يغمُرها بذراعيه قائلًا:

- لقد عدت.

ثم نظر إلى فيدار قائلًا:

- لكن ليس بمفردي تلك المرة!

سألت بعدما لمحت الدماء على ذراعه:

- ما هذه الجروح؟ هل أنت بخير؟

أومأ برأسه مطمئنًا، ثم التفت إلى تيا، ابتسمت له ولِفهد حين صافحاها بحرارة. قالت وهي تتأمل التنين برهبة وحماس:

- لقد فعلتها إذن!

- نعم! لكن لا يزال طريقنا طويلًا.

قالها مالك، ثم سألها:

- ماذا عن فارس ويزيد؟

ظهرت مشاعر القلق على وجهها وأجابته بعد تنهيدة:

- لا جديد حتى الآن، ما زلنا ننتظر عودتهما.

أجابها حينما لمح الأمير بهرام قادمًا بين حراسه:

- سيصلان قريبًا، ليس لدي شك في ذلك!

ثم توجه نحوه أمام الثلاثة محييًا إياه بتحية رسمية. نظر الأمير إلى فيدار أولًا، وقد اتسعت عينيه بدهشة عميقة من

هيئته المهيبة، حيث كانت تلك المرة الأولى التي يظهر فيها عن قرب، ثم حدّق طويلًا إلى مالك، انحنى بعد ذلك برأسه احترامًا قائلًا:

- قوة كتلك لا تكون إلا لصاحب نبوءة حقيقية.

- إذا تحالفنا معًا، سنقضي على خطر نذير سريعًا!

أجابه بثبات:

- لا تنتصر النبوءات بمفردها أيها الأمير، علينا الاستعداد أولًا!

فكّر للحظات ثم قال:

- أعطني قيادة جيشك لأتم هذا الأمر.

- هو لك!

قالها بهرام من دون تردد، ثم أردف:

- لكننا لن نقاتل بمفردنا أيضًا. سأبعث برسائل إلى مرمرة ونارين طالبًا الدعم.

رد مالك بصوت منخفض بعدما نظر حوله:

- مثل تلك الأمور لا تُناقش أمام أبواب القلعة.

- سأنتظر قدوم المحاربين فارس ويزيد من فيونا، ثم آتي إليك بعدها من أجل التشاور.

- من فيونا؟

سأل الأمير بدهشة، فأجابه:

- أرسلتهما من أجل تلك المهمة التي طلبتها من قبل.

أومأ الأمير في صمت معجبًا، نظر إلى فيدار مرة أخرى مبتسمًا مع صوت زئيره المتتالي، كأنّه كان يستمع لإحدى المقطوعات الموسيقية في أحد خانات ألميريا، ثم دخل إلى قلعته من جديد.

***

دَاخِل نُزل ألْمِيريَا، أضَاءت لِين مَزيدًا مِن الشموع الكبيرة في تلك الليلة، بعدما وضعتها فوق طاولتين صغيرتين توزعتا على اثنين من زوايا غرفتها الواسعة، وذلك بعدما انضم إليهما فهد وتيا من أجل تناول بعض الطعام معًا. كانت ليلة دافئة عن سابقتها، استمتعا خلالها بتبادل أطراف الحديث وطهي الكثير من لحم البقر اللذيذ، حتى لمح فهد قيثارة صغيرة وُضعت في أحد أركان الغرفة. أتَى بها على الفور وقد علا ابتسامة كبيرة وجهه، كأنه قد وجد كنزًا ثمينًا هناك. ابتسم مالك قائلًا بعدما رشَف رشفة كبيرة من الشاي الساخن أمامه:

- وجدتُ في ألْمِيريَا شيئًا تحبه أخيرًا!

- اسمعنا بعضًا من مقطوعات إيستوريا، أشتاق إلى ذلك كثيرًا!

بدأ فهد في تحريك أصابعه على أوتار القيثارة ببراعة، محاولًا استغلال هذا الوقت الهادئ في الغناء، والترويح عنهم قليلًا بعد كل تلك الأحداث الماضية. امتلأت آذانهم بمزيج بديع من صوت فهد الجميل المختلط بنغمات أوتار القيثارة العذبة، واستمروا في ذلك لبعض الوقت حتى غلبهم النوم في أماكنهم في النهاية.

- استيقظ!

فتح فهد عينيه بصعوبة محاولًا تمييز ذلك الصوت، واستمر ذلك للحظات حتى أحس بوجود أحدهم إلى جواره، وضع يده سريعًا على مقبض سيفه محاولًا إخراجه، لكنه تفاجأ بسيفين آخرين وُضعا على عنقه في آن واحد، ظن أنه يرى حلمًا سيئًا فحك عينيه قليلًا ثم نظر مرة أخرى حتى أدرك كل شيء.

كان أمامه ستة رجال ملثّمون، يحملون سيوفًا حادة وضعوها على رقاب الأربعة، أحدهم ضخم الهيئة، يلبس قبعة سوداء على رأسه ميزته عن الخمسة الآخرين، وقد وضع سيفه بإحكام على عنق مالك، قال له بصوت أجش في النهاية:

- سلّمنا الماسة، وسنترككم على قيد الحياة!

نزلت تلك الكلمات على الأربعة كالصاعقة، واستمروا بتبادل النظرات فيما بينهم في ذهول، يتساءلون عن سبب ذلك الهجوم، ويتعجبون من معرفة هؤلاء الغرباء بالماسَة، لكنهم كانوا مدركين للتبعات السيئة التي قد تحل بمهمتهم حال تسليمها لهم، وأصروا على مواجهتهم حتى النهاية.

أشار لهم مالك بعينيه سرًا، فأومأ فهد وتيا بهدوء، وهزت لين رأسها لتبدِي استعدادها، ثم بدأ كل منهم يَدنُو من سيفه بخفة، محاولًا إخراجه في حركة خاطفة.

لكن فجأة، وقبل أن تبدأ أي معركة، انقض قائدهم بنفسه على أحد رجاله من الخلف، واضعًا السيف على عنقه وسط نظرات الجميع، ثم مرره بقوة حتى سقط صريعًا في الحال، بعدما تردّد صوت السيف في أرجاء الغرفة. سحب الأربعة

سيوفهم معًا وسط صدمة بقية الملثمين، وانهالوا عليهم بضربات متتالية بمساعدة ذلك الرجل الضخم، حتى تساقطوا تباعًا غرقى في دمائهم، وقبل أن ينطق قائدهم بكلمة كانت أطراف سيوف الأربعة قد وُضعت على عنقه هو الآخر، فجلس على ركبتيه أمامهم دون مقاومة.

- من أنتم؟

- وكيف عرفتم بالماسَة؟

قالها مالك بصوت عالٍ، فأجابه بهدوء:

- لا تخلط بيني وبين هؤلاء الجواسيس يا مالك!

رفع رأسه بعد ذلك وسط استغرابهم من معرفة اسمه، وعم بينهم صمت دام لبضع ثوانٍ، إلى أن حاول تحريك يديه فصرخت فيه تيا محاولة تحذيره، لكنه وضعها على غطاء وجهه وأزالها ببطء شديد، حتى بدأت ملامحه في الظهور شيئًا فشيئًا. صرخت لين:

- لا يمكن! هل أنت...؟

قال فهد بصوت متقطع حمل بداخله ألف سؤال:

- كنان!

سأله مالك هو الآخر بعدما حرك سيفه بعيدًا:

- ماذا تفعل مع هؤلاء أيها القبطان؟

- وكيف نجوت من عاصفة بحر الشمال!

ابتسم كنان ابتسامة باهتة طويلة، ثم قال:

- بعدما غرقت العنقاء، كنت من بين من لفظهم البحر إلى

الشمال. لكن بمجرد أن وصلت إلى ساحل فيونا وقعت أسيرًا في قبضة الأمير نذير.

روى لهم كنان كل ما حدث معه منذ وقوعه في الأسر، مرورًا بوجوده إلى جانب فهد ولين، وحتى تظاهره بالولاء لنذير محاولًا خداعه بأمر الماسة، بعدما أدرك أنها أملهم الوحيد في النجاة من هناك. قاطعته لين قائلة بصوت امتلأ بالشك فيما قال:

- لكنك تركتنا هناك بمفردنا، وانضمت إلى نذير سرًّا! عن أي خداع تتحدث أيها القبطان؟

ابتسم لهما بهدوء قائلًا:

- وكيف تظنان أنكما هربتما من هناك؟

- هل تعتقدان أنه كان بإمكانكما المغادرة من غير مساعدة!

تذكرا على الفور ذلك الجندي في فيونا، وأصابتهم الحيرة في أمره من جديد، لكن لم يدم ذلك طويلًا بعدما أخبرهم كنان بحقيقة الأمر.

في ذلك اليوم، بعد انتهاء اجتماعه مع الأمير نذير، شاهد في أثناء خروجه مثول أحد الجنود أمامه، فأبطأ حركته قليلًا في أثناء مغادرته محاولًا تبيّن الأمر، حتى أدرك أنه أحد حراس سجن القلعة، انتظر خروجه من بعده حتى قابله في أحد الأروقة بعيدًا عن أعين الموجودين. طلب منه المساعدة في تهريب السجينين الآخرين، لكنه رفض بشدة في البداية، وبعد محاولات صعبة من عقد اتفاق خطير، وافق أخيرًا مقابل الحصول على شيء ثمين كانت بحوزته.

تساءلت تيا بفضول:

- كيف امتلكت شيئًا ثمينًا بعد نجاتك من السجن؟

- أعطيته سنة ذهبية حاولت إخفاءها طوال الوقت داخل فمي!

- وطلبت منه أن يُخرجهما سرًا دون أن يُخبرهما بأمري.

رفع فهد حاجبيه فجأة:

- تلك السنة! رأيتها بين أسنان الجندي هناك!

قاطعه مالك بعدما نزل على ركبتيه إلى جواره قائلًا:

- ولماذا لم تهرب معهما؟

تابع كنان:

- لم يكن ذلك الأمير الظالم ليتركني أذهب بتلك السهولة!

- بعد نجاتي، شعرت بالندم كثيرًا على كل ما فعلته على متن العنقاء، بعدما تملكني الطمع، وغرّتني قوة الماسة كثيرًا.

وضع يده على كتف مالك ثم قال:

- كان الموت قريبًا جدًا مني في بحر الشمال، أردت أن أكفّر عن أخطائي بعدما أعطاني القدر فرصة ثانية.

أخبرهم بأن نذير يريد الماسة بشدة قبل بداية الحرب، لذلك أرسله على رأس هؤلاء الجواسيس من أجل إتمام الأمر، خصوصًا بعدما قرّبه إليه كثيرًا طمعًا في الوصول إليها، وقد وصل الأمر لإعطائه مهمة قيادة إحدى مجموعات جيشه بمجرد عودته من ألميريا، وذلك من أجل أن يكون تحت ناظريه دائمًا، لكنه أرسله بنفسه في النهاية إلى حيث أراد،

حيث اجتمع بمالك ومن معه أخيرًا.

هز مالك رأسه عدة مرات بعدما استغرق في التفكير مليًا، ثم قال بعدما وقف معتدلًا ومدّ يده إلى كنان ليوقفه قبالته:

- عد إلى نذير، ونفّذ ما طلبه منك.

قاطعه كنان على الفور:

- لو عدت إليه سيضرب عنقي في الحال، لقد نجوت منه بأعجوبة، وأديت واجبي بإنقاذكم!

رد مالك:

- ليس بعد! إن أردت إصلاح كل ما أفسدته حقًا، عليك أن تعود مجددًا، وسوف تجد طريقة ما لتنال ثقته من جديد.

تساءل كنان:

- وماذا أفعل بعد ذلك؟

عَلت ابتسامة جادة وجه مالك ثم أجاب:

- قد مجموعته في الحرب القادمة.

- وحين تبدأ المعركة، افعل ما يلزم.

قالت لين مازحة:

- لديك من الدهاء ما يكفي لخداعه أيها القبطان!

قاطعتها تيا:

- لكن، إياك والاستسلام لأهوائك من جديد.

بدت خطة مالك واضحة لكن كنان، لم يرد، اكتفى بالجلوس طويلًا لقرابة نصف ساعة رملية كاملة، استمر خلالها في

اطلاعهم على المزيد من أمور فيونا، صافحهم بحرارة بعد ذلك، وهم نحو الباب مسرعًا، لكنه صادف فارس ويزيد في أثناء وصولهما، فهز لهما رأسه محييًا وغادر من حيث أتى متخفيًا من جديد.

ظهر الفرح جليًا على الوجوه بعد عودة صديقيهما من فيونا، نادت تيا على شقيقها بصوت مسموع، وخفق قلبها بشدة عند رؤية فارس. عانقها يزيد بحرارة، وابتسم لها فارس بخجل، ثم صافحا مالك وفهد بعدها، وجلسوا معًا بعدما تجمعوا من جديد، سأل فارس بقلق وقد ظهر الاستغراب في نبرات صوته:

- هل هذا كنان؟

أومأ له مالك برأسه وقص عليهما ما جرى قبل قليل، لكنهما كانا متعبين بعد وصولهما من ذلك الطريق الطويل، وتملكهما الجوع والعطش الشديد، فلم ينطقا ببنت شفة على الرغم من ظهور التوتر في عيونهما، تناولا طعامهما بهدوء أولًا، ثم بدآ في سرد ما تم خلال مهمتهما، إلى أن اتفقا في النهاية على مناقشة الأمر مع الأمير في الصباح.

***

قلعة ألميريا، صباح اليوم التالي.

جلس مالك ومن معه على طاولة كبيرة جمعتهم بالأمير بهرام، سألهم في البداية عمّا حدث في فيونا فأشار مالك إلى فارس بإطلاعه على الأمر. بعد تسللهما بالقرب من قلعة فيونا، توجها صوب مخزن كبير عند أطراف القلعة كان يزيد يعرف بوجوده منذ أن كان تابعًا لنذير. امتلك ذلك المخزن كثيرًا من

عتاد الحرب، مئات من الأسلحة والدروع، كميات هائلة من زيّ المجانق الحارقة، وآلاف من ملابس الجنود. كان هناك العديد من المخازن المشابهة بالجوار، لكن مهاجمة أحدهم كانت كفيلة للنيل من قوة الأمير نذير.

قال يزيد تلك المرة بثبات:

- قمنا بالتسلل والإجهاز على بعض الجنود المتركزين خلف ذلك المخزن، ثم صببنا بعض الزيت الحارق ليمتد من براميل الزيوت بالداخل حتى مسافة قريبة بالخارج.

أردف فارس بعد حديث يزيد، قائلًا بحماس:

- كان عليكم أن تشهدوا تلك اللحظة، فقد اندفعت ألسنة النار في خط متصل عبر الزيت حتى وصلت إلى البراميل، ليتبعها انفجار هائل عانقت قمته السماء في لحظة خاطفة. هربنا مسرعين بعد ذلك الصوت الهائل الذي هز الأرض بقوة، وأفزع جنودهم بشدة.

- وماذا عن نذير؟

قالها الأمير، فأخبره يزيد بأنهما لم يقابلاه وجهًا لوجه، لكنهما عرفا في اليوم التالي بعد اختبائهما بين أهل فيونا قراره بتعجيل الحرب، والسير بجيشه نحو ألميريا، بعدما أعدم الجنود الناجين عند ذلك المخزن بعد الحادث. ربما يصل إلى ألميريا خلال خمسة أيام على الأكثر.

ساد الصمت للحظات، ثم وقف الأمير قائلًا بثبات:

- لا وقت لدينا إذن! ولا مفر من القتال.

أجابه مالك:

- سنقود الجيش للانتصار، وبعدها سنعود إلى أمر سردار.

سألت تيا بقلق:

- ماذا عن مرمرة ونارين؟

- تلقيت جوابهم في الصباح الباكر!

- سينضمون إلينا في وقت لاحق قبل بداية الحرب.

قالها الأمير، فسألت لين:

- هل أنت متأكد من ولائهم أيها الأمير؟

أجاب بعد تنهيدة:

- لا، لكنهم يكرهون نذير أيضًا، وامتلاكنا لفيدار إلى جانب فالينار سيكون كافيًا لإقناعهم بالقدوم.

- ثلاثة تنانين مقابل سيفار الشرس!

قاطعه مالك منبهًا:

- لا تنسَ وجود أمراء الجان أيضًا بجوار نذير.

أجابه بثقة:

- ليكن ما يكون، لم يعد هناك سبيل للتراجع بعد الآن.

انطلق المحاربون بصحبة الأمير نحو معسكر جيش ألميريا في تلك الأثناء، حتى بلغوه بعد ساعة رملية واحدة، توقفوا ليشاهدوا آلافًا من المحاربين والجنود، يتدرّبون بشكل قاسٍ في مجموعات، ويتبارون بخيولهم في كل مكان. وعلى مسافة بعيدة قليلًا وقف فيدار وفالينار إلى جانب بعضهما البعض، أصدروا هديرًا حادًا تردّد صداه في الأرجاء عند رؤيتهما لمالك وبهرام، في أثناء ما كانا يتناولان لحوم بعض الفرائس التي اصطاداها بمفردهما من الجوار.

قال فارس لمالك:

- ليكن ذلك التنين الكبير سبيلًا لك لهزيمة الأعداء.

ربت مالك على كتفه شاكرًا، ثم انطلق معهم نحو خيمة أقامها الجنود للأمير، للبدء في وضع خطة مناسبة لتلك الحرب القريبة.

***

في صباح اليوم الخامس لتحرك جيش فيونا، كان جيش

ألميريا قد وصل إلى سهل الشمال، الواقع بين غابة ميرا وغابة الماس شمال بحيرة المرمَر، حيث تم الاتفاق على مواجهة نذير هناك. اصطفّت الجيوش أمام مالك وبهرام في نظام، ترفرف حولهم رايات ألميريا بقوة بفعل الرياح الباردة في تلك اللحظات. كانت السماء ملبدة بالغيوم، تتسلل أشعة الشمس بصعوبة خلالها بين الحين والآخر، لتنعكس على السيوف اللامعة ورؤوس الرماح الطويلة، لكن لم يمنع ذلك الأمير بهرام من المضي قدمًا والحديث مع جيشه:

- جنود ومحاربين ألميريا البواسل!

- لقد وضع نذير عينيه على أقاليمنا الجنوبية منذ قدومه.

- وقد عانينا كثيرًا من أفعاله الظالمة.

- والآن، حانت تلك اللحظة التي انتظرناها طويلًا.

تحرك مالك إلى جواره، استل سيفه عاليًا ثم صاح قائلًا:

- ليست تلك المرة الأولى التي يواجه فيها البشر ظالمًا مثل نذيرا

- الشر والظلم لن ينتهيا أبدًا.

- لكن عندما يأتي، يجب أن نكون له بالمرصاد.

- استعدوا، قاتلوا حتى النهاية.

- من أجل ألميريا، من أجل أرض الماس!

تعالت الهتافات في تلك الأثناء، ورفع الجنود سيوفهم عاليًا بحماس، خصوصًا بعدما شاهدوا رايات جيش فيونا قادمة من بعيد. أما مالك وبهرام، فقد ذهبا سريعًا ليمتطيَا

تنينَيهما استعدادًا للانطلاق، بعدما أعطى مالك قيادة الجيش لأصدقائه. نظر إلى عيني فيدار، تمتم قائلًا بصوت منخفض:

- لتبدأ معركتنا الأولى معًا.

- فالارا!

***

17

معركة الحديد والنار

على الجانب الآخر من سهل الشمال، وقف جيش فيونا مصطفًا في مجموعات بانتظار الأوامر، ومن أمامهم امتطى الأمير نذير تنينه الأسود سيفار محاولًا طمأنته قبل انطلاقهما. كانت رايات فيونا السوداء تخفق بقوة حولهم، تصور مثلثًا مقلوبًا أبيض اللون يشير إلى مملكة كبرى لها سيادة على الجنوب كله؛ الحلم الذي طالما راود نذير منذ قدومه إلى فيونا، حتى بدأ آخر خطواته لإسقاط عدوه الأكبر، ألميريا. وفي قلب المثلث تنين أسود اللون يرمز إلى قوة سيفار. صرخ نذير في وزيره بغضب:

- أريد رأس بهرام قبل غروب شمس هذا اليوم!

أومأ الوزير بخضوع بعدما رمق سيفار بخشية:

- سمعًا وطاعة، سيدي.

وقف القبطان كنان على رأس فرقة صغيرة من الجنود، ينتظر بتوتر أوامر نذير، ويراقب بقلق تحركات جيشه الكبير، ينظر باستمرار إلى أعين جنود البشر حوله، ويشفق عليهم مما ينتظرهم بعد قليل، إلى أن لَمَح قدوم عدة مجموعات صغيرة من جنود الجان يقتربون في صمت تام. كانت تلك المجموعات تتبع إقليمي كيرا ونيسا الشماليين حسبما سمع، يلبس جنودها دروعًا فضية خفيفة، مع أقنعة من القماش رمادية اللون غطت الوجه فقط، لكن بقيت آذانهم المدببة وشعرهم الأحمر ظاهرين بوضوح.

اقترب الوزير قائلًا للأمير:

- سيدي، لقد تلقينا خبرًا من جواسيسنا في ألميريا!

أكمل بعدما أشار له الأمير:

- الغريب القادم من الشمال، تمكن من السيطرة على أحد حراس ألمَاشيَا.

- لم يبق حراس في ألمَاشيَا بغير راكب، أي حارس تقصد؟

- فيدار!

تغيرت ملامحه كثيرًا، ضغط بيده على جسد سيفار بقوة، وصمت للحظات طويلة محاولًا كبح جماح غضبه، خصوصًا بعدما نظر ناحية كنان وتذكر فشله في الحصول على تلك الماسة، تنهّد بقوة بعد ذلك قائلًا:

- فليكن!

- قمت بحساب كل شيء، لن نترك أحدًا منهم على قيد الحياة.

لكنه كان داخله لا يزال مشتعلًا كنيران تنينه، وأراد بشدة القضاء على فيدار وراكبه بأي وسيلة كانت. رفع سيفه عاليًا حتى انتبه له الجميع، وشرع بعض الجنود في دق طبول الحرب تدريجيًا إلى أن ارتفع صداها عاليًا، ثم بدأ في تحذيرهم من عصيان الأوامر، أو محاولة الهروب في أثناء المعركة. حثهم على الفتك بجيش ألميريا والقضاء على جنوده بلا رحمة، ومن يفعل عكس ذلك سيجد نفسه في مواجهة نيران سيفار على الفور. أنزل يده سريعًا مشيرًا ببداية الهجوم، وانطلق به سيفار نحو قلب السماء بزئير دوى

بين الغيوم.

تحركت الصفوف على الجانبين سريعًا، يسبق محاربوهم الأرض فوق الخيول، ويَركض جنودهم على الأقدام وسط صيحات حماسية أشعلت القلوب. في تلك الأثناء أمطرت فرقة لين صفوف فيونا بوابل من السهام، حتى تساقطت سريعًا كالأمطار فوق رؤوسهم، إلا أن رُمّاة فيونا بادلوا بوابل مشابه قتل الكثير من الجنود، واستمر ذلك لدقائق، تلاها اجتماع القوتين بقوة، واشتبكت ساحة المعركة بصليل الحديد.

أما كنان، فقد كان يتلاشى قتال جنود ألميريا بسيفه، استخدم يديه ليُوجّه لهم ضربات غير مميتة عندما يلاقِيه أحدهم، يتظاهر بالقتال إلى جانب جنود فيونا، لكنه يطعنهم خلسة كلما سنحت له الفرصة، يرى في قتلهم تكفيرًا عن أخطائه السابقة، ويحزن في نفس الوقت عند قتال بني جنسه، يحدث نفسه بين الحين والآخر:

- لا أريد مواجهتكم، لكنكم استبحتم دماءنا أولًا!

إلا أن شعوره كان مختلفًا عند مواجهته لجنود الجان، أراد التخلص منهم بشدة بعدما أدرك خلال تواجده في فيونا بأنهم سبب تلك الحرب بين البشر، وأن الأمير نذير ما هو إلا وسيلة لتنفيذ ذلك.

هبط سيفار من السماء بشكل مفاجئ، حلق بجناحيه الكبيرين فوق قلب المعركة، ثم انحرف صوب ميمنة جيش ألميريا، فتح فمه بعد أمر سيده، ثم نفث منه نيرانًا هائلة نحوهم، حتى ارتفعت ألسنة اللهب في تلك النقاط عاليًا،

وعَلت صرخات الجنود بعدما أمسكت في أجساد الكثير منهم.

اتجه نحو ميسرة الجيش تلك المرة باتجاه جنود تيا، وسط هديره المدوي، لكنها انتبهت لقدومه سريعًا، صرخت قائلة:

- التنين قادم، ابتعدوا من هنا في الحال!

تفرّق الكثير من الجنود في اللحظة الأخيرة بعيدًا، إلا أن النار أصابت بعضهم في النهاية. لمحه مالك وبهرام من الأعلى فاتجه نحو فيدار وفالينار بسرعة خاطفة، لكن يبدو أن نذير كان ينتظر قدومهما، ابتسم خفية قائلًا:

- اقتربا! لم تريا شيئًا بعد.

انسحب على الفور تاركًا المعركة من خلفه، حيث حلّق عاليًا نحو السماء، ثم اختفى من جديد. فاستمر مالك وبهرام في البحث عنه لبعض الوقت بعدما ظنّا أنه قد هرب منهما.

كان يزيد على رأس ميسرة الجيش، يقاتل بجسارة، ويوجّه أوامره إلى الجنود بين الحين والآخر، خصوصًا بعدما أشعل نذير تلك الجهة قبل قليل، وأهلك عندها الكثير. إلا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة الفتك بمزيد من بشر فيونا المعتدين، وجان الشمال الطامعين. استمر بترديد كلماته الحماسية لهم:

- اثبتوا! لن تسقط ميسرة هذا الجيش أبدًا.

- واجهوههم بجسارة.

لكن فجأة، بينما كان القتال محتدمًا، ورائحة الدم تغطي الأجواء، خرجت بأقصى سرعة كتيبة كاملة من فرسان الجان من بين أشجار غابة ميرا على الجانب الشرقي لسهل الشمال، بعدما اختبأوا طوال الليل هناك في انتظار اللحظة المناسبة.

اخترقوا صفوف جنود يزيد بقوة، واشتبك القتال في الجناح الأيمن بشدة، حتى بدأ الجنود في التساقط تباعًا، فلم يجد يزيد مفرًا من التراجع، صرخ في جنوده بأعلى صوته:

- تراجعوا إلى الخلف!

- علينا تنظيم الصفوف من جديد!

كان مالك وبهرام قد أعطيا فارس قيادة الجيش على الأرض، وقد أدرك خطورة الموقف في تلك الأثناء بعدما اتضحت معالم خطة نذير أمامه، نظر حوله حتى لمَح فهد بالقرب منه يُبارز أحد البشر الأقوياء لوقت طويل، كان قصر قامته يمنعه من ضرب عنقه سريعًا، لكنه تحايل على الأمر في النهاية بعدما أصابه في كلتا قدميه حتى سقط أمامه جاثيًا، ثم ضرب صدره بقوة حتى انهال على وجهه أرضًا، صاح به فارس بعدما أشار ناحية يزيد:

- بسرعة، أرسل بعضًا من المحاربين!

سحب فهد بعضًا من قواته من القلب لدعم الجناح الأيمن، حيث انطلقت مجموعة من المحاربين صوبهم بأقصى سرعة، وكان ذلك أكثر ما أراد نذير حدوثه ضمن خطته الماكرة. ففي خضم تلك الفوضى العارمة التي أصابت جيش ألميريا، بدأ بعض جواسيسه الذين تسللوا بين الصفوف في وقت سابق بنشر بعض الأخبار بين الجنود والمحاربين:

- لقد أصيب الأمير بهرام!

- لقد سقط الجناح الأيمن!

- انسحبوا إلى الجنوب!

دبت الفوضى أكثر فأكثر، وبدأ بعض الجنود في الوسط بالتراجع إلى الخلف، فارتبك قلب الجيش بشدة، وسقط المزيد من الجنود هناك في مشهد أقرب إلى المجزرة، حتى ظهر سيفار مرة أخرى ومن خلفه فيدار يلاحقه بسرعة. نفث سيفار لهيبه في قلب المعركة فأحرقت الكثير من الجانبين، بينما حاول مالك السيطرة على فيدار وتركيز نيرانه على عدوه في الأمام، وقبل أن يتبعه إلى السماء من جديد، لمَح بطرف عينه رايات نارية ومرمرة تقترب من بعيد، تسير خلفها صفوف منظمة من الجنود باتجاه جناحي الجيش المتراجعين، يليهم خمسة مجانيق تمركزت في الخلف، كان الأمير مرجان قد أمر بجلبها لكن لم يكن لها فائدة آنذاك خلال تلك الفوضى.

أعطاه ذلك المشهد بعض الأمل من جديد بعدما أدرك أن استمرار القتال بهذا الشكل لن يؤدي إلا إلى هزيمة نكراء، نظر حوله حتى لمح مرور فالينار إلى جواره، فأشار للأمير بملاحقة نذير حتى يتمكّن هو من دعم الجيوش في الأسفل، بعدما التَحمت جنود نارين ومرمرة مع الجناحين وبدآ في مواصلة القتال من جديد. ربت مالك بقوة على ظهر فيدار، بعدما تبادلا نظرات عميقة طلب منه فيها مساندته، وانقض به فوق جنود فيونا المتمركزة في الوسط، بعدما صرخ قائلًا:

- أرهم قوتك الآن! كيرا!

أطلق فيدار زئيرًا مدوّيًا ألقى الرعب في قلوب الجنود بعدما تعلّقت أنظارهم به في أثناء قدومه باتجاههم، نفث دفعة هائلة من اللهب نحوهم حتى أحدث ذلك انفجارًا هائلًا أربك

صفوفهم بشدة. تحوّل بعضهم إلى رماد، وأمسكت النيران في أجساد الكثير، بينما انسحب فهد بقواته إلى الخلف قليلًا، عندما شاهد قدوم التنين الكبير للهجوم مجددًا، وانضمت له فرقة لين لمساندتهم بسيوفهم.

كانت السماء قد اشتعلت في تلك الأثناء باللهيب فالينار وسيفار، بعدما لاحق به الأمير بهرام وتمكّن من إصابته بنيران تنينه الحارقة عند ذيله، لكنه واصل المراوغة لبعض الوقت حتى ظهر فجأة تنين جديد بحجم سيفار يتبع إقليم فير، يمتطيه أمير الجان داريوس. انضم هذا التنين إلى سيفار سريعًا، لتبدأ معركة أشد في السماء. انقض كلاهما على فالينار في آن واحد، ينفثان فيه النيران وينهشان جسده بأسنانهما الحادة.

كان بهرام يحث فالينار على المراوغة، لكن مع استمرار قتال التنينين له أصيب جناحه الأيسر بجراح بالغة، حاول المقاومة لكن باغته سيفار من الجانب بألسنة نيرانه الملتهبة فاشتعلت أجزاء كبيرة من جناحه الأيمن، وأمسكت النيران في ذراعي الأمير للحظات حتى أحرقتهما بشدة. لم يستطع بهرام احتمال الألم وكذلك كان فالينار، كاد أن يفقد الوعي فانسحب بصعوبة نحو قلعته عندما لمح قدوم مالك نحوهم، بعد أن أتم مهمته في الأسفل وبدأت جيوش الأقاليم في التقدم.

لم يتردّد مالك، هجم بفيدار على جناح سيفار باغتة من الأسفل، واضعًا إياه بين فكّيه الكبيرين، فتأوّه التنين الأسود بقوة، ودوى صوت هديره في سماء المعركة. حاول التخلّص مرارًا وتكرارًا من فيدار، لكنه لم يستطع إبعاده. شاهد مالك

الأمير نذير للمرة الأولى، لم تفصلهما سوى مسافة قصيرة، لكنها لم تكن كافية ليشتبكا معًا، صاح به مالك:

- إن جيشك يتراجع الآن أيها الأمير!

أجابه بغضب في أثناء محاولاته المستمرة في الضغط على سيفار للتخلّص من فكّي فيدار:

- يبدو أنك قد تسرّعت في حكمك! لا تزال المعركة في بدايتها بعد!

- انتظر لترَ قدوم المزيد من كل حدب وصوب.

- لن تنتهي تلك المعركة حتى أقضي على آخر جندي لديكم.

أجابه بعدما شاهد دماء سيفار تسيل بشدة تزامنًا مع صراخه المرعب:

- حتى وإن جئت بكل جيوش الجان إلى هنا، لن تنجح أبدًا.

كان أمير الجان مستمرًا هو الآخر في محاولة إنقاذ نذير، يصدمهما بتنّينه بين الحين والآخر من أجل تفريقهما، لكن بمجرد أن سمع كلمات مالك حتى جن جنونه تمامًا، طار بتنينه حولهما محاولًا الهجوم من جهة فيدار أملًا في التخلّص منه، وما إن لمح مالك احمرار فم تنين الجان وسط ذهول نذير مما يفعل، صرخ مالك:

- نيفارا!

فترك فيدار ذلك الجناح المقطوع ليسقط معه في الهواء بعيدًا. ضربت النيران الملتهبة على الفور جسد سيفار بالكامل ومن فوقه نذير. بدأ بالترنح في الهواء بجناح واحد، بعدما احترق بالكامل وتساقط جلده شيئًا فشيئًا، دوى صراخه عاليًا

مع صراخ سيده الذي ملأت الحروق وجهه وصدره هو الآخر، لكن مع ذلك، كان جسد سيفار قويًا، حاول تخفيف سرعة سقوطه بعدما تبادل نظرات وداع قصيرة مع سيده، اقترب من جنود فيونا بسرعة هائلة حتى ترك معظمهم موقعه هربًا منه، إلى أن سقط فوقهم وسكنت حركته تمامًا وسط صيَاحهم المتتالي:

- لقد سقط سيفار.

- تراجعوا!

كان تنين أمير إقليم فير على وشك الاشتباك مع فيدار بعدما أنهكه فالينار كثيرًا قبل ذلك، إلى أن شقّ السماء زئير زاروس، تنين ناري، وعلى ظهره الأمير مرجان قادمًا من الغرب بسرعة خاطفة. التف حول فيدار ثم توقف إلى جواره استعدادًا للهجوم، بعدما أشَار الأمير إلى مالك محييًا، لكنهما تفاجئا بانسحاب الأمير داريوس من أمامهما سريعًا. همّ الأمير مرجان للحاق به، لكن صاح به مالك قائلًا:

- ليس اليوم أيها الأمير!

- لا تزال لدينا معركة في الأسفل لننهيها!

بعد عدة هجمات قام بها مالك مع الأمير مرجان، هبطا على أرض المعركة أخيرًا، استل كل منهما سيفه وانطلقا نحو جسد سيفار لتفقّده.

كانت الأرض مغطاة بالجثث في كل مكان، تفوح منها رائحة الموت ويكسوها لون الدم، لاحظ مالك سقوط الكثير من الطرفين، انتهت حياتهم من أجل أطماع أمير ظالم وضع

عينيه نصب أراضي غيره، قدّر أعداد القتلى بعشرات الآلاف، وأيقن أن الأحياء في كل طرف لن يتعدوا الثلاثين ألفًا على أحسن تقدير. كان داخله يحترق لرؤية ذلك المشهد المؤلم، توقف للحظات قائلًا في نفسه:

- ما دامت نفوس البشر لا تشبع، فالحروب لن تنتهي!

تأمل حال جنود فيونا المنهكين، ثم همس بصوت مسموع:

- لكن من أراد كل شيء، فقد كل شيء.

كانت وجوه الجميع متعبة، مغطاة بمزيج من الغبار والدماء، يلهثون في أثناء ركضهم في كل اتجاه، ويأملون أن ينتهي هذا الصراع الدموي سريعًا. إلا أن جيش فيونا كان لا يزال صامدًا رغم كل تلك الهجمات التي قامت بها التنانين على مدار اليوم، وقد زاد صموده في تلك الأثناء نجاة الأمير نذير وانضمامه إليهم، وهو ما أدركه مالك ومرجان عند اقترابهما من جسد سيفار.

توقف القتال لدقائق طويلة استغلها الطرفان لالتقاط أنفاسهم، ووقف مالك بين الأمير مرجان وفارس أمام نذير وكنان، وانضم إليهم يزيد وتيا بعدما شاهدا الأمير نذير من بعيد، وأرادا بشدة الانتقام لوالديهما بالرغم من تلك الجراح المؤلمة التي ملأت جسديهما، ثم حضر فهد ولين بعد ذلك في حالة لا يُرثى لها بعد عدة إصابات في أطرافهما. أعادت الجيوش ترتيب صفوفها سريعًا، وانتظرت إشارة قادتهم لإنهاء الأمر.

كانت عينا الأمير نذير تتابع جسد سيفار المتفحم بعدما تسلل إلى قلبه شعور ثقيل تجاهه، أحس بخسارته الكبيرة

بعد فقدانه، وأثر فيه محاولة تنينه حمايته في أثناء سقوطهما، لدرجة أنه تناسى آلام تلك الحروق المنتشرة على صدره وبعض أجزاء وجهه، لكن لم يكن لديه وقت كافٍ للحزن على ما قد فُقد، صرخ بغضب مشيرًا إلى مالك بطرف سيفه:

- عليكم بالاستسلام الآن! لم يعد لديكم أي سبيل للنجاة.

ابتسم مالك بسخرية:

- أعتقد أنك من يتسرع في حكمه تلك المرة أيها الأميرا!

- انظر حولك جيدًا، جنودك متعبون! وتننك قُتل قبل قليل.

- أعتقد أنك أنت من عليه الاستسلام.

ثم صاح مردّدًا لجنود فيونا:

- من أراد منكم الأمان، فلْيلق بسلاحه!

رفع نذير سيفه عاليًا فاستعد جنوده، وقبل أن يعطي أمرًا بالهجوم سمعوا صوت أبواق ترنّد صداها حولهم، نظروا جميعًا خلف جيش فيونا حيث مصدرها، حتى شاهدوا رايات إقليم تويًا تقترب من بعيد مع ما يقرب من عشرين ألف محارب وجندي، وعلى رأسهم الأمير تيمور. اتسعت عينا نذير كثيرًا في ذهول، نظر حوله بتوتر بالغ من هول الصدمة، وحيرة من خيانة إقليم تويًا له، لكن لم يدُم ذلك طويلًا بعدما لمح ابتسامة كبيرة علت وجه مالك.

***

18

انتقام

ساحل إقليم ثُويَا، قبل ثلاثة أيام.

على الرغم من انتِصاف النهار، فإن برودة أجواء ثُويَا كانت مختلفة عن الأقاليم الجنوبية. أشعل مالك النار في بعض الأخشاب الصغيرة بعدما جمعها من محيط المكان، وجلس إلى جانبها هربًا من هذا البرد الشديد الذي كان يعصف بردائه الطويل.

كانت عيناه تتأملان مياه بحر الشمال الزرقاء بعدما تذكّر الأحوال التي عاشها بين أمواجه العاتية على العنقاء، لكن لم يعد هذا البحر الهائج يخيفه، ولا أمواجه تُرهبه، خصوصًا بعدما طار فوقه مع فيدار على مدار اليوميين السابقين بمجرد انتهاء اجتماعه مع الأمير بهرام، محاولًا التسلل عبره بعيدًا عن أراضي إقليم فيونا.

على مقربة منه، كان فيدار منشغلًا بالتهام فريسة كبيرة اصطادها من أراضي ثُويَا قبل هبوطه عند هذا الشاطئ. نظر مالك ناحية التنين المهيب بعدما طوى جناحيه العملاقين في تلك اللحظات، ابتسم له بامتنان قائلًا:

- من كان يصدق بأنني سأطير بصحبة عملاق مثلك في يوم ما!

- من كان يصدق بأنني سأذهب إلى أرض بعيدة عن إيستوريا، أجلس لأتأمل مياه شاطئها، وأحارب مع قادتها جنبًا إلى جنب.

تذكّر سردار وأتباعه في تلك الأثناء، فأكمل بعدما التقط حجرًا صغيرًا، ثم ألقى به نحو مياه الشاطئ:

- يبدو أن كل شيء ممكن في تلك الحياة!

- بالتأكيد سأجد حلًا لإنهاء الظلام لاحقًا.

سمع صوت صهيل يقترب من بعيد، وقف بهدوء في مكانه بعدما توقفت خلفه ثلاثة خيول، ثم قال بثبات بعدما نظر نحو أحدهم وأدرك أنه الأمير تيمور، أمير إقليم ثويَا:

- اعتقدت بأنك لن تأتي.

سأل الأمير بصوت خافت بعدما تأمله للحظات، وتأمل تنينه طويلًا بعدها:

- ماذا تريد مني؟

أجابه بعد تنهيدة:

- جئت لأمنحك فرصة أخيرة قد لا تأتيك لاحقًا.

صمت لبعض الوقت، ثم أشار له بالحديث فأردف:

- أعرف بأنك تتلاشى الصدام مع الأمير نذير، وتحاول الحفاظ على عرش ثويَا لأطول وقت ممكن.

- لكنك تعلم أيضًا في قرارة نفسك بأن الوقوف على الحياد بهذا الشكل هو مجرد وهم!

- عاجلًا أم آجلًا سيأتي نذير لينتزعه منك بلا رحمة أو شفقة.

- فيونا تريد الجنوب كله أيها الأمير، تريد تحقيق حلم الجان في إقامة مملكة كبيرة تابعة لسيطرتهم.

لم يتمالك الأمير تيمور نفسه، كانت تبعيته لفيونا تؤرقه على الدوام، صاح بغضب:

- ماذا عساي أن أفعل؟

- هل أواجه بجيوشي الصغير إقليم فيونا في الجنوب، أم أواجه إقليمي الجان كيرا ونيسا في الشمال؟

- ألا ترى بأن ثُويَا محاصرة في تلك البقعة أيها القائد!

تقدّم مالك نحوه، فاستل حارسيه سيفيهما على الفور، لكنهُما عادَا وأدخلاهما من جديد بعدما أشار لهما الأمير بيده، قال مالك:

- تلك الحرب تستحق المجازفة أيها الأمير، وإلا سيأتي الدور عليك لاحقًا!

- عليك أن تختار الآن، إما سلام بعد حرب، وإما تبعية تامة تحت راية نذير.

تأمل الأمير تيمور عيني مالك طويلًا، ثم تمتم:

- سأفكر في الأمر.

لم يرد مالك في الحال، ابتسم له في البداية، ثم انطلق صوب تنينه، كان فيدار قد أنهى طعامه في تلك اللحظات فامتطاه بخفة، ونظر بعدها إلى الأمير مرة أخيرة قائلًا:

- ننتظرك في سهل الشمال.

ضغط مالك على جسد فيدار برفق، فمدّ رقبته الطويلة إلى الأمام باتجاه تيمور، زأر في وجهه لعدة مرات أصابته بالرّهبة، ثم فرد جناحيه بعد ذلك وانطلق صوب السماء عائدًا لألميريا.

بينما ظل الأمير يراقب ابتعاده نحو الأفق، ويتفكر في كلمات مالك التي ظلت تتردد في أذنه: «سلام بعد حرب، أو تبعية تامة تحت راية نذير».

***

تقدّم جيش ثُويَا عبر سهل الشمال في صفوف مُنضبطة، وانقضّوا على جيش فيونا سريعًا من الجهة الشمالية، فدبّ الرعب بين صفوف نذير على الفور، وارتفعت أصوات جنوده:

- لقد خاننا الأمير تيمورا!

- لقد أطبقوا علينا من الجهتين!

بينما اندفعت مجموعات الأقاليم على الجهة الأخرى في هجوم كاسح، حتى اشتد الأمر بنذير وبدأت قواته بالتساقط أمام ضربات السيوف المتتالية. نظر حوله طويلًا وسط المعركة، شعر بحسرة كبيرة في قلبه، وكان انقلاب ثُويَا آخر ما يمكن أن يتوقعه. حاول البحث عن ثغرة للهرب فى أثناء قتاله لجنود أُلميريا على مقربة من مالك، لكن بلا فائدة.

وسط تلك الفوضى، لمحه كنان في أثناء قتله لأحد الجنود، بعدما مزّر السيف على عنقه بقوة، همس لنفسه:

- انتظرت تلك الفرصة طويلًا!

انقضّ عليه من الخلف موجّهًا له ضربة قوية بسيفه، فاستدار نذير على الفور متفاديًا الهجوم، التقت عيونهما سريعًا وسادت لحظة صمت طويلة بينهما، أدرك فيها نذير بأن الجميع قد انقلبوا عليه، وها هو كنان الذي قرّبه منه على مدار الفترة الماضية قد رفع سيفه لقتاله هو الآخر. أصبح

واضحًا له سبب فشل القبطان في إحضار الماسة، وندم على تركه حيًا بعد عودته من ألميريا بمفرده، بدأ في قتاله بغضب، واشتعلت بينهما مبارزة شرسة.

كان القبطان كنان يضربه بقوة، لكنه كان يتفادى ضرباته بصعوبة في نفس الوقت. وجه له الأمير نذير ضربة سريعة نحو رأسه، فتلقّاها بسيفه بمهارة وتمكّن من جرحه في إحدى قدميه، إلا أن نذير كان قد وجه له ضربة أخرى خاطفة لم يتمكن من تفاديها تلك المرة، فأصابته في كلتا قدميه.

ترنح كنان للحظات محاولًا الوقوف، لكن كان الأمير قد انقضّ عليه فجأة، موجّهًا له طعنة قاتلة اخترقت بطنه بقوة، نظر إلى كنان في عينيه مبتسمًا بسخرية في أثناء محاولة الأخير تحمل هذا الألم الحاد بلا صراخ، ثم أخرج سيفه بقوة حتى سقط القبطان أرضًا أمام أنظار مالك وتيا.

ركض مالك نحو كنان، بينما صرخ يزيد في نذير غاضبًا بعدما توجّه صوبه متجاهلًا صليل السيوف المحيط، ورائحة المطر الذي بدأ بالتساقط في تلك الأثناء:

- قاتل أبي وأمي!

نظر إليه الأمير بتعجب، فأكمل:

- بالطبع لن تتذكر! فقد قتلت الكثير مثلهما من أهل إقليمك.

- قتلتهما بدم بارد وأحرقت كل شيء، من أجل لا شيء!

- عشت كل تلك السنوات الماضية أنتظر هذه اللحظة.

أشار له بسيفه قائلًا:

- وحده الانتقام هو من أبقاني على قيد الحياة حتى اليوم.

انهال على نذير بسيفه الحاد موجّهًا له ضربات قوية تفاداها بصعوبة، حاول يزيد استغلال ضعف خصمه موجّهًا ضربات أخرى نحو قدمه المصابة، لكن أفشل الأمير كل ذلك بمهارة، واشتعلت بينهما معركة دامية بعدها استمرت لدقائق، تبادلا خلالها الضربات بعنف، لم يوقفها إلا مباغتة أحد الجنود ليزيد بضربة من الخلف، فانشغل في قتاله على مقربة.

كان كنان يلفظ أنفاسه الأخيرة على يد مالك في تلك اللحظات، تمتم له بصوت متحشرج صاحب ابتسامة خفيفة بعدما خرجت الدماء من فمه:

- قتلت منهم الكثير اليوم! وواجهت هذا الأمير الأحمق.

- لكن، يبدو أن طريقي قد وصل إلى نهايته.

- لا أريد أن أذكر كخائن يا مالك!

أجابه:

- لا ننس من وقف إلى جانبنا أيها القبطان، لقد أديت دورك على أكمل وجه، وما حدث سابقًا بقي في الماضي.

أغمَض عينيه إلى الأبد في تلك الأثناء، فتقدّم مالك لقتال أمير فيونا سريعًا، غرز سيفه في الأرض بعدما تمكن يزيد من إسقاط سيف الأمير قبل لحظات وانشغل في قتاله أحد الجنود بعدها، تصارع معه بالأيدي في عراك شرس وجهًا لوجه خلاله لكمات قوية أصابت كليهما، لكن تمكن مالك في النهاية من إسقاطه أرضًا، جاثيًا على ركبتَيه، ثم استدار لالتقاط سيفه القريب.

استغل نذير هذه الفرصة، أخرج خنجرًا من ردائه وهمّ

بطعنه في ظهره، لكن لمحته تيا في أثناء متابعتها له فحاولت الركض بأقصى قوتها إلا أنه كان لا يزال بعيدًا عنها، أدركت بأن مالك هالك لا محالة، لكن عاد إليها الأمل مجددًا عندما مرق سهم من جانبها نحو الأمير بقوة حتى استقر في ذراعه الأيسر، وبمجرد وصولها ضربته بحَدّ سيفها على صدره فخرّ جاثيًا على ركبتَيه مرة أخرى.

نظر مالك إلى نذير، ثم إلى مصدر السهم، حتى لمح لين واقفة من بعيد، أشارت له برأسها فأومأ لها بامتنان. نادى على يزيد فأتي مسرعًا عند نذير، رفع سيفه عاليًا أمام الجميع، فتوقف القتال فجأة، وهدأت السيوف بغتة بعدما توجهت الأنظار إلى ذلك السيف المرفوع عاليًا، بينما أطلق نذير ضحكة عالية قائلًا:

- لن يتوقف الأمر عند هذا الحد.

تغيرت ملامحه لغضب عارم صارخًا:

- كل تلك الأراضي لن تكون تابعة إلا لفيونا فقط!

أجابه يزيد بصوت مجلجل:

- طريق الطمع... نهايته الهلاك!

ثم هوى بسيفه على الفور، حتى قطع رأسه في لحظة صمت طويلة، ساد السكون بعدها سهل الشمال. تقدّم فارس قبالة جنود فيونا بعدما ظهر الانكسار على وجوههم التي بلّلتها مياه الأمطار، قائلًا:

- انتهى كل شيء! ألقوا بسلاحكم.

كان الجنود في حيرة من أمرهم، نظروا إلى بعضهم البعض

في خوف لبضع دقائق أخرى، حتى ألقى أحدهم بسلاحه أخيرًا، تبعه آخر، ثم عشرات ومئات وآلاف. سقطت الأسلحة تباعًا، وهربوا بعدها نحو فيونا في هلع.

توجه مالك نحو لين، تفقد جروحها أولًا، ومسح الدماء على جبينها، ثم ضمها إلى صدره بقوة بعدما أسعده رؤيتها سالمة. اقترب من فهد وفارس بعد ذلك، وتأكد من سلامتهما، ثم وجه جنوده بتطبيب جراح يزيد وتيا. رفع سيفه أمام الجميع بعدما صعد فوق صخرة عالية وصاح بصوت دوي بينهم:

- النصر لنا!

- لم نقاتل هذا الأمير الظالم دفاعًا عن أقاليمنا فقط.

- بل من أجل حريتنا أولًا.

- لا نشبه من واجهناهم اليوم، ولا نرفع سيوفنا لحماية عروش الطغاة.

- بل نحمي بها الأبرياء فقط.

- لكن مع ذلك، لم ينته الشر في أرضنا بعد!

- عليكم أن تكونوا مستعدين له على الدوام!

انطلقت صيحات الجنود من كل اتجاه، يهَلِّلون ويهتفون باسم مالك، بعدما تناسوا تلك الآلام التي عانوا منها على مدار ذلك اليوم العسير. لكن، وسط هذا الفرح العارم، أتى أحد الجنود قادمًا من جهة الشمال نحو مالك والأميرين مرجان وتيمور، وجهه شاحب وصدره يلهث، صاح قائلًا بصوت متقطع:

- سيدي! هناك أخبار عاجلة.

سكت هنيهة، ثم أكمل بنبرة مكسورة:

- إقليم ثُويَا! سقط في يد الظلام.

اتسعت عيون الثلاثة بشدة بعد وقع هذه الصدمة الكبيرة، سأل مالك بسرعة:

- هل قلت الظلام! هل رأيت أتبعهم؟

تبدلت ملامح الجندي، وتوقف الهتاف فجأة. ثم قال:

- أتبعهم ليسوا بشرًا أو جانًا، إنهم كائنات كالوحوش، يقتلون من يقف قبالتهم بلا رحمة، ويتزايد تعدادهم مع استمرار قتالهم.

- لقد حولوا الكثير من أهل ثُويَا إلى نفس هيئتهم بعدما باغتوهم بعد خروج الأمير تيمور، واستمروا في قتالهم الهمجي حتى تمكن سيدهم من إظلام الإقليم تمامًا.

- كم يبلغ تعدادهم حتى الآن؟

سأله مالك، فأجاب:

- قد يصل إلى عشرين ألف على أحسن تقدير.

ساد الصمت من جديد، بعدما أدرك بأن الصراع لم ينتهِ، ولن ينتظر استعدادهم مرة أخرى، نظر إلى الأميرين قائلًا:

- عددهم قليل، علينا التقدم نحو ثُويَا في الحال!

قاطعه الأمير تيمور بعدما ظهر الحزن على ملامحه:

- فقدت إقليمي بسبب انضمامي إليكم! على عكس ما أخبرتني به قبل ذلك. والآن ترغب في السير مع جنودي نحو ثُويَا مجددًا.

أجابه بعدما وضع يده على كتفه:

- سنستعيد إقليمك أيها الأميرا عليكم فقط مساندتي، فأنا أكثر من يعرف الفارجُل وأتباع سردارا

قال الأمير مرجان:

- لننتظر قليلًا بعد يا مالك.

- يجب أن تلتقط الجيوش أنفاسها.

- الأمر أكبر مما تعرفه أيها الأمير.

قص مالك عليهما كل شيء منذ البداية، إلى أن أدركا سريعًا خطورة الأمر، وأنهما هالكان لا محالة إذا لم يستغلا وجودهما معًا في هذا الوقت. ذهبا لتنظيم الجيوش بنفسهما قبل الانطلاق صباح اليوم التالي، بعدما قال لهما مالك:

- لا وقت للراحة بعد.

***

19

عودة الظلام

سهل تويا، بعد ثلاثة أيام.

غطّى الضباب أطراف سهل تويا في ذلك الصباح البارد، وانتشر ضوء الشمس الخافت عند الحدود الجنوبية للإقليم، حيث اصطف قرابة الخمسين ألفًا من الجنود والمحاربين، ينظرون أمامهم باستغراب إلى ذلك الخط الفاصل بين الظلام الحالك فوق الإقليم، وبين وقت النهار خارجه.

وقف مالك بين الأميرين مرجان وتيمور، يتأمل هذا السواد أمامه، تذكّر حربه الكبيرة مع أتباع سردار في إيستوريا، وتمنى أن ينجح هذه المرة أيضًا، لكنه كان يعرف بخطورة الأمر، خصوصًا أن جنود ألْمَاشيَا سيواجهون تلك الكائنات للمرة الأولى.

ومن خلفه، كان أصدقاؤه المحاربون يتابعون ابتعاد أحد الجنود بعدما أخبرهم باصطفاف الفارجل خلف سيدهم في الانتظار. كانت وجوههم متعبة، وبدا على ملامحهم مزيج غريب من الإنهاك الشديد والإصرار على المضي قدمًا في ذلك الطريق، لكن ذهب كلٌ منهم في النهاية على رأس مجموعته.

بينما كان الجميع ينتظر إشارة مالك للتقدّم، تسلّل فارس مبتعدًا قليلًا عن الصفوف، حتى لمح تيا على مقربة منه تراقب الأفق في صمت. اقترب منها بخطوات مترددة، ثم وقف إلى جوارها دون أن يتكلم، تطلّع إلى الأفق مثلها قبل أن يهمس أخيرًا:

- جو بارد، سيتحوّل إلى نيران مشتعلة بعد قليل!

ابتسمت بخفة دون أن تلتفت إليه:

- كل شيء متناقض هنا، ظلام ونور، برودة ونيران.

صمت لحظة، ثم قال:

- تيا!

نظرت نحوه ببطء، فأردف:

- بعد هذه المعركة، أريد العودة إلى إيستوريا.

أومأت برأسها في البداية، ثم نظرت إليه بعينين هادئتين مدركة لما لم يقله، فأردف بابتسامة وهو ينظر إلى السماء مجددًا:

- لكنني لا أريد العودة بمفردي.

تسمّرت نظراتها فجأة، فنظر إلى عينيها بثبات قائلًا:

- فقد وجدت من أشاركه الطريق.

ارتبكت كثيرًا، سكتت لثوانٍ، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء، كأنها تحاول إخفاء نبض قلبها المتسارع، وسألت بهدوء:

- ولم تخبرني بهذا الآن؟

علت وجهه ابتسامة جادة قائلًا:

- لأننا لا نعلم ما ينتظرنا بعد مرور هذا اليوم.

- لذلك أردت ألّا تؤجّل تلك الكلمات أكثر من ذلك.

نظرت إليه طويلًا، ثم قالت بنبرة خجولة:

- أعتقد بأنني أود رؤية إيستوريا كثيرًا.

أشاحت بنظرها بعيدًا، ثم أردفت بعد تنهيدة:

- إذا خرجنا من هذا الظلام الأسود على قيد الحياة بالطبع!

ظلا واقفين إلى جانب بعضهما البعض في صمت، لحظات قصيرة مرّت هناك، كانت كافية لتمنح قلبيهما شيئًا من الدفء في تلك اللحظات.

في مؤخرة الجيش، كانت لين قد أصدرت أوامرها لمجموعة الرماة ومجانيق نارين الخمسة بالتمركز في نقاط محددة قبل التقدّم من جديد إلى قلب الظلام. وبالرغم من انشغالها بذلك، إلّا أن عينيها استمرّتا في مراقبة حركة السماء بشكل متكرر، كأنها تتوقع هبوط تنين جديد في أي لحظة بعد المعركة الأخيرة.

كان لديها شعور غريب لم تستطع فهم ملامحه، جعل أنفاسها تتسارع كثيرًا في تلك الأثناء، لدرجة أنها أحسّت بدوار بسيط اعتراها لدقائق، لكنها أيقنت بعد انتهائه بأن تعب الأيام الماضية قد فاق قدرة الجميع على التحمل. انتبهت في هذه الأثناء بعدما امتطى مالك فيدار وصاح في الجنود:

- علينا الوصول قرب اصطفاف الفارجل أمام قلعة تويا سريعًا!

سارت أمام جنودها متظاهرة بالثبات، حتى دخل الجيش إلى قلب الظلام الدامس، مستعينًا ببعض من ضوء القمر البسيط، وضوء مشاعلهم التي أنارت طريقهم قليلًا، إلى أن وصلوا في النهاية قرب القلعة، وشاهدوا صفوف الفارجل من بعيد، بالتزامن مع سماعهم لصيحاتهم الغريبة التي كانت تصل إلى مسامعهم باستمرار.

هبط مالك في المقدمة إلى جوار زاروس، نظر إلى الجنود أولًا، ثم حوّل ناظريه ناحية القلعة. كان سردار في مقدمة جيشه هو الآخر، لكن لم تتضح ملامحه من بعيد، باستثناء تلك البنية القوية التي ميزت جسده. وخلفه كان الفارجل متوقفين في صفوف غير منتظمة، مليئة بالفوضى والصياح، ينتظرون أمرًا منه للانقضاض على عدوهم تحت هذا الظلام الذي يمد أجسادهم بالقوة.

قطع تأمّل مالك لذلك المشهد حصان مندفع بقوة، جلس فوقه محارب مغطّى بالغبار، يلهث بشدة كأنه أراد اللحاق بشيء ما، وعيناه تحملان خبرًا مهمًا يجب عليه إيصاله قبل فوات الأوان. ترجل عند قدمي مالك وانحنى باحترام، ثم قال بصوت متقطع محاولًا التقاط أنفاسه:

- رسالة عاجلة من إقليم جينا!

التقطها مالك باستغراب، فتح الرسالة المختومة بشعار أكبر أقاليم الجان، قرأها بسرعة، ثم رفع عينيه وقد تجلّى الذهول عليهما بوضوح، قائلًا للأميرين وفارس:

- يخبرنا الأمير جاندار بأن الوصول إلى ماسة سردار لا يكفي لهزيمته!

قاطعه الأمير مرجان بنبرة شك:

- وهل يرغب أمراء الجان في هزيمته؟ لقد تركوه في ميرف لوقت طويل، ودعموا نذير أيضًا في مواجهتنا!

قال الأمير تيمور بعدما تأمّل الرسالة بهدوء:

- يجيد هؤلاء الجان المكر والقيام بالحيل كثيرًا. لقد عانيت

من دهائهم هذا لوقت طويل.

- لكن ما كُتب في هذه الرسالة يمكننا اعتباره دعمًا غير مباشر من أجل بداية جديدة.

قال مالك بعدما أشار إلى رسول الأمير جاندار بالمغادرة:

- يبدو أن هذا الأمير لديه علم بكل شيء!

- يخبرنا بأن السبيل الوحيد للقضاء على سردار هو الذهاب بماسته إلى برج سارو على جزيرة ميرف.

- هناك فقط يمكن التخلص من لعنة هذا الظلام!

اقترب منه مرجان سائلًا بفضول:

- وماذا سنفعل بها هناك؟

همس مالك بثبات:

- لا تقلق! أعرف ما علي فعله.

- يشبه ذلك ما قمت به قبيل حربنا مع الفارجل في إيستوريا.

ثم التفت نحو الجميع بعدما استلّ سيفه، قائلًا بأعلى صوته:

- أتينا حتى هنا من أجل معركة وجود.

- ملحمة فاصلة ضد سردار والفارجل.

- لذلك لن أخفيكم سرًا اليوم.

- يجب أن تدركوا بأن السيف وحده لن يتمكّن من هزيمة هؤلاء!

نظر الجنود إلى بعضهم بعضًا بقلق، تبعته همسات كثيرة انتشرت بينهم. لكن، عاد الصمت مرة أخرى بعدما رفع مالك يده مكملًا:

- سردار بحوزته ماسة قديمة، ماسة ليست كأي ماسة أخرى.

- تلك الماسة هي مصدر قوته، لعنة متجسدة عبر سحر مظلم يحيط به ويبقيه واقفًا مع الفارجل.

أردف بثبات:

- إذا تمكنا من انتزاعها واستغلال طاقتها المظلمة، يمكن حينها أن يصبح التخلّص منه ممكنًا.

وقبل أن تظهر الهمسات من جديد بينهم، أشار بيده إلى المجانيق والرماة في المؤخرة قائلًا:

- لكن بالرغم من أن قوة واحد منهم تحت الظلام تكفي لرجلين من جيشنا، لديهم أيضًا نقاط ضعف مثل أي شيء حولكم.

- النار تؤذيهم!

- الفارجل يكرهون النور والنار. يحترقون إذا ما لامستهم ألسنة اللهب، ويضعفون إذا وصل إليهم نور النهار.

- لذلك عليكم أن تشغلوهم لمدة حتى نحصل على تلك الماسة.

- بعدها، يمكنكم التقدّم نحو القلعة تحت غطاء نيران زاروس.

امتطى مالك فيدار، لمس جلد رقبته السميك برفق ونظر في عينيه للحظات، ثم أشار لهم بالهجوم قبل أن يحلّق به مع زاروس عاليًا. فاندفعت الصفوف الأولى إلى الأمام على الفور، وارتفع تهليلهم بصيحات الحرب مع كل خطوة نحو أعدائهم.

انطلقت أولى كرات المجانيق المشتعلة بأصوات مدوية، تدحرجت نحو الأعلى تباعًا حتى أضاءت تلك العتمة السوداء، كأنها نجوم مشتعلة تزيّن السماء، لتهوى سريعًا إلى منتصف صفوف الفارجل، وتنفجر بعنف مزلزل بينهم، تبعها سيل هائل من الأسهم المشتعلة التي أطلقها الرماة، كانت ترتفع عاليًا في لحظات، ثم تنهال كالشهب على أجساد الفارجل ليسقطوا صرعى في الحال.

رغم هذا، لم يتوقف الفارجل، اندفعوا بشراسة نحو المقدمة، كل منهم يحمل في قبضته سيفًا أو حربَة أو فأسًا كبيرًا، غرسوه في أجساد الجنود بلا رحمة. سقط العشرات من المحاربين سريعًا، تبعهم آخرون بشكل متتالي، لكن كان فيدار وزاروس قد استعدّا للهجوم لتقلب نيرانهما الموازين تمامًا.

حلّق التنينان صوب المعركة، اقتربا كثيرًا حتى أصبحت مؤخرة جيش الفارجل في مرماهما، أطلقا نيرانهما بقوة بعد إشارة مالك إلى الأمير مرجان، وارتفعا للأعلى بعدها من أجل الالتفاف والعودة من جديد. التهم اللهب أجساد مئات الفارجل على الفور كما لو كانوا حطبًا يابسًا. كانت الصرخات تتصاعد بينهم باستمرار كلما اندفع اللهب الأحمر نحوهم، ليضيء انفجاره بالأرض ظلام الإقليم كله.

اقترب بعض الفارجل من الرماة في الخلف، فاصطلت لين

سيفها وانقضت عليهم مع بعض محاربيها، لكن كانت ضربات الفارجل أقوى. وجّه لها أحدهم ضربات عشوائية سقطت على إثرها أرضًا تصرخ بألم، شعرت بنفس الدوار من جديد، تسارعت أنفاسها كثيرًا، ولم تعد أذناها تلتقط الأصوات من حولها، حاولت الوصول إلى سيفها، إلا أنها لمحت اندفاع هذا الفارجل نحوها بجنون، ثم سيفه يهوى فوقها بقوة، وقبل أن يصل إليها كانت قد تدحرجت سريعًا، وسحبت خنجرها بخفة، ثم غرسته في رقبته لتسيل دمه عليها ويسقط أمامها في الحال.

توقفت لتنظر حولها بحثًا عن مالك، بعدما مسحت بعض الدماء عن وجهها الجميل، حتى لمحت فيدار من بعيد يحلّق عاليًا ويرمي بغضبه على أتباع سردار. أدارت نظرها نحو قلب الجيش حتى شاهدت فارس وفهد، يحاولان صد هجوم شرس أمام الكثير من الفارجل، بعدما أسقطوا مئات الجنود في تلك البقعة، أشارت للرماة فوضعوا سهامهم في أقواسها، ثم شدوها بقوة، للحظات انتظروا فيها الإشارة، صرخت لصديقيها:

- احتموا!

فتراجعا على الفور إلى الخلف حتى أصابت هذه السهام المارقة قلوب أعدائهم مباشرة. في هذه اللحظة، لمح مالك هيئة مألوفة بالقرب من قلعة تويا، شخص رآه من قبل عبر الماسة خلال حربه مع أتباع الظلام في إيستوريا، شخص لم ينجح في الاقتراب منه آنذاك، وقطع بسببه مسافات هائلة ما بين بحار هائجة، وأراضي شاسعة، وحروب لم يكن له بها أي

صلة.

كان سردار واقفًا شامخًا وسط الجحيم، كأنه الجحيم نفسه. جسده مغطى بدرع أسود اللون، وقناع أخفى ملامح وجهه بالكامل باستثناء عينيه الكبيرتين، اللتين كانتا تلتمعان باستمرار مع ووهج نيران التنينين. لم يتردد مالك، حتّ فيدار على الانطلاق صوبه، ثم صرخ عاليًا:

- كيرا!

زأر التنين الأحمر عاليًا، فتح فمه بقوة حتى ظهرت أنيابه الحادة، احمر فمه بشدة، ثم ضرب سردار بدفعة نارية هائلة ابتلعته ومن حوله وسط ألسنتها الحارقة. دار مالك بتنينه مرة أخرى، بعدما خفّ ووهج تلك الضربة محاولًا إيجاده من جديد. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

انطفأت النار فجأة لتكشف عن حفرة كبيرة من الرماد، وانطفأ قلب مالك خلفها تباعًا. فقد كان سردار واقفًا في مكانه بصمت بين أجساد الفارجل المتفحمة، لم يمسه شيء، تسمرت عين مالك عليه، وارتجف صدره للحظات، بعدما أدرك بأنه لا يتأثر بالنار كثيرًا مثل أتباعه من الفارجل مع احتفاظه بقوة الظلام، وأيقن بأنه لا سبيل لإنهائه سوى تلك الماسة بحوزته.

وقبل أن يكرر هجومه، مرّ زاروس من جانبه نحو الأمام، يشق سماء المعركة بسرعة كبيرة، بعدما لمَح مرجان سردار في تلك الأثناء وأراد التخلّص منه بأي وسيلة متجاهلًا صياح مالك من خلفه. وما إن اقترب منه حتى رفع سردار يده فجأة، وأشار بها نحو رأس زاروس المخيف، وإذا بعيني التنين

تتسعان من الرعب فجأة بعدما غطتها الظلمة تمامًا في أثناء اندفاعه نحو الأرض.

فقد الأمير مرجان السيطرة في تلك اللحظات، انقبض صدره بشدة وصرخ عاليًا، حتى اصطدم زاروس بالأرض في سقوط مروّع، دوى في كل أركان المعركة خلال الظلام. أما الأمير، فقد قُذف جسده بعيدًا في لحظات، وتوقف قلبه إلى الأبد على مرأى من الجميع. لم يصدق مالك عينيه، صرخ بشدة حتى سمعه أصدقاؤه، ضغط على فيدار بغضب، ثم طار به إلى الأسفل حتى فتح فمه مجددًا مطلقًا دفعة جديدة من اللهب صوب سردار.

في اللحظة ذاتها، كان يزيد وفهد وفارس قد التفتوا حوله من بعيد، ثم هاجموه معًا من الجهات الثلاث بعدما هدأت النيران، كانت سيوفهم تلتمع مع اللهب المشتعل خلال الظلام، وقلوبهم مصممة على الانتقام. ضربوه معًا في تلك اللحظات لكنه لم يسقط، كانت حركاته سريعة وضرباته أقوى، اشتبك معهم بضراوة محاولًا إنهائهم.

هبط مالك على مقربة، تسلّل نحوه في صمت حتى وصل إلى جواره، ثم استغل هجوم أصدقائه وانقض على فريسته من الخلف بخفة. كان يعلم بأن السيف لن يجدي نفعًا، فمدّ يده بسرعة نحو عنق سردار، وانتزع الماسة منها بحركة خاطفة حاول الانسحاب بعدها. لكن كان سردار قد ضرب وجهه بمقبض سيفه بقوة، فارتمى إلى الخلف متألمًا وسقطت الماسة بالقرب منه، زحف على بطنه بسرعة محاولًا انتشالها، وحاول سردار الركض نحوها بعدما أحس بالعجز بعيدًا عنها،

لكن كان المحاربون قد تجمعوا حوله موجهين له ضربات جديدة مكّنت مالك من الهروب بها من أمامه.

صعد مالك إلى فيدار بخفة وهو يصيح:

- فهدا! فارس! أسرعوا!

ركضا باتجاهه، وصعدا خلفه على الفور، وانسحب يزيد من أمامه خلال الظلام، وقبل أن يلحق بهم ليضرب تنينهم الآخر بقوة ظلامه، كان فيدار قد رفرف بجناحيه الكبيرين، وارتفع إلى السماء بسرعة خاطفة، وسط صرخات الفارجل المتواصلة التي تبعها اندفاع ما تبقى منهم نحو القلعة بجنون. وقف سردار يتأمل ذلك المشهد للحظات، حتى أدرك الحقيقة. قال بصوت بشري مسموع:

- ربّما هُزِمت في هذه المعركة، وفقدت كل أتباعي!

- وهذا هو حلمي القديم في السيطرة على أرض الماس قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الاندثار.

التفت ناحية جسد زاروس المصاب مكملًا:

- لكن لم تنتهِ الحرب، ولم ينتهِ سردار.

ركض نحوه بعينين يغمرهما الغضب، رفع يده للحظات نحو رأس التنين، حتى غلّف الظلام عينيه مرة أخرى. جرح راحة يده بسكين أسود، ثم وضعها على جرح مفتوح في جسد زاروس، سرت الدماء المظلمة إلى جسد التنين بسرعة، وارتجف للحظات في صمت، ثم عاد للزئير مرة أخرى، لكنه لم يكن كالسابق.

أنزل رأسه بخضوع لسيده الجديد، بعدما تمكن من السيطرة

عليه مثل الفارجل التابعين، امتطاه سردار في عُجالة، ثم انطلق في إثر فيدار إلى خارج ظلام الإقليم، حيث تلاشت الأصوات حوله تباعًا، حتى لم يبقَ في النهاية سوى صوت أجنحتهما في السماء، وزمجرة الغضب المشتعلة في هديرهما، ثم صوّت سردار الضخم:

- لن تصلوا إلى ذلك البرج أبدًا!

عند القلعة، كان يزيد واقفًا إلى جانب جسد الأمير مرجان، وقد غمر قلبه حزن شديد برؤيته ساكنًا على الأرض بلا حركة، لكنه تماسك قائلًا للأمير تيمور بحزم، بعدما تعلقّت عيناه بالتنانين في أثناء ابتعادها:

- دعوهم يمضون. مالك يعرف ما عليه فعله.

ثم التفت إلى تيا ولين مضيفًا:

- نحن من سيتولّى هذه الجبهة الآن.

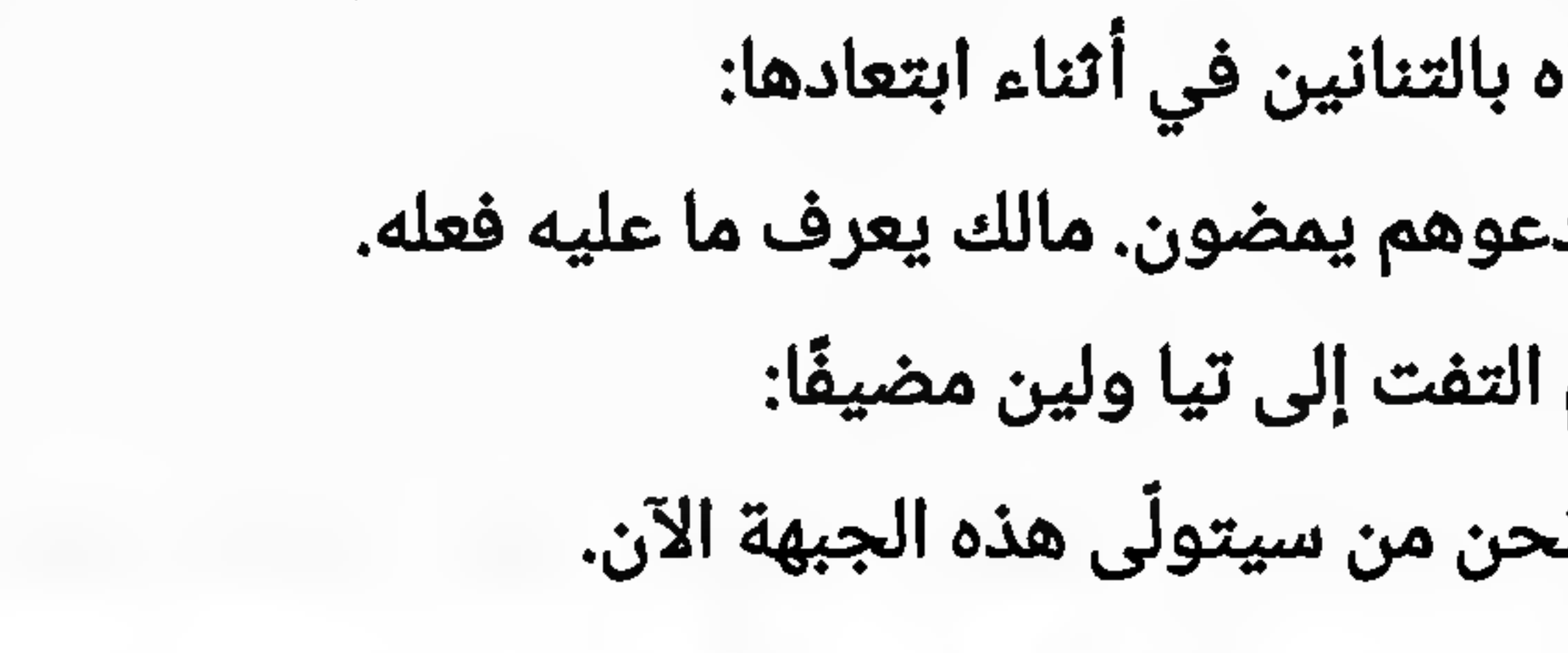

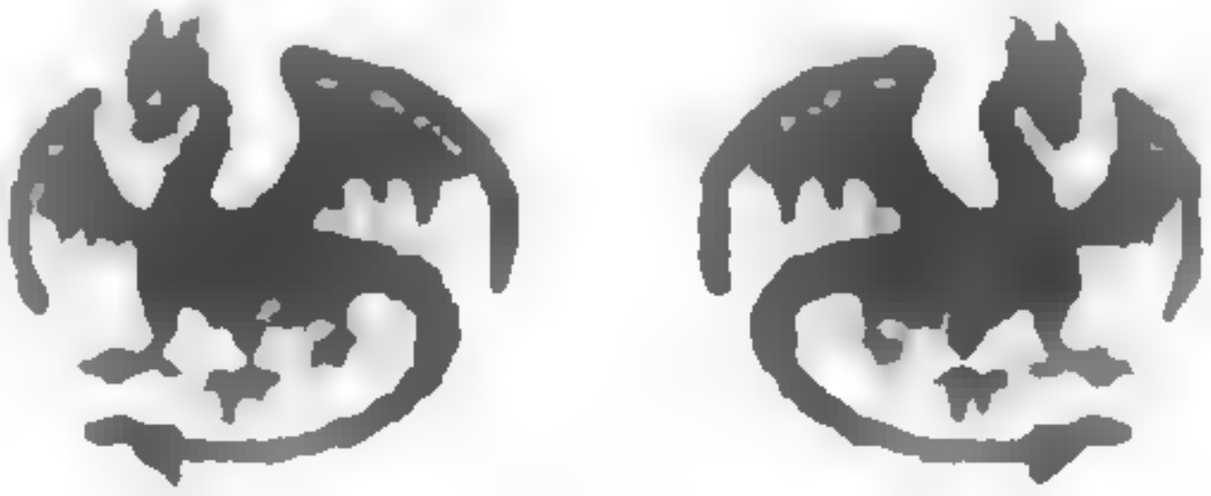

قاطعته لين بأنفاس متسارعة مجددًا:

- لم يتبقَّ منهم سوى ألفين على أحسن تقدير.

ردّت تيا بعدما نظرت إلى السماء:

- لكن، لم ينتهِ هذا الظلام بعد!

***

20

برج سارو

فوق سماء بحر الشمال، بعد مرور يومين، اندفع فيدار بقوة فوق الغيوم متجنبًا رصده من قِبَل أقاليم الجان، لم يتوقف سوى لساعة رمليّة واحدة خلال اليومين السابقين، قطع خلالها مسافات هائلة فوق بحر الشمال، واستمر في التقدم بمحاذاة الساحل الشرقي لألْمَاسيَا حتى لاحَت نهايته، ثم انحرف به مالك نحو الغرب باتجاه جزيرة ميرف كما أخبره الأمير تيمور.

كان مالك يضغط باستمرار على جسده ليزيد من سرعته في تلك اللحظات الفارقة. وخلفه مباشرة، كان فارس وفهد متشبثين به بقوة، يحاولان الثبات وسط تلك الرياح الباردة التي كانت تضربهم من كل اتجاه على الرغم من انتصاف النهار. التقطت أذنا فارس زئيرًا مختلفًا عن فيدار تزايد من خلفهم شيئًا فشيئًا، زئيرًا يعرفونه جيدًا، جعل فهد يشعر بانقباضة في صدره بمجرد سماعه، بعدما نجحوا في الهرب من صاحبه خلال اليومين الماضيين.

التفت فارس برأسه للحظات، حتى لمَح ظلًا كبيرًا بين الغيوم، جناحين عملاقين يرفرفان بقوة، وجسد رجل مألوف يمتطي ظهره. كان سردار يطاردهم فوق زاروس بجنون، بعدما أحكم قبضته على زمام التنين محاولًا اللحاق بهم تلك المرّة. صاح فهد وهو ينظر إلى الخلف:

- إنه يقترب منا كثيرًا!

رد مالك بثبات:

- تمسكا جيدًا!

لكن قبل أن يتمكّن من المناورة، انقض زاروس عليهم بسرعة خارقة، فتح فمه ليقذف دفقة من لهبه المظلم كاد أن يصيب بها جناح فيدار الأيمن لولا انحرافه في اللحظة الأخيرة. حاول من جديد بعدما ضغط عليه سردار مجددًا، لكن كان فيدار قد اختفى فجأة، كأن السماء قد ابتلعته بين غيومها. ارتبك سردار للحظة، دار بزاروس يمينًا ويسارًا باحثًا عن أثره بين السحب، وقبل أن يُكمل طريقه نحو ميرف، تفاجأ بصوت هدير مرعب من الأعلى.

انقض فيدار من فوقه كصاعقة مشتعلة، بعدما فتح فمه لإلقاء دفعة هائلة من اللهب الأحمر، حتى أصابت هذه الضربة قدمي التنين بشدة، فصَرخ وتراجع في الحال في أثناء محاولات سردار في السيطرة عليه، خصوصًا تحت ضوء النهار الذي أثر بقوة على جسده الكبير واستمر في إضعافه شيئًا فشيئًا.

استغل مالك هذه الفرصة، ارتفع مجددًا مع رفيقيه إلى الأعلى، ثم اندفع بعيدًا عن منطقة المواجهة تاركًا التنين الآخر يتخبط في الهواء، حتى قرر سردار الانسحاب إلى الأسفل، وانخفض بزاروس تدريجيًا نحو مياه بحر الشمال الباردة محاولًا إنقاذ جسده من الاحتراق.

بعد يوم آخر، بدأت ملامح جزيرة ميرف في الظهور من بعيد. جزيرة مغطاة بالثلوج البيضاء تمامًا، يغطّيها ظلام سردار خلال وقت النهار، محاطة بهدوء غريب يخالف كل

ما عاشوه من فوضى وضجيج، إلى أن وصلوا عند ساحلها أخيرًا، وبدأوا في تفقدها من الأعلى بحثًا عن البرج المقصود.

لم يكن العثور على برج سارو صعبًا، فقد كانت أرض ميرف مسطحة في معظم أنحائها، تمتد على سواحلها عدة سلاسل جبلية صغيرة، باستثناء بقعة نائية على الساحل الغربي كان البرج يقبع عندها وسط مشاعل ضخمة أضاءت محيطه. صاح مالك بسعادة:

- وجدته!

بينما كان هذا اليوم قد اقترب من نهايته، هبط فيدار أمام برج سارو، حتى غاصت قدماه خلال الثلوج البيضاء، وترجل الثلاثة على الفور ليتفقدوا محيطه. كان هناك صمت عجيب على عكس ما توقعوه، إلى أن أيقنوا بأن سردار قد سحب جميع الفارجُل نحو تويا في وقت سابق، فحوّلوا أنظارهم نحو البرج من جديد.

برج رمادي اللون، يتجاوز ارتفاعه ستة أضعاف طول البشر، يظهر مدخله في قلب الثلج الذي غطى قاعدته من الأسفل. ويمتلك قمة مدببة الشكل، ظهر من تحتها نافذتان على الجانبين في الغرفة العلوية الوحيدة. قال فهد وهو يتأمله:

- إنه برج سارو بلا شك!

أومأ مالك برأسه، ثم أخرج الماستين على الفور، ونظر إليهما للحظات. كانت إحداهما تتوهج بضوء أزرق ساحر، بينما الأخرى التي انتزعها من عنق سردار تلمع بلون أحمر قاتم، بدا وكأنهما يتصارعان فيما بينهما على السيطرة، وتردد في البداية قبل استخدام ماسة أريانا، لكنه كان يعلم بأنه

بمجرد استخدامهما معًا قد يفقدان قدراتهما. رفعها أمام عينيه، ثم أغلق جفنيه برفق هامسًا:

- دعيني أرى الحقيقة كاملة هذه المرّة.

وفي لحظات قليلة، اجتاحت الظلمة أطراف رؤيته، قبل أن تنفتح أمامه نافذة من الماضي لم يستطع تحديد موعدها، مشهد واضح كالنور في قلب الظلام. رأى سردار واقفًا أمام برج سارو، لكنه لم يكن بمفرده، بل كان إلى جواره رجل طويل القامة، بآذان مدببة وشعر أحمر طويل، يرتدي عباءة فضية اللون، نُقش عليها شعار مألوف كان قد رآه من قبل في تلك الرسالة التي تلقاها قبل معركته الأخيرة، فأدرك بأنه الأمير جاندار حاكم إقليم جينا، وسيد الجان الأكبر في الشمال.

كان الحديث بينهما مشحونًا، قال له سردار بصوته البشري الضخم، بعدما نظر إلى البرج من خلف قناعه:

- لن أهجم الجان ما دام الجنوب تحت سيطرتي.

- فقط عليكم أن تبقوا على الحياد كي لا يطالكم ظلامي.

رد جاندار بنبرة جافة، امتزجت ببعض الرهبة من هيئته:

- وما المقابل؟

اقترب منه سردار خطوة واحدة، ثم قال:

- أبقِ ماسة أريانا بعيدًا عنّي، لن تقترب تلك الماسة من ماسّتي أبدًا. هل فهمت؟

قاطعه بفضول:

- وأين توجد ماسة أريانا تحديدًا؟

التفت إلى السماء، ثم أجاب:

- لقد شعرتُ بها في ألميريا. شخص ما يستخدمها هناك.

قال الأمير:

- ستندلع الحرب في تلك المنطقة بأي لحظة! لا نستطيع الوصول إلى هناك حاليًا.

نظر له سردار في عينيه مقاطعًا:

- لذلك عليك دعم نذير في حربه معهم، واطلب منه أن يأتيني بالماسة بعد هزيمتهم.

أومأ جاندار ببطء، وقال من دون تردد:

- لك هذا. ما دام ظلامك لن يقترب من حدودنا.

ثم استدار بهدوء، وابتعد مع وزيره نحو تنينه بخطوات حذرة، فتبعهم مالك حتى هناك، همس الوزير متسائلًا بنبرات قلق:

- سيدي، لماذا قبلت؟ هذا تحالف مع أتباع الظلام!

نظر إلى السماء متنهّدًا، ثم قال بصوت بارد:

- لا فائدة من معاداته الآن! أردت أن نكتسب مزيدًا من الوقت حتى تنتهي حرب ألميريا وفيونا. حينها ستنضم جيوش الجنوب بقيادة نذير تحت رايتنا في مواجهة الظلام.

سأله مجددًا:

- وإن هزم الأمير نذير؟

تنهّد مجددًا ثم أجاب:

- سننتظر لحظة مواجهة من تبقّى من جيوش الجنوب مع سردار، لأخبر البشر بالطريقة الوحيدة لإنهاء قوّته.

أردف جاندار بابتسامة خفيفة:

- سيقتلون بعضهم بعضًا، وستنهار جيوشهم بعد تلك الحرب.

- حينها فقط سيصبح الطريق ممهّدًا لأقود جيوش الجان نحوهم في وقت لاحق، وأضمّ أقاليمهم واحدًا تلو الآخر تحت حكمي إلى الأبد.

ترك مالك الماسة في تلك اللحظات، وفتح عينيه على مزيج من الذهول والغضب والخذلان، أدرك في تلك اللحظة حقيقة

الأمر كله وأخبر بها صديقيه، قال فارس بصوت متقطع:

- لم يكن سردار هو العدو الأكبر لألْمَاشيَا منذ البداية!

- بل كان الأمير جاندار ومن خلفه.

قال فهد بحسرة:

- هل كل ما قمنا به كان ضمن خطة أكبر دبّرها هذا المحتال!

رد مالك بعدما أخذ نفسًا عميقًا:

- نعم، هي خطة خبيثة، لكن جاندار هذا يراها عادلة.

- يريد أن يضع البشر تحت حكم الجان، وقد استخدم سردار ونذير بدهاء من أجل تحقيق ذلك.

ثُمّ قبض على الماستين بقوة قائلًا:

- لا مجال للانتظار، لنصعد معًا.

لكن قبل أن يخطوا خطوة نحو البرج، اهتزت الأرض أسفلهم فجأة، ودوى هدير مرتفع في الأفق. التفتوا إلى الخلف ببطء، ليشاهَدوا سردار ينزل من فوق زاروس مستلًا سيفيه بعدما هبط بالقرب منهم. كان جسد التنين ينزف من مواضع متعددة، لكنه استمر في الزئير بقوة ردًا على زئير فيدار نحوه.

صرخ فارس:

- لقد لحِق بنا!

التفت إليهما مالك قائلًا:

- خذا الماستين، واصعدا إلى البرج! سأتصدى له بنفسي.

قاطعه فارس في الحال:

- لتنهِ أنت ما جئنا من أجله، لن نسمح له بالمرور!

أراد مالك الاعتراض، لكنه رأى نظرة حسم في عينيهما، فأومأ بصمت، ثم ركض نحو مدخل البرج بعدما لمح بطرف عينه اندفاع سردار تجاهه محاولًا رفع يده لضربه بقوته المظلمة، لكن كان فارس قد استغل تركيزه على صديقه، وهوى بسيفه فوقها حتى قطعها وسقطت إلى جانبه.

صَرخ سِزدَار بغضب كأنّه بُعِث من وسط الجحيم، على الرّغم من عدم إحساسه بأي ألم، وقد زأر زَازُوس مُحاولًا التدخُّل من خلفه، لكن فِيدَار قد اعترض طريقه، ثم حلّق خلفه مباشرة بعدما رفرف بأجنحته مبتعدًا. فاشتعلت السماء فوق جزيرة مِيرف بمعركة أخرى.

صعد مَالِك درجات البرج سريعًا، كانت أنفاسه تتلاحق مع كل خطوة يخطوها، وصوت المعركة في الأسفل يتردّد إلى أذنيه عبر جدران البرج الرمادي. كان يعلم أنّ وقته محدود، وأنّ خطأ واحدًا قد يُنهي كل ما قاتلوا من أجله. وصل أخيرًا إلى الغرفة العلوية، وقد غمرها ضوء مشعل صغير مثبت على الجدار.

دارت عَيناه في مُحيط الغرفة بحثًا عن شيء مختلف قد يرشدُه لهدفه، حتى شاهد في منتصفها هيكلًا حجريًا قديمًا اتصل بقُبّة البرج العالية، وامتلك تجويفًا واضحًا في منتصفه، وقد نُحِت في قلب هذا التجويف مكانان غائران متجاوران بحجم الماستين تمامًا، تتناثر حولهما نقوش قديمة لم يستطع قراءتها، تشبه تلك التي شاهدها عند تمثال زَازُوس في نَارِين، وينتشر حولهما ألسنة نيران مُشتعلة وصلت من داخل

الهيكل. توقَّف لوهلة يتأمّل هذا المشهد، ثم أنزل ناظريه إلى الماستين في يده.

تقدّم إلى الأمام بخفّة وهو يشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، كأن العالم كله قد استقر فوق قلبه، ثم ثبّت الماستين في مكانهما أخيرًا. تراجع إلى الخلف بحذر بعدما اهتز الهيكل أمامه، وارتفعت ألسنة النيران عاليًا من قلبه حتى اختفت الماستان من خلف اللهب. وما هي إلا لحظات حتى انطلق شعاع ضوء من بينهما في خط متصل، اخترَق نافذة دائرية صغيرة في منتصف قمة البرج، ومنها نحو قلب السماء.

***

21

لحظات فارقة

مع انطلاق الضوء نحو السماء، انفجر صوت سِزدَار بجنون، وتوالت ضربات سيفه سريعًا نحو فَارِس وفَهد. نظر إلى الشعاع برعب لا يوصف بعدما اتسعت عيناه برهبة، كأنّه شاهد حلمه القديم ينتهي أمام عينيه دون أن يستطيع إيقاف الأمر. أراد الإجهاز على الاثنين قبل توقف ذلك الضوء، وانقضّ عليهما فجأة بضربات أخرى، إلى أن استغل هجومًا مُتسارعًا من فَهد وهوى بيده المتبقية على صدره، فاندفَع جسده إلى الخلف بقوة إلى أن سقط فوق الثلوج، وبدأ في السعال بشكل مُفرط لِلَحظات قليلة، توقّف عن الحراك بعدها.

صرخ فَارِس باسم صديقه مرارًا وتكرارًا، لكنه لم يتحرك. فاستغل سِزدَار انشغاله بذلك لتوجيه ضربة مفاجئة على رأسه، رفع يده ليصدّ الهجوم، لكنه لم ير شيئًا بعدها. غِشَاءٌ سوداء غلّفت بصره تمامًا، وصوت خطوات ثقيلة ملأت أذنيه استمرت في الاقتراب، حاول الصراخ لمَالِك، لكنه لم يستطع.

خلال لحظات بدأت الرؤية تتضح أمامه شيئًا فشيئًا حتى ظهر خصمه بوضوح، وقبل أن ينبس ببنت شفة، كان سِزدَار قد غرس سيفه بقوة في بطنه، حتى اخترق جسده وخرج من الجهة الأخرى. شهق فَارِس عاليًا، وانهار على ركبتيه في ألم محاولًا إيقاف تلك الدماء التي بدأت بالانسياب بغزارة من موضع الطعنة.

في تلك الأثناء، كان فَهد قد استعاد وعيه ببطء، صرخ في

سِزدَار كي يتوقف بعدما لمح سقوط فَارِس، وانتشار دمائه فوق الجليد الأبيض، تحامل على نفسه وزحف بجسده المثقل نحوهما. كانت أنفاسه تتقطع، وذراعاه يغوصان في الثلج مع تقدمه، لكن لم تبتعد عيناه قطُّ عن صديقه.

في أعلى البرج، كانت الماستان قد توقفتا عن التوهج، وخفَّ الضوء الذي اخترق ظلمة السماء. التقط مَالِك أنفاسه بصعوبة، ثم أمسك بهما من جديد بيدين مرتجفتين، نظر من النافذة العلوية فشاهد اختفاء الظلام من فوق الجزيرة، وظهور ضوء الغروب بوضوح في النهاية. لم ينتظر، هبط فوق الدرج بسرعة محاولًا تدارك الأمر، يهمس لنفسه بلا وعي:

- فَهد، فَارِس، اصمُدا!

لكنه وصل متأخرًا. خرج ليجد فَهد واقفًا في مكانه بصعوبة، مستندًا على سيفه، ويده الثانية تشير إلى الجهة الأخرى بتوسل. نظر إلى حيث أشار صديقه القزم، حتى شاهد فَارِس جاثيًا أمام سِزدَار، بعدما وضع السيف على عنقه منتظرًا قدومه. تجمد الدم في عروق مَالِك في تلك الأثناء، شعر كأن الزمن قد توقف عند تلك اللحظة، صرخ بأعلى صوته:

- توقَّف أرجوك! لا تؤذه!

قاطعه فَارِس بصوت مُتحشرج مختلط بالدماء:

- لقد فات الأوان يا مَالِك، تخلّص منه الآن بعدما فقد قوّته.

- أخبرا شقيقتي ليلى بأنني قد أديت مهمتي على أكمل

وجه.

رفع مَالِك يديه عاليًا، ثم صَاح:

- خذ الماستين! واتركه الآن!

التفت إليه سِزدَار ببطء بعدما أزال قناعه، ليظهر من خلفه وجه بشري ممتلئ بحروق كبيرة في معظم أجزائه بفعل قوّة الظلام التي فقدها قبل قليل، ارتسمت على وجهه ملامح السخرية، ثم قال بصوت غمره الحقد:

- لن أترك أحدًا منكم حيًا! لن أترك بشريًا على أرض الماس بعد اليوم!

بدأ مَالِك بالاقتراب شيئًا فشيئًا، قائلًا:

- لقد انتهى أمرك! وتلاشَت قوتك!

- خدعتك أقاليم الجان، وأنهى البشر ظلامك!

قطع ذلك الحديث المشحون هبوط فِيدَار بجوارهم، كان يحمل بين فكّيه رأس زَازُوس بعدما تمكن من التخلص منه بجسارة، ألقى الرأس أمام مَالِك وأخفض رأسه بخضوع.

فأردف مَالِك بعدما بدأ بالتقدّم نحو سِزدَار من جديد:

- حتى حارس نَارِين قد تخلّى عنك!

في تلك اللحظة، التقت عيناه بعيني صديقه المصاب، فحرّك فَارِس يده ببطء شديد نحو خصره، سحب خنجره الصغير بخفّة، ثم حدّق إلى مَالِك بنظرة طويلة، نظرة قرار لا رجعة فيها. تمنّى أن يرى تيا في تلك الأثناء ولو لمرة أخيرة، لكنه كان مرتاحًا لعدم قدومها، وظهرت الدموع في عينيه بوضوح

بعدما تذكّر ابتسامة ليلى، وانتظارها له في إيستوريا.

هزّ مَالِك رأسه كأنّه يطلب منه التراجع، لكنه لم يتوقف بعدما أدرك أنه لم يتبق أمامه سبيل للنجاة بعد الطعنة الأولى.

قال في نفسه:

- سامحيني يا تيا!

اندفع فجأة بكل ما تبقّى له من قوّة، وغرس الخنجر في قدم سِزدَار اليمنى. فصرخ تلك المرّة بألم حقيقي، وتراجع نصف خطوة للوراء من هول المفاجأة وهو ما أراده فَارِس. لكن في نفس اللحظة في أثناء ركض مَالِك نحوه بعينين تشتعلان من شدة الغضب، جذب سِزدَار عنق فَارِس، ومرّر عليه السيف في حركة خاطفة ليسقط أمام صديقيه على الفور، ويسود صمت قاتل تلك البقعة.

توقف مَالِك في مكانه، ليشاهد دماء صديقه التي غطّت الثلج بغزارة، ومحاولاته اليائسة في إيقافها، لكن سرعان ما فاضت روحه، وسكنت حركته إلى الأبد. انهال مَالِك بسيفه على جسد سِزدَار، كانت صرخاته تتوالى مع كل ضربة وجّهها إليه، حتى أصاب كلتا قدميه وسط عجز سِزدَار عن المقاومة. لم يمنحه حتى فرصة للالتفات، استمر في ضربه إلى أن سقط الأخير جاثيًا بجوار جسد فَارِس.

ركض مَالِك نحو فَهد، أسنده برفق، ثبّت ذراعه حوله، ونظر إليه بعينين تغمرهما الدموع، هامسًا بصوت مهتز:

- لئنهِ ما قد قدّمنا من أجله!

أكمل فَهد بصوت متقطّع محاولة استعادة أنفاسه، وإيقاف

دموعه:

- لنَنْتَقِم من أجل فَارِس!

سحب مَالِك جسد فَارِس، امتطى فِيدَار بسرعة، ثبّت نظراته على سِزدَار الذي رفع رأسه بالكاد نحوه، كانت ملامحه متجهّمة، وصوته مختنق، قال بعدما لمَح فِيدَار في مواجهته:

- أردت استخدام الماسة لتوحيد أرض الماس تحت سيطرتي! فحوّلتني إلى كائن مختلف، جسد بلا روح!

- شخص ثلاحقه اللعنات أينما ذهب.

- والآن، وصلت إلى نهاية الطريق، وانتهى كل شيء.

لم يرد مَالِك على الفور، مسح دموعه أولًا، ثم أجاب بنبرة جادة:

- تخلّيت عن إنسانيتك لأجل أحلام واهية!

- كان عليك أن تدرك مسبقًا بأن الشر قد يكسب معارك كثيرة، وقد يمتد ظلامه لمسافات كبيرة، لكنه لن ينتصر أبدًا في النهاية.

أدار وجهه نحو تنينه، مسح على رقبته السميكة، ثم همس له بقوة:

- أنهِ هذا الشر الآن! أزله من أرض الماس إلى الأبد!

- كِيرَا!

زأر فِيدَار بقوة دوى صداها في الأفق كله، ثم فتح فمه الواسع ليطلق منه نيرانًا هائلة. دفعة لهب كالجحيم أضاءت محيطهم، والتهمت جسد سِزدَار بأكمله في لحظات، تحوّل

بعدها إلى رماد مُتفحّم تطايرت ذراته في الهواء كأنّه لم يكن.

***

مضت أربعة أيام أخرى، لم تتبدد خلالها غمامة الحزن عن وجهي مالك وفهد، خصوصًا مع وجود هذا الجسد بينهما. حملاه عائدين نحو ثُويا دون توقف. لم يكن لديهما أي رغبة في الحديث أو تناول الطعام، لكن سأل فهد أخيرًا بعدما توقف فيدار في وسط السماء فوق مياه بحر الشمال:

- هل هناك خطب ما؟

لم يرد مالك، أخرج الماسّتين في قبضته ومدها بهدوء في الهواء حتى لمعتا تحت ضوء الشمس، أمسك فهد بذراعه قائلًا:

- هل ستتخلص منهما؟ ربّما ينفعنا وجودهما لاحقًا.

تحدث مالك ببطء مجيبًا:

- لا حاجة لنا بتلك الأشياء الآن.

- لقد حولت الماسة سردار إلى كائن قاتل، ولا أرغب في أن أصبح مثله يومًا ما.

سكت قليلًا ثم أردف:

- تخيّل ماذا يمكن أن يحدث إن تمكن شخص آخر يشبهه من العثور على إحداهما!

- ربما يكون الخلاص منهما هو السبيل الوحيد لمنع عودة مثل ذلك الشر من جديد.

ألقاها ببساطة حتى سقطت في قلب المياه، وتابع طريقه

مرة أخرى دون أن ينظر خلفه حتى وصلا إقليم ثويا، وهبطا عند باب القلعة. كانت رايات الأقاليم ترفرف على الأسوار معلنة نهاية الحرب. هرع يزيد ولين وتيا في تلك الأثناء، ثم الأمراء بهرام وآصف وتيمور من بعدهم إلى مالك ليعطوه البشرى، بعدما نجحوا في القضاء على من تبقى من الفارجُل داخل القلعة بعد زوال الظلام.

نزل مالك من على ظهر فيدار أولًا، التقط الجسد من فهد بصعوبة، ثم وضعه أرضًا برفق حتى شاهدوه بوضوح. عمّ الصمت بينهم في الحال من شدة الصدمة، ثم ركضوا إليه حتى أحاطوا به. كانت تيا أول من جثت على ركبتيها إلى جانبه، وما إن رأت وجهه الساكن، حتى ارتجفت بشدة، وصاحت بصوت مكسور:

- لا يمكن!

سقطت فوق صدره تبكي بحرقة طويلة، وتسابقت دموع الجميع تباعًا. وضع يزيد يده على كتف مالك قائلًا:

- لقد قاتل ببسالة.

تساقطت دموع مالك بهدوء، وضع يده على رأس صديقه، واقترب ليقبل جبينه برفق، ثم نهض بعدها ملتفتًا ناحية الأمراء الثلاثة. حاول الكلام مرارًا، إلا أنه أحس كأنه أضاع كل الكلمات عند برج سارو، لكنه اضطر للحديث في النهاية بعدما أحنوا رؤوسهم له احترامًا، قائلًا بعد مصافحتهم ومعانقة الأمير بهرام بعد عودته من ألميريا:

- أيها الأمراء، يبدو أن تلك الحروب لن تنتهي بوجود أمراء الجان!

- لكنها ستتوقف حاليًا على الأقل، بعدما تخلصنا من سردار.

رد تيمور مبتسمًا:

- إذن لقد تحققت النبوءة، وظهر فارسها المنتظر.

- أي نبوءة أيها الأمير؟ لقد استخدمت الماسة فقط!

قالها مالك، فأجابه الأمير آصف:

- ألست أنت من أخضع فيدار، وجمع الأقاليم تحت راية واحدة؟

- ربّما ترى بأنك تحايلت على الأمر، لكن كان امتلاكك للماسة، وقدومك من أرض بعيدة، ومواجهتك للظلام، جزءًا من تحقيقها.

أكمل بهرام بعدما وضع يده على كتف مالك:

- فيونا من حقك الآن.

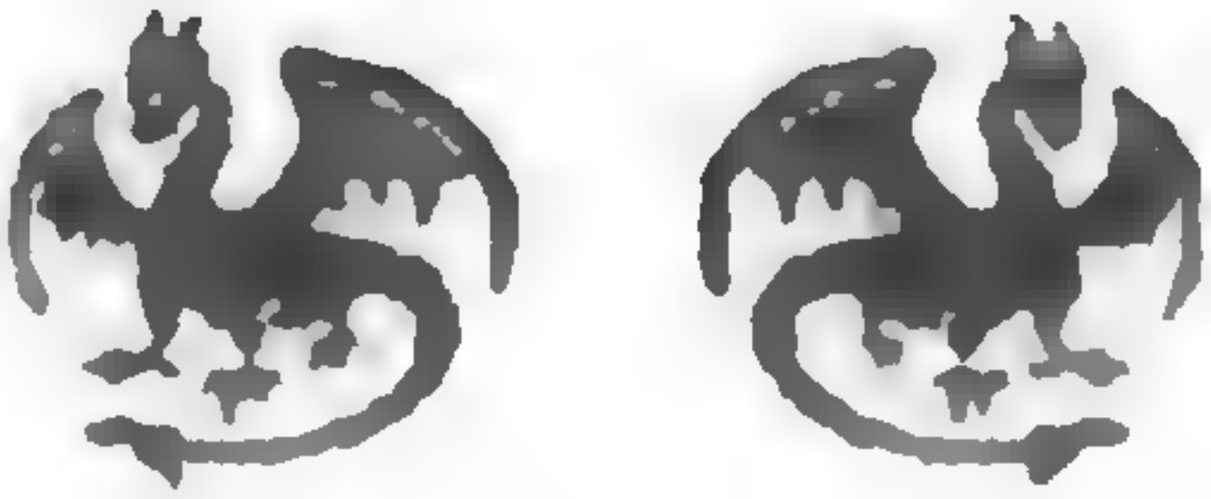

هز مالك رأسه بالسلب على الفور، نظر إلى يزيد وتيا، ثم قال بنبرة صافية:

- يكفيني أن أصبح حارسًا لهذه الأرض على ظهر فيدار.

- أما فيونا، فهي من حقهما!

ساد صمت طويل قبل أن يهتف أحد الجنود من الخلف بصوت متردد:

- عاش القائد مالك، فارس فيدارا!

تلاه آخرون، وآخرون، حتى اهتزت القلعة خلال دقائق بالهتاف، وأُعلنت نهاية الظلام على أرض الماس.

***

22

وداع

ساحل إقليم مرمرة، بعد عشرة أيام.

كان يومًا دافئًا على غير العادة، وقف فيه مالك بصمت شديد على مقربة من الشاطئ إلى جوار فهد ولين، ينظرون إلى ذلك القبر الصغير المشيد بحجارة داكنة، كُتب عليها باللون الأبيض اسم صديقهم فارس. لم ينطق أحد بكلمة، كانت رياح البحر الباردة تضربهم بهدوء كأنها تحاول الترويح عنهم قليلًا، وتداعب أطراف ثيابهم وخصلات شعرهم كأنها تواسيهم فيما فقدوه.

انحنى مالك ببطء، وضع كفه فوق الحجارة، همس بصوت منخفض:

- كنت لشخصي صاحبًا، ولطرقي رفيقًا.

- فلتعلم الآن أنه بفقدانك، خسرت الصاحب والرفيق.

- ارقد بسلام يا صديقي.

جلس فهد إلى جانبه محدقًا إلى القبر قائلًا لمالك:

- تفرقنا في المرة الأولى عند قدومنا، والآن نفترق من جديد بعد انتهاء المهمة.

- لكن تلك المرة مختلفة بدون فارس! سأفتقد محارب البشر هذا بشدة.

بينما اكتفت لين بإغماض عينيها وهي تضُم يديها إلى صدرها محاولة التماسك. نظرت إلى الخلف بعدما وصل

قارِب خشبي يحمل أحد بحّارة مرمرة، أتى من عند أسطول صغير مكوّن من خمس سفن ضخمة كانت متوقفة من بعيد، بعدما أهدَها الأمراء إلى فهد تكريمًا له قبل عودته إلى إيستوريا، وأرسلوا فيها الكثير من الهدايا إلى ملوكها.

التفت فهد إلى مالك بابتسامة حزينة، ثم ضمه إليه في صمت طويل، همس بعدها بنبرة خافتة:

- هل أنت متأكد؟

أجابه سريعًا:

- أظن أنني تعبت من كل شيء وأرغب في الحصول على بعض السلام مع زوجتي.

- إقليم مرمرة هادئ، ولين تحب تلك البقعة كثيرًا.

- كما أنني لا أستطيع ترك صديقي الشجاع هنا بمفرده!

أومأ فهد في صمت بعدما رمق القبر بنظرات أخيرة، ثم نظر إلى التنين العملاق القابع في الخلف، وقبل أن يتكلم أردف مالك بابتسامة:

- ولم أعُد أستطيع الابتعاد عن فيدار أيضًا.

- لهذا قررت البقاء.

- سيتفهم الملوك في إيستوريا هذا الأمر بالتأكيد. أرسل سلامي إلى الجميع، واعتنِ بتيا جيدًا.

هز فهد رأسه، ثم أردف بنبرة أكثر جدية:

- لكن عاجلًا أو آجلًا، ستندلع الحرب بين البشر والجان، ولن تكون حربك يا مالك!

سكت للحظات، حدّق إلى مياه البحر، ثم أكمل:

- يعتمد أهل ألْمَاسيَا عليّ الآن، ولن أُسامح نفسي إذا خذلتهم.

تنهد فهد، ثم أشَار برأسه نحو الأفق:

- أخبرني الأمير آصف بأن عواصف بحر الشمال تكون أكثر هدوءًا من جهة الجنوب.

أجابه:

- نعم، لقد تأكدت من هذا الأمر بنفسي مع فيدار قبل أيام.

ثم أردف بصوت رقيق:

- لذلك ستتمكن من عبوره إذا ما قررت زيارتي أيضًا.

قالت لين بابتسامة:

- سنكون في انتظارك دومًا.

تبادلوا النظرات للحظات قصيرة، التفت بعدها فهد للمغادرة، لكنه توقف بعدما قال مالك:

- أخبر الملوك بما فعله القبطان كنان من أجلنا.

- لا ننسَ من وقف إلى جانبنا بجسارة أبدًا!

هز فهد رأسه مجيبًا:

- ليكن ما أردت.

ثم التفت إلى البحار قائلًا:

- هيّا، لنعد إلى الوطن.

وابتعد صوته شيئًا فشيئًا وهو يسأله، بعدما وضع ذراعه

الصغير على ظهره:

- هل أُتيت بلحم البقر إلى السفينة كما طلبت؟

وقف مالك ولين يراقبان القارب في أثناء ابتعاده عن الشاطئ حتى وصل إلى إحدى السفن وصعد فهد على متنها، لوّح بيده إلى الشاطئ مرة أخرى، فرفعا يدَيهما ليردّا التحية، ودوى هدير فيدار محييًا هو الآخر.

اقتربت لين من مالك بخطوات ناعمة، احتضنته من الخلف حتى شعر بذلك الدفء الذي لا يعرفه إلا بقربها. قال مبتسمًا:

- يبدو أننا قد أصبحنا بمفردنا.

لكنها لم ترد، وضعت يدها برقة على بطنها، ثم التفتت إليه بابتسامة هادئة، وعيون تلمع ببريق مختلف، قائلة:

- لسنا بمفردنا تمامًا.

حدّق إليها للحظة قبل أن يزداد اتساع عينيه بالدهشة والفرح، اقترب منها واضعًا يده فوق كفها، هامسًا بدهشة لم يُخفها، بعدما تذكر تلك الليلة التي قضاه معها في ألميريا قبل ذهابه إلى نارين:

- حقًّا؟

أومأت برأسها، ثم أردفت بهدوء:

- كنت أشعر بأمور غريبة خلال الفترة الماضية، حتى ظننت بأنه قد أصابتني علة ما.

- لكنني تأكدت من الأمر بعد عودتنا إلى مرمرة.

ابتسم مالك بشدة للمرة الأولى منذ فقدانه لفارس، ضمها

إليه مجددًا لدقائق، قررا بعدها الذهاب إلى منزلهما الجديد في تلك المزرعة التي أهداها يزيد وتيا لهما قبل انتقالهما إلى قلعة فيونا.

تحرّكت أمامه بخفة نحو حصانها، يرفرف رداءها الأبيض خلفها مثل أجنحة فيدار، ويداعب شعرها الأحمر أذنيها الطويلتين، فتبعها بخطوات بطيئة فوق الرمال. التفت بناظريه نحو القبر من بعيد، ثم همس:

- إلى اللقاء يا صديقي.

ركب حصانه ولحق بلين، تاركًا التنين الأحمر بالقرب من كهفه الجديد عند الشاطئ، سألها ضاحكًا:

- أتساءل كيف سيكون شكله؟

- هل من البشر؟ أم من الجان؟

ضحكت بشدة، ثم نظرت إليه قائلة:

- سيكون منا معًا، وهذا يكفي.

تابع الاثنان طريقهما معًا لبضع دقائق، حتى لاحت أمامهما تلك المزرعة الهادئة، وظهرت حقولها الواسعة على مرمى البصر.

***

تمت بحمد الله

إهداء

إلى ابنتيّ العزيزتين، إلى زوجتي الحبيبة

***

وإلى حراس ألْمَاشيَا المهيبة.

شكر خاص

إلى دار ن للنشر والتوزيع والقائمين عليها،

على مجهودهم الكبير لكي تظهر هذه الرواية إلى النور.